معالم قرآنية في البناء

موقع المرأة المسلمة

بين الإسلام... ودعاوى التجديد

الأستاذ الدكتور محمّد أديب الصّالح

العبيكان
Obekan

معالم قرآنية في البناء

موقع المرأة المسلمة

بين الإسلام... ودعاوى التجديد

تأليف

الأستاذ الدكتور محمّد أديب الصّالح

العبيكان
Obeikan

ⓒ مكتبة العبيكان، ١٤٢٧هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الصالح، محمد أديب
موقع المرأة المسلمة ودعاوي التجديد. / محمد أديب الصالح. - الرياض ١٤٢٧هـ
٢٩٠ ص؛ ١٦,٥×٢٤سم
ردمك: ٩ - ١٠٢ - ٥٤ - ٩٩٦٠
١ - المرأة في الإسلام أ. العنوان
ديوي ٢١٩,١ ٥٣٩٢/ ١٤٢٧

رقم الإيداع: ٥٣٩٢/ ١٤٢٧
ردمـــــك: ٩ - ١٠٢ - ٥٤ - ٩٩٦٠

الطبعة الأولى

١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م

حقوق الطباعة محفوظة للناشر

الناشـر
شركة العبيكان للأبحاث والتطوير
الرياض - شارع العليا العام - جنوب برج المملكة
هاتف ٢٩٣٧٥٧٤ / ٢٩٣٧٥٨١ فاكس ٢٩٣٧٥٨٨
ص. ب ٦٧٦٢٢ الرمـــز ١١٥١٧

امتياز التوزيع
شركة مكتبة العبيكان
الرياض - العليا - تقاطع طريق الملك فهد مع العروبة
هاتف ٤١٦٠٠١٨ / ٤٦٥٤٤٢٤ فاكس ٤٦٥٠١٢٩
ص. ب ٦٢٨٠٧ الرمـــز ١١٥٩٥

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو نقله في أي شكل أو واسطة، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك التصوير بالنسخ «فوتوكوبي»، أو التسجيل، أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي من الناشر.

بسم الله الرحمن الرحيم

توطئة

الحمد لله الذي يسجد له ما في السموات وما في الأرض طوعاً، وكرهاً وظلالُهم بالغدوِّ والآصال.

والحمد لله عالمِ الغيب والشهادة الكبير المتعال، القائم على كل نفس بما كسبت وهو شديد المِحال.

والحمد لله الذي له مقاليد السموات والأرض، والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الخاسرون. وتبارك الذي نزّل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً، سبحانه من إله غفورٍ ودودٍ إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه، أنزله بالحق وبالحق نزل، وهو النور المبين.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، أوحى بهذا الكتاب المبين إلى خاتم رسله وصفوته من خلقه محمد بن عبدالله رحمة العالمين؛ مباركاً ليدَّبروا آياته وليتذكَّر أولو الألباب، نعم، ونزّله تبياناً لكل شيء وهدىً ورحمة وبشرى للمسلمين. ويسّره بلسانه ليبشر به المتقين، وينذر به قوماً لداًّ. حيث الغايةُ الكبرى أن يحصل التذكر وتأخذ الهداية سبيلها إلى القلوب ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾[1].

وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله؛ أدّى الأمانة في تبليغ ما أنزل إليه من تلكم الآيات البينات، ولم يدَع أن يبيِّن - وقد أوتي القرآن ومثله معه - ما يلزم بيانُه خير بيان، عملاً بقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[2].

---

(١) (الدخان: ٥٨).
(٢) (النحل: ٤٤).

فجزاه الله عن الأمة ونصرة الحق خير الجزاء، وصلى الله وسلم وبارك عليه ما اختلف الليل والنهار؛ أداءً لبعض حقه وقد أنقذنا الله به من التهلكة وجعلنا في خير أمة أخرجت للناس، كلما ذكره الذاكرون وغفل عنه الغافلون، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وصحابته الهداة المهتدين، الذين أدَّوا أمانة نقل الكتاب الكريم وبيانه المحمّدي على خير وجه وأكمله للعالمين. ومن تبعهم بإحسان واقتفى أثرهم على طريق القرآن المجيد وبيانه من سنة سيد المرسلين.

وبعد: فليس من نافلة القول أو مكروره التذكير بواحدة من المسلَّمات عند أولي الألباب، وهي أن واحداً من أهل النَّصَفة أوتي ولو أثارة من علمٍ، لا يماري في أن من أجلِّ نعم الله على الأمة المحمدية، بل على البشرية جمعاء، هذا القرآنُ المجيد الذي أنزله الله على نبينا محمد صلوات الله وسلامه عليه بالحق، وبالحق نزل، أنزله عليه - كما تدلّ معالمه - ولم يجعل له عوجاً، ويسره بلسانه ليبشر به المتقين وينذر به قوماً لدّاً لعلهم يتذكرون.. هذا الذكر الحكيم - وهو كلام الخلاق العليم - يتبوأ من رفعة القدر وسعة العطاء في كلماته التي لا تنفد، المنزلةَ التي لم يبلغها كتاب ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾[1]، كما يتبوأ من عظيم المكانة التي لا تجارى في قيمه وحقائقه ومعانيه الناطقة بها معالمه، ناهيك عن أسلوبه وفصاحته، حيث بلغ من سموّه أن الله تبارك وتعالى رقاه إلى مقام دلّ بعظمته أنه المعجز حقاً، وأنه مع دلالاته القاطعة على أنه من عند الله لو اجتمعت الإنس والجن على معارضته، ولو بالإتيان بسورة من مثله لعجزوا ولم يقدروا ولو تمالؤوا جميعاً على ذلك ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[2].

(١) (الكهف: ١٠٩). (٢) (الإسراء: ٨٨).

فسبحان من أنزله تبصرة وذكرى لأولي الألباب، وجعله مهيمناً على ما سبقه من الكتب، وأغزرها علماً للعباد ونفعاً، وأجلّها منزلة وقدراً ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾(١).

وهكذا شاء ربنا تبارك وتعالى أن يكون هذا الكتاب الخاتم - وقد أنزل على صاحب الرسالة الخاتمة - ينبوع الحكمة وآية الرسالة، ونور الأبصار والبصائر، ولم لا وهو الكتاب الذي أحكمت آياته ثم فصّلت من لدن حكيم خبير. ألا إنه الفصل ليس بالهزل، لا يمتري عاقل في أنه كلّي التشريع، وعمدة الملة. فهو أصل الأصول، وحبل الله المتين، لا تزيغ به الأهواء ولا يخلق على كثرة الردّ - أو عن كثرة الردّ - ولا تنقضي عجائبه، فهو الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾(٢) من قال به صدق، ومن عمل به أُجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هُدي إلى صراط مستقيم.

وأنت واجد في معالمه النورانية الخيرة، المكيِّ منها والمدني، والتي يطالعك من خلالها عمومُ هدايته.. نهجاً من البناء الحضاريّ القويم، على صعيد الفرد والجماعة والأمة بشمول وعمق بالغَين، الأمر الذي يرقى بالأمة، أن لو عملت به. إلى كل ما فيه سعادة الدنيا ويوم يقوم الناس لربّ العالمين، ذلك بأن هذه المعالم - وهي من هذا الكتاب وإليه - حقّ كلها، ونور كلها، ألم تر إلى قوله تعالى: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝١٠٥ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا﴾(٣) وقوله جل شأنه: ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾(٤).

---

(١) (المائدة: ٤٨).
(٢) (الجن: ١ - ٢).
(٣) (الإسراء: ١٠٥ - ١٠٦).
(٤) (فاطر: ٣١).

أجل، هو الحق وأنزل بالحق، فليس لشيء من الباطل - كائناً ما كان شأنه وشأن أهله - إلى تلك المعالم من سبيل، مهما افترى المفترون، ومكر الماكرون، وماري السفهاء والملبِّسون، وانتحل العابثون المبطلون. وجلّ شأن ربنا السميع القاهر فوق عباده إذ يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[١].

فطوبى لمن تحملهم نورانية هذه المعالم إلى أن يكونوا على الجادة يحسنون اصطحاب هذا القرآن تلاوة وتدبراً وتذكراً، يعملون بمحكمه، ويؤمنون بمتشابهه، ويدورون معه - وهو كلام العليم الحكيم - حيث دار. وما أعزّها ثمرة مخالطةُ تلك المعالم مخالطة إيمانية واعية، تسمو بأصحابها المهديّين إلى حيث السدادُ في الأقوال والأفعال، والظفر بالسعادة العاجلة، وحسن العقبى يوم الدين، حيث يشهد لهم القرآن بأنهم كانوا في الدنيا لا يدَعون أن يدوروا معه حيث دار.

وكم دعا السلف الصالح إلى التحقق بذلك، وكشفوا لمن يقوم به عن أعظم البشريات. روى صاحب «الحلية» عن عبدالرحمن بن عبدالله بن مسعود: أن رجلاً أتى أباه عبدالله بن مسعود فقال: يا أبا عبدالرحمن، علِّمني كلمات جوامعَ نوافع، فقال رضي الله عنه:

«اعبد الله ولا تشرك به شيئاً، ودر مع القرآن حيث دار، ومن جاءك بالحق فاقبل منه وإن كان بعيداً بغيضاً، ومن جاءك بالباطل فاردد عليه وإن كان حبيباً قريباً.»[٢] وروى الباجي عن ابن وهب قال: سمعت مالكاً يقول: «إن استطعت أن تجعل القرآن إماماً فافعل، فهو الإمام الذي يهدي إلى الجنة»[٣] ورضي الله عن ابن أم عبد إذ يقول: «إنما هذه القلوب أوعية

---

(١) (فصلت: ٤١-٤٢).

(٢) «الحلية» لأبي نعيم الأصفهاني: ١ / ١٣٢ . «صفة الصفوة» لابن الجوزي: ١ / ١٦٥، «الربانيون قدوة وعمل» للمؤلف: ١٣٢ .

(٣) ينظر تفسير الثعالبي: ٢ / ٢٥٢ .

فاشغلوها بالقرآن ولا تشغلوها بغيره»[١]. ولا تعجب ما دام القرآن هو الكتاب المعجز الذي لا يستطيع الجن والإنس على معارضته ولو اجتمعوا وتظاهروا، والذي صرّف الله فيه دلائل الهدى ونوّعها لتخاطب كل عقل وقلب، وسبحان من أنزله على نبينا المصطفى ليكون للعالمين نذيراً.

وعلى هذا السنن من اصطحاب اللمحة السريعة في هذه العجالة في القول: ما بد من التنويه بوضوح الدلالة على أفضلية هذه المعالم وما تتسم به من الدقة المتناهية، والحكمة - البالغة في وفرة عطائها الذي لا يستثني ساحة من ساحات البناء، ذلك البناء الذي لا ينأى عن العبودية لله والحفاظ على إنسانية الإنسان ونصرة الحق وتوفير ما يثمر الحضارة المثلى، لما أن هذه الحضارة من نور القرآن الذي هو المعجزة الحقة الباقية إلى يوم الدين. وسداها ولحمتُها هديه الربانيّ وبناؤه الحق المكين.

وجماع ذلك على صعيد الهداية والبناء الشامل المتكامل للفرد والجماعة والأمة - ناهيك عن البناء الحضاري القويم - قول الله تعالى في سورة الإسراء - وهي سورة مكية -: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾[٢]، وأقوم من القَوام وهو العدل والاعتدال، ومنه قوله تعالى: ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾[٣]، وفلان أقوم كلاماً من فلان: أي أعدل.

فهذا الكتاب المبين يهدي ويرشد العباد على خير منهج في دينهم ودنياهم وآخرتهم لأقوم الحالات وأصوبها، وأفضل الطرق وأسدّها، وأوضح السبل وأعدلها؛ فالهداية به قائمة أبداً للحالة التي هي أسدُّ وأعدل

---

(١) «الربانيون قدوة وعمل» ١٧١، وانظر «الحلية» ١ / ١٣١.
(٢) (الإسراء: ٩).
(٣) (الفرقان: ٦٧).

وأصوب، ويمكن أن نقول: يهدي للملّة أو الشريعة أو الطريقة التي هي أقوم الملل والشرائع والطرق. وهذا مبنيّ على أن كلمة (أقوم) نعت لموصوف محذوف ذهب كثير من العلماء إلى تقديره على الوجوه التي ذكرنا أو بعضها. ومثل هذه الكناية كثير في القرآن الكريم كما في قوله تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ...﴾[١]. أي بالخصلة التي هي أحسن. فكان أفعل التفضيل (أحسن) صفة لكلمة الخصلة المقدرة.

ولا علينا أن نذكر أن فريقاً من العلماء ذهب إلى أن (أقوم) ليست للتفضيل؛ فالمعنى: يهدي للتي هي قيّمة أي مستقيمة، كما قال تعالى: ﴿وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾[٢]، وكما قال سبحانه: ﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾[٣]، أي مكتوبات مستقيمة ناطقة بالحق.

هذا: ومن الأهمية بمكان أن نشير إلى أنه على كلا الوجهين في كلمة (أقوم) فإن قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ يأتي على وجه الإطلاق في تقرير أن هذا الكتاب الكريم يرشد للطريقة التي هي أسدّ وأعدل فيمن يهديهم وفيما يهديهم له، فيشمَل الهدى - كما يقول صاحب الظلال[٤] أقواماً وأجيالاً بلا حدود من زمان أو مكان، ويشمل ما يهديهم إليه كلَّ منهج وكل طريق، وكلَّ خير يهتدي إليه البشر في كل زمان ومكان.

هذه واحدة، وأما الثانية: فهي ما أوضحه الزمخشري من عظمة الإعجاز ورفعة الذوق البلاغي في حذف الموصوف بقوله تعالى: ﴿لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ قال في «الكشاف»: ﴿لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ للحالة التي هي أقوم الحالات وأسدُّها، أو للملّة أو الطريقة، وأيَّما قدّرت لم تجد مع الإثبات - أي إثبات الموصوف - ذوق البلاغة الذي تجده مع الحذف، لما في إبهام الموصوف بحذفه من فخامة تُفقَد مع إيضاحه»[٥].

وفي خاتمة المطاف: لقد قدمت هذه اللمحة الوجيزة من القول الذي هو في سموّ موضوعه عن القرآن ومعالمه الخيّرة قليل قليل من كثير كثير،

---

(١) (فصلت: ٣٤). (٢) (البينة: ٥). (٣) (البينة: ٣).
(٤): (٤ / ■ / ٢٢). (٥): «الكشاف»: (٢ / ٣٥٣).

قدمتها وأنا بسبيل الإشارة العجلى إلى أن الصفحات القادمات هنا ثمرةٌ من ثمرات رحلة ميمونة طالت بعض الشيء، منَّ الله بها عليّ - وهو ذو الفضل العظيم - صحبت من خلالها عدداً وافراً من المعالم القرآنية المكي منها والمدني، الهادية إلى كل ما هو أسدُّ وأعدل في مختلف الأحوال والشؤون، لما أنها من محكم التنزيل وإليه.

وقد كنت حريصاً - من خلال التدبّر المستطاع - على تناولها بأمانة علمية منهجية والكشف قدرَ الطاقة عن معانيها ومنارات الهداية في كل منها حسب موقعه على الصعيد المطروق في ساحة البناء الشامل المتكامل بمعناه الإسلامي الحضاري، البناء الذي تناول - مع العقيدة والعبادة والأخلاق - شؤونَ الحياة بأكملها، لما أن جذور حضارتنا الإسلامية تكمن في هذه المعالم الخيّرة وبيانها من السنة المحمدية، ثم فهوم أئمة الهدى عليهم الرحمة والرضوان. وأينما وجدت المصلحة في عرف هذه الحقيقة: فَثمّ شرعُ الله ودينه.

واللهَ أسأل أن يتقبل بقبول حسن هذا العمل النيّر بجوهره وعطائه، المتواضع بتناوله والكلام فيه، وأن ينفع به قارئه والناظر فيه، وأن يتفضل بالعفو عما يكون من زلل. إنه سميع مجيب الدعاء، لا ربَّ غيرُه ولا خير إلا خيرُه، منه التيسير والعون وإليه المرجع والمآب.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلاة الله وأزكى تسليماته على إمام الهداة وصفوة الله من خلقه سيدنا محمد بن عبدالله وعلى آله الطيبين الطاهرين وصحابته الهادين المهتدين؛ أجمعين.

محمد أديب الصالح

أستاذ ورئيس قسم القرآن والسنة بجامعة دمشق

أستاذ ورئيس قسم السنة وعلومها بجامعة الإمام سابقاً

رئيس تحرير مجلة حضارة الإسلام

القرآن.. ووعي المرأة المسلمة

بين القرآن وبين أمة الإسلام: نسب لا يبلى، وعروة لا تنفصم، تلك حقيقة يجب أن تعيها الأمة وعياً ينعكس على ممارستها وتنظيمها لشؤون الحياة، ورحلتها الحضارية عبر التاريخ، كيما تكون ماثلة عند كل تصرف، حاضرة مؤثرة عند كل منطلق في أي ميدان من ميادين الحياة، ولقد جنت أمتنا ثمرة ذلك في الماضي فكان خيراً عليها وعلى البشرية. واليوم... لا بد أن يكون ذلك عنوانَ يقظتها بعد تلك الغفوة التي نرجو أن تذهب إلى غير رجعة.

وفي الآيات المكية نعى الله على المشركين إعراضهم عن دعوة الإسلام، واستبدالهم اللهو واللعب ودعوى السحر بوعي الكلمة القرآنية تتنزل من السماء، تلك الكلمة التي معها نورها، وفيها هدايتها، قال تعالى في سورة الأنبياء: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلاَّ اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾﴾ [الأنبياء: ٢-٣].

وتتوالى الآيات فيخاطب الله قريشاً بأنه أنزل القرآن فكان كتاباً فيه ذكرهم ومعزتهم لأنه نَزَل بلغتهم، فما عليهم إلا استعمال عقولهم دونما تقليد أعمى ليؤمنوا به ويعملوا بمقتضاه.. نعم فيه ذكرهم وحياتهم ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الأنبياء: ١٠].

وعندما انشرحت الصدور للإسلام، وخالطت بشاشة الإيمان القلوب: عمل بيان النبي ﷺ وتربيته المثلى عملهما في تثقيف مستنير، يعين على سلامة التفكير وصواب التفسير للوقائع بين الجاهلية والإسلام، كما عملا عملهما في بناء المسلم على تحري الحقيقة، طاعة لله عز وجل، وفي النزوع إلى التحرر من ربقة التقليد الأعمى.

وهكذا أشرقت القلوب بما يحفظ من التلفت المردي، واستنارت العقول بالقدرة على وضع الأمور مواضعها؛ فالرسول ﷺ هو الأمين الصادق المصدوق، والقرآن عجز العرب من أول يوم ـ وهم أرباب البلاغة والفصاحة ـ أن يأتوا بسورة من مثله، واستبان الصبح لكل ذي عينين، وأدركت الجماعة المسلمة أن القرآن حياتها، فخاضت غمار هذه الحياة على هدي من نوره وإرشاده، لا تستثني ميداناً من الميادين، لقد بنى القرآن الإنسان، وبنى هذا الإنسان القرآنيُّ مجتمعاً يتسم بالتكامل وتوظيف الطاقات كلها على طريق البناء الذي يرضاه الله ويرضاه رسول الله.

ومن عجب: أن خيريَّة الوحي الذي تنزل من السماء، وأنه كان الشفاء الناجع لكل متاعبهم ومشكلاتهم، والغيث العميم الذي أحيا الأرض بعد موات، من عجب: أن ذلك كان في قلب وعقل كل مسلم ومسلمة، سمةٌ من سمات الوعي لما هم فيه، وللرسالة التي يضربون في أرجاء الأرضِ تحت رايتها، سلماً وحرباً، وتحركاً على كل صعيد.

وإليك صورة من هذا الوعي نجدها عند واحدة من النساء المسلمات وهي أم أيمن رضي الله عنها. وإكرامُ رسول الله ﷺ لأم أيمن لما لها من فضل: معروف ومشهور، روى الإمام مسلم عن أنس رضي الله عنه، قال: «قال أبو بكر لعمر رضي الله عنهما بعد وفاة رسول الله ﷺ: انطلق بنا إلى أم أيمن نزورها كما كان رسول الله يزورها، فلما انتهيا إليها بكت، فقالا لها: ما يبكيك؟ أما تعلمين أن ما عند الله خير لرسول الله ﷺ؟ قالت: إني لا أبكي أني لا أعلم أن ما عند الله خير لرسول الله ﷺ، ولكن أبكي أن الوحي قد انقطع من السماء».

أرأيت يا أخي المسلم إلى إدراك قيمة الوحي وعظمة القرآن، وإلى وعي المرأة المسلمة، أترك لك أن تفكر لترى أيَّ خير يفوت المسلمين إن هم ابتعدوا عن هذا الكتاب، وأي واجب يتعلق في أعناق الجميع، أن يعملوا على أن يكون وعي الحقائق الإسلامية عند الرجل والمرأة عماد نهضة الأمة، وتحقيق وجودها الذاتي المتميز في العالمين.

المرأة المسلمة.. والبناء

«١»

ما كان للإسلام أن يكون نظاماً للحياة ـ بكل شعبها ـ في بناء الفرد والأسرة والجماعة، وأن يكون من أغراضه إقامةُ مجتمع أمثل، لا تعوزه واحدة من خصائص النماء والاستمرار القويمين، حيث يبني الرجلُ والمرأةُ الزوجان أولَ لبنة من لبناته، ويتعاونان في ظل الشرعة المباركة وهديها الميمون على كل ما فيه خير الجميع... ما كان للإسلام أن يكون كذلك، ثم ينظرَ إلى المرأة نظرات الجاهلية الأولى؛ فيهمل إنسانيتها، ويحرم المجتمع مما أودع الله فيها من طاقات تتناسب مع تكوينها، ويعطِّل مسار أهليتها لحمل رسالة الإسلام التي خاطب الله بها النساء كما خاطب الرجال؛ لأن النساء شقائق الرجل، فلا فارق في الأصل والفطرة ولكن الفارق في الاستعداد والوظيفة؛ فضلاً عن تجاهل التزاوج بين الرجل والمرأة، واستعدادات كل منهما، وتناسق هذه الاستعدادات الدالة على الحكمة البالغة في الخلق، بعضها مع بعض، وتكاملها الدقيق لإقامة الأسرة من ذكر وأنثى كما شاء الله.

لقد جاء الإسلام فواجه جاهلية التصور، وجاهلية التعامل بالنسبة للمرأة؛ وشواهد ذلك كثيرة وفيرة، وحسبك من ذلك ظاهرة الوأد التي سلفت الإشارة إليها من قبل، مضافاً إليها ما كان يحدث من حبس اليتيمات على أوليائهن ليتزوجوا بهن دون إعطائهن مهور لِداتهن، والرجال يستأثرون بمعظم التركة ويحرم النساء حقوقهن في الميراث لضعفهن عن حماية الذمار والدفاع عن القبيلة!! وإذا نالهنَّ شيء من المتاع: حُبس من أجل الإفادة منه. وأي كرامة لهذه التي يورثها العرف الجاهلي للرجل كما يورثه المتاع؛ فإذا ماتَ زوجها جاء وليه، فألقى عليها ثوبه. فيعرف أنها أصبحت تحت سلطانه؛ إن شاء نكحها بغير مهر، وإن شاء زوجها وأخذ مهرها.

ويعضُلها زوجها إذا طلقها، فيدعها كالمعلقة لا هي زوجة ولا هي مطلقة، حتى تفتدي نفسها بما تستطيع وتفك إسارها، وقد أشرت من قبل إلى نكاح المقت... إلى غير ذلك.

فهذا المجتمع ـ على ما كان يتمتع به من فضائل ـ كان يضع المرأة موضعاً غير كريم، ويعاملها معاملة تتنافى مع الفطرة وكرامة الإنسان.

هذه الجاهلية بشقيها واجهتها الدعوة الإسلامية بالتغيير الجذري؛ فمن ناحية التصور: جاء الإعلان أن المرأة والرجل يرتدان في الخَلْقِ إلى نفس واحدة، ومن ناحية التعامل: رسم المنهج الذي يدلك على حكمة الحكيم سبحانه.

وكانت الخطوة الأولى على هذه الطريق النيِّرة المباركة: ما نجده في واحد من المعالم القرآنية الذي تشرق بها فواتح سورة النساء من التذكير بتلك الحقيقة الكبرى وهي أن الرجل والمرأة يرتدان إلى أصل واحد من طينة واحدة. فالناس ـ ذكورهم وإناثهم ـ مخلوقون من نفس واحدة، وهذه النفس خلق الله منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً.

فسورة النساء التي أفاضت في بيان كثير من أحكام النساء ـ وهي سورة مدنية ـ وسميت بهذا الاسم لذلك ـ والله أعلم ـ قد بدئت بهذا المعلم القرآني الذي يقرر تلك الحقيقة أن الناس كلَّهم ذكورهم وإناثهم خلقوا من طينة واحدة؛ إذ خلقهم الله من نفس واحدة؛ فكلهم لآدم وآدم من تراب، وخلقت المرأة من نفس الرجل؛ فالله بقدرته وحكمته خلق ابتداءً نفساً واحدة وخلق منها زوجها، فكانا زوجين ـ هما آدم وحواء ـ ونشر وفرَّق من آدم وحواء خلائق كثيرين ذكوراً وإناثا.

ذلكم قول الله تبارك وتعالى في أول آية من السورة المومى إليها:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝١﴾ [النساء: ١].

هكذا افتتحت هذه السورة المباركة بخطاب الناس جميعاً ودعوتهم إلى تقوى الله بعبادته وحده لا شريك له، وتنبيههم على قدرته ووحدانيته تعالى؛ فالذي خلق الناس ذكورهم وإناثهم من نفس واحدة، ويسّر عن طريق التزاوج بين آدم وحواء بثَّ كثيرٍ من الرجال والنساء: جدير بأن يُتقىَ ـ سبحانه وتعالى ـ ويُفرد بالعبادة، ولذلك تكرر الأمر بالتقوى مرة أخرى في آخر الآية فقال جل شأنه: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [النساء: ١].

هذا التذكير بالأصل الواحد، والأمر بالتقوى بين يدي مجموعة كبيرة من الأحكام التي تتناول شؤون الفرد والمجتمع ـ ومنها أحكام النساء ـ يشعر بأن الله ـ وهو أعلم بمراده ـ شاء أن يحل العقدة الكبرى من النفوس، سواء من حيث العلاقة بين الناس بعضهم ببعض، أو من حيث علاقة الرجل بالمرأة، وذلك بالتذكير بأن الناس ذكورهم وإناثهم على اختلاف ألوانهم وأجناسهم وانتماءاتهم العرقية أو الجغرافية.. وما إلى ذلك يرتدون إلى أصل واحد.

وكل حَيدة عن هذه الحقيقة في التعامل واختيار الضوابط التي تكون مردَّ التفاصيل: توقع في الظلم، حيث تقلب الموازين وتضيع على المجتمع بل على الإنسانية إمكانات وطاقات؛ إما أن تظل مهدرة عُدمت الفائدة منها، وإما أن توضع في غير موضعها فتتحول إلى شر وفساد.

وهذا ما يضمن أن تكون المرأة ـ وهي في إطار شرعة الإسلام ـ تلك الركيزة المنتجة في البناء عن عقيدة وطمأنينة؛ لأن عملها ـ حسب تكوينها وأهليتها ـ يتكامل مع الرجل، وإن اختلفت عنه في بعض الأحكام حسب هذا التكوين؛ فخطاب التكليف واحد، والفارق بينهما ليس في الأصل والفطرة ولكن في الاستعداد والوظيفة، حتى التفضيل المنصوص عليه في القرآن: ليس تفضيلَ كل رجل على كل امرأة.

والله المسؤول أن يجعلنا ـ رجالاً ونساءً ـ من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

المرأة المسلمة.. والبناء مقروناً بسلامة التطور

«٢»

في حديث موصول بما سبق من القول في شأن المعلم القرآني الذي أشرقت به الآية الأولى من النساء وهي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [النساء: ١] تجدر الإشارة إلى أن هذا المعلم المبارك الذي ذكَّرَ فيما ذكّر بالأصل الواحد للبشرية ذكراً كان هذا الكائن الإنساني أو أنثى، قد آذن بمرحلة جديدة في حياة البشرية ترد للمرأة كرامتها المسلوبة وتجعلها لا تنحسر عن الإسهام ـ بقدر أهليتها واستعداداتها ـ في تكامل بنية الجماعة، فضلاً عن البناء القويم للأسرة على الصورة التي يرتضيها الإسلام في أحكامه وآدابه.

كما أن المعلم القرآني قد مهّد للقاعدة العريضة التي تقوم عليها الأحكام المتعلقة بالرجل والمرأة والأسرة التي يبنيها الزوجان، وحدّد نقطة البدء التي يكون منها الانطلاق في الحكم على ما هو حق وما هو واجب بالنسبة لكل من الرجل والمرأة، وأن من غير المقبول في شرع الله تبارك وتعالى أن يُهمَلَ واجب أو يُضَيَّعَ حق.

أقول هذا لأن المرحلة التي آذنت بها هداية الكتاب الكريم الموحى بِهِ إلى محمد عليه الصلاة والسلام قد جاءت بعد أن خبَطت البشرية في تيه من جاهلية التصور عن المرأة والتعامل معها، وقد أشرت فيما سبق من القول إلى شيء من الأنماط الجاهلية في ذلك عند العرب قبل مشرق الرسالة المحمدية.

ولما أراد الآخرون معالجة هذا الخطأ الشنيع، اشتطوا في الضفة الأخرى وأساؤوا للمرأة من حيث توهموا أنهم يحسنون، حين أطلقوا لها العنان بلا قيود، ونسوا ـ وجعلوها تنسى ـ أنها إنسان خلقت لإنسان ـ كما يقول شهيد الإسلام

صاحب الظلال رحمه الله ـ ونفس خلقت لنفس وشطر مكمل لشطر، وأنهما ـ هي والرجل ـ ليسا فردين متماثلين، بل هما زوجان متكاملان، ونتج عن ذلك ـ وما يزال ـ طامَّات ومآس تكاد تستعصي على الإصلاح الذي ينشده المنصفون إلا أن يشاء الله.

وخطورة العدوى مأساة فوق مأساة، وظلمة من ظلمات التيه والضياع!! وشريعة الله هي الميزان الذي لا يعول، والطريق التي تسعد الناس ـ أن لو أخذوا بها ـ في دينهم ودنياهم وآخرتهم، لا ينكر ذلك إلا جاهل أو متجاهل، فضلاً عن أن يكون زائغاً يعرف الحق ويصدُّ عنه!!

ولقد يكون من الخير ونحن نصحب ما افتتحت به النساء – من المعلم القرآني الدالِّ على حقيقة الأصل الواحد ـ: أن نجتزئ بما يتسع له المقام من الإشارة إلى حكمين اثنين يتعلقان بالمرأة يتضح فيهما الحفاظ على كل ما فيه وضع إنسانيتها الموضع اللائق في الحكم، ووجوب إيتائها واحداً من حقوقها المالية وعدم التفريط فيه كما كان في الجاهلية الأولى، وذلك في الآيتين الثالثة والرابعة من سورة النساء.

ذلكم قول الله جل ثناؤه في الآية الثالثة من السورة المومى إليها: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلاَّ تَعُولُوا ﴿٣﴾﴾ [النساء: ٣].

فقد روى البخاري ومسلم عن عروة بن الزبير أنه سأل عائشة رضي الله عنها عن قول الله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ﴾ [النساء: ٣] فقالت: يا ابن أختي: هذه اليتيمة تكون في حجر وليها تشركه في ماله، ويعجبه مالها وجمالها، فيريد وليُّها أن يتزوجها بغير أن يقسط في صداقها ـ فيعطيها مثل ما يعطيها غيره ـ فنهوا عن ذلك إلا أن يُقسطوا لهنَّ ويبلغوا بهنَّ أعلى سنَّتهن في الصداق، وأمروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهن، قالتْ عائشة: وإن الناس استفتوا رسول الله ﷺ بعد هذه الآية فأنزل الله: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ﴾ [النساء: ١٢٧].

هكذا أوجبت الكلمة القرآنية ما فيه القضاء على تلك العادة الجاهلية، وإحلال إنسانية اليتيمة محلها اللائق، وعدم التقصير في أداء ما تستحق من المهر.

وجاءت الآية التالية لتقرر حق المرأة في المهر، ووجوب أن تعطى ذلك عن طيب نفس؛ قال تعالى: ﴿وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا ﴿٤﴾﴾ [النساء: ٤].

ولا يحتاج المرء ـ إذا علم صوراً عن حال المرأة في الجاهلية ـ أن يدرك عظمة ما شرعه الإسلام؛ وسببُ النزول في الآية السابقة واضح في بيان المراد، وقد سبقت الإشارة آنفاً إلى بعض موازين الجاهلية التي كانت تحكم معاملة المرأة في الأسرة والمجتمع، حتى أذن الله بالتغيير ووضع الأمور مواضعها، فيما أنزل من القرآن، وما كان من البيان على لسان نبيه عليه الصلاة والسلام.

وفي عود على بدء، وقراءة متأنية متدبرة، نجد أنه مع قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [النساء: ١]، يمتنع التعالي الممقوت الذي كان سائداً في كثير من المجتمعات قبل الإسلام، حين يُحكم للرجل بالرفعة لأنه رجل وكفى، ويحكم على المرأة بضدِّ ذلك، لأنها امرأة وكفى، وتهتز الضوابط، ويُحْرَمُ المجتمع فضيلة الوجهة المتسقة مع الفطرة والتي أرادها الحكيم الخبير سبحانه، وهي وجهه البناء، والتناسق بين الاستعدادات، والتعاون في إطار الأهلية التي كُوِّن عليها كل من الرجل والمرأة.

ولقد ترتب على تمهيد تلك القاعدة العريضة ـ كما نصت عليها الكلمة الهادية في القرآن الكريم ـ عدد من الأمور المهمة التي كان منها:

أن الرجل والمرأة مشمولان بكل ما جاء في كتاب الله من تكريم الإنسان وتفضيله على كثير ممن خلق الله تفضيلاً. من مثل قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾ [الإسراء: ٧٠]؛ فذِكر «بني آدم» هنا جاء للتغليب ـ فقط ـ وهو جار في ذلك على معهودات العرب في الخطاب، وإلا فالشمول واقع للذكور والإناث.

وليس بمنأى عن ذلك: ما يدل عليه قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [التين: ٤] من شمول هذا التكريم لجنس الإنسان بصرف النظر عن كونه ذكراً أو أنثى، إذ اللفظ عام؛ لأن «أل» في كلمة «الإنسان» للجنس؛ فهي تفيد العموم كما هو معلوم.

وقل مثل ذلك في دلالة قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ خَلَقَ الإِنسَانَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴿٤﴾﴾ [الرحمن: ١-٤]. على ما تفضل به الله على الإنسان ـ بوصفه إنساناً ـ بأن علّمه البيان مع خلقه في أحسن تقويم.

هذا بالإضافة إلى كون الرجل والمرأة مشمولين أيضاً بنداء المسؤولية، وهذا من أرقى أنواع التكريم ـ وأن على الإنسان من حيث هو إنسان ـ بصرف النظر عن جنسه ذكورة وأنوثة ـ أن يستجيب لدعوة ربه إيماناً وعملاً صالحاً وتواصياً بالصبر، وإلا عمّه الخسران المبين.

ألا ترى إلى بيان ذلك بهذه الصورة المعجزة في قوله تعالى في سورة العصر: ﴿وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾ [العصر: ١-٣].

فالله تعالى يقسم بالعصر على أن الإنسان لفي خسر، ولفظ الإنسان هنا لفظ عام لا مجال للتفريق فيه بين جنس الذكور وجنس الإناث. وفي توجيه إلى طريق الصلاح وحسن العاقبة للفرد والمجموع استثنى ـ سبحانه ـ الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وتواصوا بالحق، وتواصوا بالصبر. فالذين يؤمنون، ويقرنون الإيمان بالعمل الصالح، ويوصي بعضهم بعضاً بالحق، كما يوصي بعضهم بعضاً بالصبر، يكونون في منجاة من الخسران ويفوزون بالربح العظيم وهو سعادة الدنيا والآخرة.

والملاحظ أن مجيء الأفعال: «آمنوا» «عملوا الصالحات» «تواصوا» روعي فيه المعنى في كلمة الإنسان وهو الجمع لأن اللفظ مفرد ومعناه الجمع إذاً المقصود ـ كما ذكرنا آنفاً ـ جنس الإنسان؛ فاللفظةُ للعموم وهذا كثير في القرآن الكريم وهو جار أيضاً على معهودات العرب في الخطاب، والقرآن قد أنزله الله بلسان عربي مبين.

وفي خاتمة المطاف: ما أجدني بحاجة إلى مزيد من تأكيد أمرٍ أجده على غاية الأهمية؛ وهو ضرورة أن تعرف المرأة المسلمة من هي على الحقيقة، وما هو تعريفها في نظر الإسلام الذي جاء من عند الخالق الحكيم العليم بمن خلق وبما خلق ـ لا عند أدعياء الدفاع العابث عن حقوق المرأة ـ وما هو مكانها في بنية المجتمع ورسالتها فيه بل في الأمة؛ إنها إن فعلت ذلك ـ مضموماً إليه قيام البيت والمجتمع بواجب التربية والإعداد بما يتناسب مع أهليتها واستعدادها ـ أمكن أن تسهم أيَّما إسهام في بناء البيت القوي والمجتمع الصالح المنتجَين وتنمية البواعث الذاتية عند أولادها، تلك البواعث التي تجعل الفرد صادق الولاء لله ولرسوله وللمؤمنين، صادق الانتماء لأمته الماجدة التي جعل الله منها خير أمة أخرجت للناس.

المرأة.. ومسؤولية التكليف

«١»

لمسات القاعدة العريضة التي مهّدها المعلم القرآني في الآية الأولى من سورة النساء المدنية وهي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النساء: ١] خلَصت بنا إلى شمول يتسع له لفظ الإنسان الوارد في عدد من الآيات الكريمات، كما انتهت بنا إلى أن ما ورد في «العصر» من تحديد لمسار الإنسان في ربحه الحقيقي وخسرانه، يطول الرجلَ والمرأةَ جميعاً؛ فلا بد للناس من أجل دفع الخسر والبعد عن طريق الخاسرين: من الإيمان والعمل الصالح والتواصي بالحق والتواصي بالصبر.

وهذا له ما له من الآثار الفكرية والنفسية والعملية في حياة المكلَّف ـ ذكراً كان أو أنثى ـ سواء في سلامة التصوُّر المنطلق ضرباً في ميادين العمل، أو في الاستقامة على شرع الله وعمق التعاون على نصرة الحق والصبر على لأواء هذه النصرة في ظل أخوة الإيمان ومراقبة الله عز وجل.

وعلى هذا: فالحقيقة الماثلة التي يجب أن تصحب البناء الحضاري في ظل الإسلام: أن الخطاب بالإيمان والعمل الصالح والتخلق بأخلاق الصابرين المتقين، لم يكن قصراً على الذكور من بني الإنسان، ولكنه خطاب للجميع لا تثبته ذكورة ولا تزيحه أنوثة!

فالإيمان بأركانه الستة وهي: الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره. والذي لا يخفى على ذي بصيرة أنه من تكريم الله للإنسان.. هذا الإيمان: واجب حتمي على هذا المكلف بوصفه إنساناً تزينه أهلية التكليف؛ فإن آمن وصدّق وعمل بمقتضى هذا الإيمان: نجا، وفاز بجنة النعيم، وإن أعرض عن الحق وصدَّ عنه ضلَّ وخاب وكان عاقبة أمره خُسراً، دونما تفريق بين الذكور والإناث.

أجل لقد كان من تكريم الله للإنسان: أن أودع فيه الفطرة، وجعله أهلاً لحمل عقيدة التوحيد والتكليف بأحكام دين الله؛ وليس من النصفة في شيء أن يخالَف عن سنة الله ويُخصَّ بذلك جنس دون آخر. وما أوفر النصوص الدالة على ذلك دون لَبْسٍ أو اشتباه، ومن ذلك ما يلي:

ها نحن أولاء نقرأ في سورة النساء قول الله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾﴾ [النساء: ١٢٤] فإذا توافر العمل الصالح القائم على الإيمان: فضل الله بدخول الجنة دون أي نقص من الأعمال كائن حقاً لأولئك الذين آمنوا وعملوا الصالحات ذكراً كان الواحد منهم أو أنثى.

ونقرأ في سورة النحل ـ وهي سورة مكية ـ قول الله جل ثناؤه: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل: ٩٧].

وتطالعنا سورة «غافر» بقوله عزّ ذكره: ﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ ﴾ [غافر: ٤٠].

وانظر إلى مسؤولية التكليف التي يعلنها كتاب الله وأنها لا تختص بالذكور دون الإناث، وكيف أنَّ الحيدة عن العمل بما توجبه: تتنافى مع الإيمان وهي معصيةٌ لله وللرسول عليه الصلاة والسلام؛ يقول الله تعالى في سورة الأحزاب: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾ [الأحزاب: ٣٦].

ولعل من الخير أن نذكر أنَّ صنيع المرسلين عليهم الصلاة والسلام في الدعوة كان متسقاً مع الفطرة، فقد دعوا أقوامهم إلى توحيد الله، وعندما بشروهم وأنذروهم لم يفرقوا بين رجال ونساء؛ إذ كلُّ الناس رجالاً ونساءً مدعوون لإسلام الوجه لله تبارك وتعالى موحّدين له، وإفراده بالعبادة، وخلع الأنداد والأوثان والأضداد.

وذلك ما فعله إمامهم وخاتمهم نبيُّنا محمد عليه الصلاة والسلام؛ فقد دعا إلى الله ـ وهو المبعوث إلى الناس كافة ـ على طريقة لا أثارة فيها للتفريق بين الذكور والإناث؛ ولذلك حفظت لنا وقائع السيرة في العهد المكي نصوصاً مفادها: (آمن من الرجال كذا وكذا وآمن من النساء كذا وكذا).

ولا ينتهي إعجابك بصنيعه عليه الصلاة والسلام في العمل بما أمره الله تعالى بقوله: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء: ٢١٤].

فقد بدأ بخديجة من النساء وكانت المثل في الإيمان والاهتمام، ولما نادى بالإيمان علياً والعباس وبني عبد المطلب عموما نادى ابنته فاطمة وعمته صفية وأن ينقذ كل واحد منهم نفسه من النار بالسير على هدي ما جاءهم به عليه الصلاة والسلام من عند ربه؛ بل جاء في رواية لمسلم «أنه بدأ بفاطمة وصفية فقال: يا فاطمة ابنة محمد ابنة عبد المطلب يا بني عبد المطلب لا أملك لكم من الله شيئاً سلوني مالي إن شئتم».

وفي ذلك من تأكيد المسؤولية الفردية وأنها في عنق كل من الذكر والأنثى ما فيه. وقد أوردتُ فيما سبق غيرَ نص مما ورد في ذلك..

وإذا كان هذا قد وقع في المرحلة الأولى، فقد سلك ﷺ النهج نفسه في المرحلة الثانية التي عنوانها: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾﴾ [الحجر: ٩٤] فدعا وبشر المسلماتِ بما كان من بيعة النساء في بيعة العقبة ثم بما كان من البيعة العامة في العهد المدني كما أمره الله عز وجل ذلك من مبايعة المؤمنات.

غير أن فارق ما بين رسولنا المصطفى صلوات الله وسلامه عليه وبين سائر المرسلين: أن كل نبي كان يبعث إلى قومه خاصة وبعث هو للناس كافة؛ فتبليغ الدعوة كما اشتمل الرجالَ والنساءَ من قومه، فهو مشتمل للنساء والرجال في كل قوم، وذلك من مقتضيات التبليغ فيما يجب على الأمة من نشر الدعوة لعموم الخلق في الأرض عملاً بقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ

أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [سبأ: ٢٨] وهو ما بيَّنَهُ عليه الصلاة والسلام بقوله ـ كما جاء في الحديث الصحيح ـ: «.. **وكان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس كافة**»، وقد أشرت إلى ذلك آنفاً.

وما قلناه في شأن أركان الإيمان وأنها عهدة الرجل والمرأة جميعاً، يقال في شأن أركان الإسلام؛ فالشهادتان، وإقامة الصلاة التي هي أعظم ركن من هذه الأركان بعد الشهادتين، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، والحج على المستطيع، كل أولئك مما به يكون المسلم مسلماً والمسلمة مسلمة، الرجل والمرأة فيه سواء.

ومرد الاختلاف في بعض الأحكام إلى طبيعة التكوين عند كل من الرجل والمرأة، وذلك من الحكمة البالغة في خلق الحكيم الخبير سبحانه وتعالى.

ألا وإن في هذا الاستيعاب الذي نلمح إليه على صعيد أركان الإيمان وأركان الإسلام ترشيداً للطريق المسلوكة إلى تحقيق العبودية لله تعالى في هذه الأرض، الأمر الذي خُلق له الجن والإنس؛ وإلا فكيف يستقيم في واحد من مدارك العقل: أن يحمل العقيدة الرجال بأركان الإسلام ولا يخاطب بها النساء؛ في الوقت الذي يشكل فيه الرجل والمرأة كلٌّ حسب استعداده وما أودع الله فيه من أهلية تكاملاً أراده الله تعالى بما كوَّن عليه كلاً من الرجل والمرأة، وجعلهما في خطاب التكليف على حدٍ سواء على ما هو واقع من الاختلاف بينهما في عدد من الأحكام.

وليس من مكرور القول بأن شعور المرأة السويّة، بأنها والرجل مخاطبان برسالة الإسلام، وأن من تكريم الله لها أن جعلها ـ حسب ما أودع فيها من الاستعداد ـ موضع حمل دعوته المباركة، يفترض أن يدفع ـ مع الالتزام الدقيق بأحكام الشريعة ـ إلى كثير من العطاء، وإلى ارتياد كثير من آفاق الإسهام في بناء المجتمع الذي تتأثر الأمة بمقدار إحكام البناء فيه أو عدمه. ولا تسل عما يفعل ذلك في تنمية طاقات الإنسان ومؤهلاته، بدءاً من تربية أطفالها على العقيدة ومكارم الأخلاق والاعتزاز بالانتماء إلى خير أمة أخرجت للناس، ناهيك عن الانضباط الحازم في شأن الموالاة والمعاداة، والحرص على أن تكون حركة

المسلم في الحياة منضبطة بضوابط الكتاب والسنة؛ ثم ما فهمه أئمة الهدى عليهم الرحمة والرضوان، والحمد لله الذي هدانا لدينه القويم وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

المرأة.. ومسؤولية خطاب التكليف

«٢»

من السمات البارزة في هدي الكتاب العزيز: ما تجد من تناسقٍ دقيق بين القاعدة الكلية وما ينبني عليها، وما يتفرع عنها، ومن تكاملٍ بين الفكرة وما يرتبط معها بصلة محورية، وناظم ينتظم كل ما هو منها بسبب.

ولقد رأينا فيما سبق من القول شيئاً من هذا فيما هدى إليه المعلم القرآني الذي أشرقت بِهِ فواتح سورة النساء، من التنبيه على الأصل الواحد للرجل والمرأة وهو النفس الواحدة التي خلقت من تراب، ثم خلق الله منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً، ثم من خلال الحديث عن المرأة كما تحدد موقعها معالم الكتاب في كلماته الهاديات، وكيف أنها في تحمُّل أركان الإيمان وأركان الإسلام مع الرجل سواء بسواء، وهذا لا يعارضه الاختلاف في بعض الأحكام كما أشرت غير مرة.

وماذا علي لو تجاوزت إلى «الإحسان» وهو ـ كما عرَّفه النبي عليه الصلاة والسلام في حديث جبريل الصحيح ـ: «**أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»: فهل يحق لواحد من عباد الله ـ مهما بلغ من شأنه ـ أن يحكم بانكفاء المرأة المؤمنة عن هذه المرتبة من مراتب الكمال في التقوى ـ وهي مرتبة الإحسان ـ إذا هي سلكت الطريق إلى ذلك، صِدْقَ إيمان، واستقامة عمل، وحرصاً على مراقبة الله عز وجل وتقواه في كل صغيرة وكبيرة؟.

إن باب الرحمة مشرع على مصراعيه للسالكين المخلصين ـ ذكوراً أو إناثاً ـ أولئك الذين صفت بحلاوة الإيمان قلوبهم، وأشرقت بمخافة الله واليوم الآخر نفوسهم، وكانت تقوى الله هجيراهم. والله ـ سبحانه ـ لا يضيع عمل عامل من أهل الإيمان ذكراً كان أو أنثى، وهو ـ جل شأنه ـ ولي المتقين. وكم في تاريخنا الماضي والحاضر من النماذج الدّالةِ على ذلك أوضح دلالة!!.

ونعود مرة أخرى إلى تبيان أنه بناء على ما سبق ذكره من حقيقة التناسق الدقيق بين القاعدة الكلية وما ينبني عليها، وبين الفكرة التي تأخذ وجودها من الكتاب والسنة وبين ما يرتبط معها بصلة محورية ـ كما أشرت آنفاً ـ أو ناظم ينتظمها: أن خطاب التكليف في القرآن الكريم والسنة المطهرة، كان موجهاً للرجل والمرأة على السواء؛ ذلك بأن هذا الخطاب امتداد طبيعي يقتضيه العمل بأركان الإسلام. والأهلية القائمة عند كل منهما لذلك: تكشف عن قبس من قبسات الحكمة البالغة في إيداع الإنسان ـ ذكراً كان أو أنثى ـ أهلية هذا التكليف.

وغير خاف أن كل ما جاء في الكتاب والسنة ـ على صعيد الخطاب بأحكام هذا الدين وآدابه وأخلاقه ـ بقوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ فهو على التغليب كما هو معهود العرب في الخطاب، والمراد ـ والله أعلم ـ يا أيها الذين آمنوا ويا أيتها اللواتي آمن؛ بل كل ما ورد في الشريعة من صيغ التكليف أمراً ونهياً، والتي ينتظمها «افعل، لا تفعل» فالخطاب فيه وفيما يشبهه إنما هو للمكلفين من أجل دين الإسلام بصرف النظر عن الذكورة والأنوثة، إلا ما ورد فيه تخصيص الرجل بالحكم دون المرأة أو المرأة دون الرجل.

هكذا تقرر حق كُلٍّ من الإيمان والإسلام والإحسان، وكان شغل الذمم بمقتضياتها، وأن يكون العمل مصحوباً بالإخلاص ومراقبة الله عز وجل.

على أن الحكمة الإلهية اقتضت في بعض الأحيان، لسبب نزول أو ما هو بسبيله، أن لا يعتمد التغليب في النص القرآني أو بيانه من السنة المطهرة، ولكن يذكر الرجال والنساء جميعاً، لأهمية يلمسها المرء من دلالة الكلام وفحواه والغاية المقصودة منه على محور الهداية ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: ٨٢].

من أمثلة ذلك ما تطالعنا به سورةالأحزاب من قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً ﴿٣٥﴾﴾ [الأحزاب: ٣٥].

وقد ورد في سبب النزول ما روى النسائي وغيره عن أم سلمة رضي الله عنها أنها قالت للنبي ﷺ: «يا نبي الله ما لي أسمع الرجال يُذكرون في القرآن، والنساء لا يذكرون؟ فأنزل الله تعالى ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥] وأخرج شيخ المفسرين الطبري في «جامع البيان عن تأويل آي القرآن» عن ابنِ عباس رضي الله عنهما قال: قال النساء للنبي ﷺ: «ما له يذكر المؤمنين ولا يذكر المؤمنات؟ فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾[الأحزاب: ٣٥]».

وانظر إلى ما سُبقت به هذه الآية من خطاب الله تعالى لنساء النبي ﷺ - وهن - رضي الله عنهنّ - بانيات البيت القدوة في دنيا الإسلام حتى يرث الله الأرض ومن عليها.. من خطاب تعالى إياهن ببعض الأحكام وإشعارهن بالتكريم وحسن العاقبة إذا هن استقمن - والأمر كذلك والحمد لله - على المستوى اللائق بأمهات المؤمنين.

من ذلك قوله تبارك وتعالى: ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴿٣٣﴾ وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾[الأحزاب: ٣١-٣٤].

وفي شأن هذا الذي ختمت به هذه الآية قال صاحب «الكشاف»: (ذكّرهن أن بيوتهن مهابط الوحي، وأمرهنَّ أن لا ينسين ما يتلى فيها من الكتاب الجامع بين أمرين: آيات بينات تدل على صدق النبوة، وحكمة وعلوم وشرائع سماوية).

وإذا كان التكليف ـ من حيث هو تكليف ـ من أدل الدلائل على التكريم: فإن هذه الأوامر والنواهي لنساء النبي ﷺ أكثر دلالة على منزلتهن السامية بما رزقن أن تكون كل واحدة منهن من أمهات المؤمنين وأن تكون القدوة في البيت النبوي الكريم القدوة.

والحق أن دلالة أهلية المرأة التي رزقت أن تكون زوجاً لنبينا المصطفى عليه الصلاة السلام، لأن تكون أماً للمؤمنين: كما يدل على تكريمها العظيم، يدل أيضاً على تكريم المرأة المسلمة عموماً بلا ريب ويشعر بما منَّ الله به على هذه الأنثى من الاستعداد الذي إن أحسن توجيهه. كان من ورائه خيرٌ كثيرٌ.

ولقد جاء النص على تلك المكرمة البالغة لنساء النبي ﷺ في قوله تعالى في سورة الأحزاب أيضاً: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَن تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُم مَّعْرُوفًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾﴾ [الأحزاب: ٦].

وفي عود على بدء: يحسن التذكير بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾ [الأحزاب: ٣٦].

فمن الأهمية بمكان: أن تعلم كل مؤمنة، كما يعلم كل المؤمن أن من مقتضيات الإيمان أن لا يكون لهم ـ مؤمنين ومؤمنات ـ الخيرة من أمرهم أمام قضاء الله ورسوله، وأنَّ عدم الالتزام بذلك معصية لله ورسوله وذلك هو الضلال المبين.

نقرأ هذه الآية التي حملت هذا التفصيل بذكر كلٍ من المؤمن والمؤمنة، ونقرأ معها ما يدل على التغليب في كثير من الأحيان، ذلكم قوله تعالى في سورة النور: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾﴾ [النور: ٥١].

فآية سورة الأحزاب تدل دلالة قاطعة على أن المقصود بالمؤمنين في سورة النور: المؤمنون والمؤمنات جميعاً، وأن الاقتصار على ذكر المؤمنين جاء ـ كما غير مرة ـ على التغليب سيراً مع معهود العرب في الخطاب لأن القرآن نزل بلسان عربي مبين.

وتتكامل عناصر هذه القضية الكبرى، فتكشف الكلمة الهاديةُ أن كلاً من الذكر والأنثى مجزيٌّ بعمله ـ دون تفريق ـ إن خيراً فخير، وإن شراً فشر؛ فلا الذكورة بمعطية الرجل حقاً ليس له، ولا الأنوثة بمنقصة المرأة حقاً هو لها، وكلٌّ يثاب أو يعاقب بحسب ما قدّم دونما وكس أو شطط، ولا يظلم ربك أحداً. والتفضيل الوارد في قوله تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ [النساء: ٣٤]. ليس المقصود به ـ كما يقول أبو بكر بن العربي في أحكام القرآن ـ تفضيل كل رجل على امرأة، ولكنه تفضيل جنس على جنس، وسبحان الحكيم الخبير.

ها نحن أولاء نقرأ في سورة آل عمران بعد ذكر مجموعة مباركة من أدعية أولي الألباب: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾﴾ [آل عمران: ١٩٥].

وقد أوردت في مناسبة سابقة ما جاء في «النساء» من قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾﴾ [النساء: ١٢٤] وما جاء في «النحل» من قوله جل شأنه: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل: ٩٧] وما جاء في سورة «غافر» من قوله تباركت أسماؤه: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾﴾ [غافر: ٤٠].

وهل أوضح من ذلك فيما نقول؟ فليكنِ الاهتمام ـ على الساحة ـ العمل على إعداد المرأة في ظل شرعة الإسلام ـ بدءاً من تنمية الإيمان في القلوب ـ إعداداً تربوياً سليماً لا يعوزه ـ مع العلم النافع ـ التكامل في موارد الإعداد النافعة ولو كانت من عند غيرنا، وتصنيف الأولويات وفي طليعتها التربية على ارتباط أحكام الشريعة وأخلاقها وآدابها بالإيمان ومراقبة الله عز وجل، الأمر الذي ينشئ الوازع الداخلي الذي تضمن معه ـ بعون الله ـ حراسة الالتزام والاستمساك بالدين، بعيداً عن النزعات الداخلية أو الصوارف الخارجية التي توهم الدفاع عن حقوق المرأة السلبية وما إلى ذلك.

وبذلك توضع المرأة موضعها الطبيعي في الأسرة والمجتمع ـ والأمة عموماً ـ بوصفها صاحبة رسالة نابعة مما أكرمها الله به من جَعْلِها مسلمة قانتة لله، وهنالك تؤدي دورها المتكامل مع الرجل في بناء الحياة الإسلامية بناءً مشرقاً بنور الإسلام غير مفتقر إلى حسن التعامل مع الواقع إقليمياً كان أم عالمياً ويبقى أن يكون التعامل في كل درجة من درجات القرابة، أو غيرها. منضبطاً بضوابط الشريعة التي نطالبها دائماً بالالتزام بها. وإلا تسببنا في نوع من الظلم للشريعة والمرأة جميعاً، وعاد ذلك على الجميع والأمة بما لا تحمد عقباه.

وبعد: فإن أمتنا ـ وهي تتطلع إلى بناء ذاتي أصيل في حرص على معاصرة واعية ومواكبة لمسيرة العلم ـ أحوج ما تكون إلى نظرة واعية عميقة إلى البعد الذي أعطاه الإسلام للمرأة، دونما تأثر سابق بكلمة زائفة أو قولة منحرفة، وذلك أن المجتمع المسلم ـ والحال كما نعلم ـ يحتاجُ إلى توظيف كل الطاقات وتجنيد كل القوى بمنهجية لا تنأى عن شريعة الله والاعتزاز بهذا الدين.

وبالنظرة الإيمانية الواعية المجردة، تُضمن ـ بإذن الله ـ للمسيرة المنشودة روافدُ الخير، دون أنْ تكون الأمنية ـ لا سمح الله ـ ترسماً لخطى المرأة في الحضارة الغربية، حيث تدحرجت المخلوقة المسكينة إلى ما يُشمأزُّ منه من العاقلات صباح مساء، وذلك من العدد القليل غير الضائع والمغلوب على أمره، ضمن الكيان العام في تلك المجتمعات الغربية أو ما يشبهها عندنا ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وإن خفتم ألاَّ تقسطوا في اليتامى

«١»

أشرت غير مرة ـ فيما سبق ـ إلى القاعدة الكبرى التي مَهَدها واحد من المعالم القرآنية في فاتحة سورة النساء وما انبنى عليها من أمور عظام؛ كان منها: أن الرجل والمرأة مشمولان بتكريم الله للإنسان، وخلقه في أحسن تقويم، وتعليمه البيان... ناهيك عما فطر عليه من التوحيد، وما أودع فيه من الأهلية والاستعداد.

كما أنهما مشمولان بالدعوة إلى الله مؤهلان لخطاب التكليف بشرائعه، إلا ما خُصّ به الرجل أو ما خُصَّت به المرأة من أحكام.

أضف إلى ذلك أن كلاً من الذكر والأنثى يلقى يوم القيامة ما قدم في الدنيا وكسبت يداه، فيجني ثمرة عمله ومقدار حمله مسؤوليته: مثوبةً أو عقوبةً، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، لا فرق في ذلك بين ذكر وأنثى من المكلفين ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ﴾ [آل عمران: ١٩٥].

ولعل من الأهمية بمكان، أن نتنبَّه إلى أن تلك القاعدة النورانية وما انبنى عليها من تلكم الأمور العظام والقضايا الكبار، قد أخذت طريقها إلى التأثير العملي على ساحة التغيير بالإسلام إلى ما هو الحق المتسق مع الفطرة في شأن المرأة؛ من القضاء على رواسب الجاهلية في التعامل معها؛ تلك الرواسب التي كانت تطبيقاً ظالما لتصورات ظالمة.

وإذا كان الأمر كذلك ـ وثمرات التغيير في المجتمع كثيرة على صعيد النقلة من عسف الجاهلية وظلمها للمرأة إلى تكرمة الإسلام وعدله ـ فهذا أوان العودة إلى شيء من التفصيل في عطاء واحد من معالم القرآن الكريم هدى إلى القضاء

على بعض من عادات الجاهلية، كانت من مظاهر ظلم شقيقة الرجل، والحيف على بعض ما أعطاها الله من حقوق، زد على ذلك أنها قد تكون يتيمة مع حقيقة أن الله تعالى خلق الناس ذكورهم وإناثهم من نفس واحدة، وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً.

ولقد كان من بلاغة القرآن الكريم أنه قرر هذه الحقيقة واتخذ منها باعثاً على التقوى ـ كما سلف بيانه من قبل ـ حيث قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ۝١﴾ [النساء: ١].

فمن التقوى: أن يكون التعامل مع الأنثى مراعىً فيه هذه الحقيقة التي افتتحت السورة المباركة ـ سورة النساء ـ بتقريرها.

من أجل ذلك كان مما يتنافى مع تقوى الله تعالى أن يُقِرَّ المجتمع عادة من عادات الجاهلية التي هي ظلم كلها. وهذا ما نجد بيانه في الآية الثالثة من السورة المومى إليها ذلكم قول الله جل ثناؤه: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلاَّ تَعُولُوا ۝٣﴾ [النساء: ٣].

ولنترك للسيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها تحكي لنا قصة هذه القضية الاجتماعية من حيث جاهلية التصرف وتوجيه الكلمة القرآنية إلى نبذه مع تقديم البديل لذلك، وبيان سبب النزول.

وقد كفانا مؤونة هذا الحديث الذي أوجزنا القول فيه من قبل: واحد من جلة التابعين وعلمائهم، وهو عروة بن الزبير ابن أخت السيدة عائشة رضي الله عنها؛ فقد كان كلفاً بأخذ العلم عنها ـ وهي الفقيهة العالمة المدققة ـ والرجوع إليها سائلاً مستفسراً عما يعرض له من معضلات، وقد أفادت الأمة بذلك كثيراً من فقه أم المؤمنين وعلمها؛ أخرج البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي ـ واللفظ للبخاري ـ عن عروة عن عائشة **أن رجلاً كانت له يتيمة فنكحها وكان لها**

عذق، وكان يمسكها عليه، ولم يكن لها من نفسه شيء فنزلت فيه: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا﴾ [النساء: ٣]، أحسبه قال: كانت شريكته في ذلك العذق وفي ماله، ثم قال الإمام البخاري: عن ابن شهاب قال: أخبرني عروة بن الزبير أنه سأل عائشة عن قول الله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ﴾ [النساء: ٣] قالت: يا بن أختي هذه اليتيمة تكون في حجر وليها تشركه في ماله ويعجبه مالها وجمالها، فيريد وليها أن يتزوجها بغير أن يقسط إليهن، ويبلغوا بهن أعلى سنتهن في الصداق، وأمروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهن.

قال عروة: قالت عائشة: وإن الناس استفتوا رسول الله بعد هذه الآية، فأنزل الله ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللاَّتِي لا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَن تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾﴾ [النساء: ١٢٧] فاليتيمة إذا كانت ذات مال وجمال رغبوا في الزواج منها ولم يلحقوها بسنتها في المال الصداق، وإذا كانت مرغوباً عنها في قلة المال والجمال تركوها والتمسوا غيرها.

يقول الله لهم: إذا كانت في حجر أحدكم يتيمة وأراد أن يتزوج بها وخاف أن ينتقص من حقها فلا يعطيها مهر مثلها، فليعدل إلى سواها، فالنساء كثير ولم يضيق الله عليه.

ونجد من أم المؤمنين الفهم الواضح لطبيعة القضية ولما يجب: فقد أوضحت رضي الله عنها أنه كما أنهم يتركونها حين يرغبون عنها: فليس لهم أن يتزوجوها إذا رغبوا فيها إلا أن يكونوا عادلين معها، ويعطوها حقها الأوفى من الصداق.

فغير جائز أن تتحكم الأهواء، وتضيع حقوق هذه اليتيمة الأنثى: فالحق حق كائناً من كان صاحبه. والعدول عن ذلك مخالفة عن شرعة الله وظلم.

هكذا كان المنهج القرآني جدّ واضح في تنقية المجتمع من أوضار الجاهلية التي كان منها استغلال ضعف الأنثى ـ وهي يتيمة في حجر وليها ـ يستضعفها ذلك المجتمع الذي لا يبالي فطرتها ولا كونها هي والرجل مخلوقين من نفس

واحدة، فيظلمها الظلم الذي تكرر الإلماح إليه فيما أسلفنا من القول ـ بتعدد الصور الجاهلية والموروثات ويتولى الله تبارك وتعالى ـ وهو الرحمن الرحيم ـ إنصافها ورفع الجور عنها بقرآن يتلى ويفسَّر، ويتعبّد به حتى يرث الله الأرض ومن عليها، وتلك هي ـ والحمد لله ـ شرعة الإسلام في الخروج بالأسرة والمجتمع من ظلام العسف والفوضى، إلى نور العدالة والانضباط بضوابط الفطرة والحق.

ولست هنا في موقع المدافع ـ كما يحلو لبعضهم أن يفعل ـ فالإسلام ليس متَّهماً في قفص، ولكنه شرعة الحكيم الخبير، ولا استقرار ولا نصفة ينحسر معها الظلم إلا به، والمتهم غيره لا هو!!

ولكنني أدعو كل فتاة ـ بل كل امرأة مسلمة ـ إلى أن تربط وجودها الذاتي وكيانها الإنساني بهذا الدين الذي أنصفها من ظلم الجاهلية، ورد الناس إلى الطريق السويِّ في شأنها، فتلتزم بأحكامه عن رضًى وطمأنينة ـ لأن ذلك مقتضى الإيمان وهي مؤمنة والحمد لله ـ كيما تسهم عن قناعة في بناء أسرة إسلامية بالمعنى العلمي الدقيق، وفي تنمية المجتمع الإسلامي وتحقيق تطلعاته إلى ما هو أفضل دائماً.

وما من ريب في أنها تسهم بذلك في تنمية القدرة الذاتية للأمة وتحقيق وجودها الذاتي بالإسلام.. كل أولئك في حدود ما أعطى الله المرأة من كفاءة وأهلية، مدركة - وقد أكرمها الله بحمل رسالة الإسلام - أنها تقف بذلك على خط من خطوط العبادة والجهاد.

ولنا لقاء ـ إن شاء الله ـ من خلال كلمات قادمات نصحب فيه الصورة الأخرى لأبعاد المعلم الذي أسعدنا اصطحابُهُ بهذه الكلمات.

وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى

«٢»

كانت لنا في صفحات قريبات وقفة مع صورة جاهلية أنكرها القرآن من صور ثلاث انتهت إليها الأبعاد الحقيقيّةُ للمعلم القرآني الذي رأيناه في الآية الثالثة من سورة النساء والآية السابعة والعشرين بعد المئة منها.

وكانت هذه الصورة، هي ما كان يجنح إليه بعض الناس من رغبة في الزواج باليتيمة التي تكون في حجره إذا كانت ذات مال وجمال، والرغبة عن الزواج بها إذا لم تكن كذلك.

والذي أوجبه القرآن على هذا الإنسان ـ كما أوضحت أم المؤمنين عائشة ـ أن يؤديَ حق هذه الأنثى حين يرغب في الزواج بها، لا أن يكون وجودها يتيمة في حجره. مدعاة للظلم والجور، فكما يرغب عنها عندما لا تعجبه، فإنَّ عليه أن يقسط في معاملتها عندما تعجبه ويعزم على الزواج منها. قالت أم المؤمنين رضي الله عنها: «وقول الله في الأخرى: ﴿وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ [النساء: ١٢٧] رغبة أحدكم عن يتيمته إذا كانت قليلة المال والجمال، **فنهوا أن ينكحوا من رغبوا في مالها وجمالها من النساء إلا بالقسط، من أجل رغبتهم عنهن إذا كن قليلات المال والجمال**».

ـ أما الصورة الثانية ـ كما رأينا في حديث أم المؤمنين في رواية عروة ـ فهي صورة تبدو جارحة أكثر وأكثر؛ إنها صورة حبس هذه الفتاة عن الزواج عندما لا يريد من هي في حجره أن يتزوج بها، لأنها لا ترضيه بجمالها، ولكنها ذات مال يطمع في دوام الإفادة منه، فيحبسها عن الزواج وفق هواه، كي تدوم له الفائدة من هذا المال، ولو كان ذلك على حساب هذه المسكينة.

تقول عائشة رضي الله عنها كما جاء في الحديث الصحيح ـ فيما سبق ـ: **«تكون في حجر الرجل، قد شركته في ماله، فيرغب عنها أن يتزوجها، ويكره أن يزوجها غيره فيدخل عليه في ماله، فيحبسها، فنهاهم الله عن ذلك».**

ـ وصورة ثالثة لا تقل مظلمة عن هذه؛ هي صورة من يتزوجها لمالها دون أن يكون لها في نفسه شيء من الرغبة أو الود، فهي جسرٌ لمالِها لا أكثر ولا أقل؛ **فقد كان من حديث عائشة رضي الله عنها ـ كما رأينا من قبل ـ أن رجلاً كانت له يتيمة فتزوج بها، وكان له عذق نخل ـ أي نخلة بحملها ـ فكانت شريكته فيه وفي ماله، فكان يمسكها عليه، ولم يكن لها من نفسه شيء، فنزلت: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ﴾** [النساء: ٣].

هذه الصور الثلاث من تصرفات المجتمع الجاهلي، في ظلم الأنثى حقها، أو حبسها عن الزواج طمعاً في مالها، أو الزواج بها عن غير رضى ليكون الزواج طريقاً لبقاء مالها: صور أنكرتها الشريعة كما رأينا في هذا المعلم القرآني: فكل ذلك حرام منهي عنه، والبديل الذي طرحه هذا الدين للمجتمع: يبدأ من أن المرأة والرجل خُلقا من نفس واحدة، وأنها مخلوق له ذاتيته ومشاعره وأحاسيسه، بل وأهليته لخطاب التكليف كما للرجل، وليس متاعاً هَمَلاً يستخدم وسيلة لتحقيق أغراض الرجل، وإنما هناك حقوق يجب أن تؤدى.

ولا ننسى أن الخطاب في قوله تعالى:﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ﴾ [النساء: ٣] هو للمؤمنين، وأن الذين استفتوا رسول الله ﷺ كما دل عليه قوله تعالى: هم المؤمنون، فوُجهوا إلى التخلي عن ذلك الظلم الجاهلي.

وإذن فمقتضى الإيمان التزام أحكام الله تعالى: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ﴾ [النساء: ١٢٧] وهؤلاء الذين يستفتون الرسول ﷺ هم المؤمنون فُوجهوا إلى التخلّي عن ذلك الظلم الجاهلي.

وإذن فمقتضى الإيمان التزام أحكام الله تعالى. وبرهان صدق المؤمن: أن يكون على الجادة ائتماراً بما أمر الله وانتهاءً عما نهى الله.

وإذا وقفت المرأة مع الرجل عند هذه الحقيقة، أمكن تجنب المزالق، وقام التعاون الجادُّ على صعيد البناء في ظل رسالة هي رسالة الحياة والبناء، الرسالة التي عرفت لكل من الرجل والمرأة حقه وأعطته أبعاده.

وإذا كنا اليوم ـ أكثر من أي وقت مضى ـ بأمس الحاجة إلى الإنسانِ القادر على البناء والعطاء، فما أجدرنا بعودة واعية لمنبع الأصالة، عودة ندرك معها أيَّ رسالة أدتها المرأة المسلمة في الماضي في ظل مبادئ الإسلام، فأسهمت في بناء الرجال على صعيد الجهاد والعلم وكل ساحة من ساحات حضارة الإسلام.

وما على مسلمة اليوم إلا أن تربط أسبابها بأسباب أمهاتها وأخواتها الصادقات المجاهدات العالمات عبر التاريخ، الأمر الذي يحفظ الكيان وينجي من إضاعة الوقت بلا طائل، ومن إجهاد النفس بما لا يثمر إلا الإرهاق والضياع. وشتان بين إنسانة تسيرها أمانة العمل المجدي في ظل رسالة الإسلام وبين إنسانة عطَّلت إمكاناتها على مائدة الوهم الذي يدغدغه الجهلة أو أهل الأهواء ومطالب لون من ألوان الحياة التي لا تسمن ولا تغني من جوع.

حقوق المرأة.. والبناء
الأسرة.. والمجتمع

من منهج القرآن الكريم في الهداية والتكليف: أنه كثيراً ما يخرج من ساحة الكلام على واقعةٍ معينة وبيان حكمها، إلى ساحة أوسع، يقرر فيها الحكم العام الذي يشمل الواقعة وسببَ النزول وغيرها، وهذا معلم قرآني مبارك، جرت الإشارة إليه فيما سبق، يشهد لهذه الحقيقة: ما تطالعنا به الآية الرابعة من سورة النساء حيث يقول الله جل شأنه خطاباً للمسلمين: ﴿وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا ﴿٤﴾﴾ [النساء: ٤].

وقد سُبقت هذه الآية بما كنا بسبيله من قبل وهو قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ﴾[النساء: ٣].

فبعد أن كشف الله عما يحمل صنيعُ الجاهليين من العسف والجور بعدوانهم على حقوق الأنثى المعنوية والمادية التي كان منها التهاون في أمر المهر استضعافاً لليتيمة تتربى في حجر وليها الرجل، جاءت الآية الكريمة هنا، لتقرر الحكم العام في الموضوع.

فالحفاظ على الحقوق، ووجوب أداء المهر، وحسن التعامل مع الأنثى؛ كل أولئك ليس قصراً على حالة واحدة هي حال اليتيمة في الصور الثلاث التي سبقت الإشارة إليها في حديث عائشة رضي الله عنها، ولكن المهر حق للمرأة يتيمة كانت أو غير يتيمة: لأنه يجب لها بوصفها زوجة.

وهكذا جاء الأمر الذي يقتضي الوجوب ﴿وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً﴾[النساء: ٤] أي آتوهن مهورهن عطاءً من الله واجبا عليكم. فالصدقات: المهور.

ومن إعجاز القرآن: هذا التعبير بـ «النحلة» فعن ابن عباس رضي الله عنهما ـ كما روى ابن جرير ـ **النحلة: المهر**. وروى ابن إسحاق عن عائشة رضي الله عنها: «**نحلةً: فريضة**» وقال ابن زيد: «**النحلة في كلام العرب: الواجب، يقول: لا تنكحها إلا بشيء واجب لها، وليس ينبغي لأحد بعد النبي ﷺ أن ينكح امرأة إلا بصداق واجب**» ومضمون كلامهم أن الرجل يجب عليه دفع الصداق إلى المرأة حتماً، وأن يكون طيب النفس بذلك؛ كما يمنح المنيحة ويعطي النحلة طيباً.

هكذا يجب أن يعطي المرأة صداقها بانشراح صدر؛ فإن طابت هي له به بعد تسميته أو عن شيء منه: فليأكله ـ حلالاً طيباً لأنه أصبح مباحاً. ولهذا قال تعالى: ﴿**فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا**﴾ [النساء: ٤].

وروى ابن أبي حاتم عن أبي صالح: **كان الرجل إذا زوج ابنته أخذ صداقها دونها فنهاهم الله عن ذلك ونزل** ﴿**وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً**﴾ [النساء: ٤].

فليس حقاً على الزوج أن يعطي المهر فحسب: بل على الأب أيضاً أن يعطي المهر صاحبته ولا يحوزه إليه.

هكذا تعلن الكلمة القرآنية حق المرأة في المهر، ووجوب هذا المهر على الزوج؛ فإن طابت نفس المرأة، فتنازلت عن المهر أو عن شيء منه عن رضىً كامل وطمأنينة، دون أي نوع من أنواع الإكراه أو ما هو بحكمه ـ وانظر إلى بلاغة التعبير بـ﴿**فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا**﴾ [النساء: ٤] ـ فمباح للرجل أن يأكله هنيئاً مريئاً، وإلا كان ذلك حراماً يدخل صاحبه النار، فهو لون من ألوان السحت. وقد نوَّه النبي ﷺ **بأن كل لحم نبت من سحت فالنار أولى به**.

لذا سمى الله تعالى الأخذ من هذا النوع بهتاناً وإثماً مبيناً فقال سبحانه: ﴿**وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا** ﴿٢٠﴾ **وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا** ﴿٢١﴾﴾ [النساء: ٢٠ـ٢١].

وهكذا كان هذا التحديد القرآني لأبعاد هذه القضية التي تعتبر عنواناً من عناوين النقلة الحضارية من الجاهلية إلى الإسلام، حفظاً لحقوق النساء، وصيانة لإنسانية المرأة عن الابتذال.

أرأيت إلى هذا النهي الجازم ﴿فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا﴾ ثم إلى الوعيد الشديد على أخذه ﴿أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾.

ثم جاء التذكير بأن العدوان بأخذ المهر من غير طيب نفس من المرأة: يتنافى مع العلاقة بين الزوجين بكل صورها ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾﴾ [النساء: ٢١].

وقد وعت المرأة المسلمة يومذاك حكم الله بما لها وما عليها على خير وجه وأكمله، الأمر الذي أقدرها على المشاركة الفعالة في رحلة الإسلام الحضارية عبر القرون، وعلى المواجهة بحقها المشروع دونما خوف أو توقع مظلمة.

فقد جاء في حديث رواه الإمام أحمد والترمذي وغيرهما عن أبي العجفاء السلمي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «**ألا لا تغالوا في صداق النساء؛ فإنها لو كانت مكرمة في الدنيا أو تقوى عند الله، كان أولاكم بها النبي ﷺ؛ ما أصدق رسول الله ﷺ امرأة من نسائه ولا أُصدقت امرأة من بناته أكثر من اثنتي عشرة أوقية، وإن كان الرجل ليبتلى بِصَدُقة امرأة حتى يكون لها عداوة في نفسه..**» الحديث وقال الترمذي: حسن صحيح.

وروى الحافظ أبو يعلى عن الشعبي عن مسروق قال: ركب عمر بن الخطاب رضي الله عنه منبر رسول الله ﷺ ثم قال: **أيها الناس ما إكثاركم في صداق النساء! وقد كان رسول الله ﷺ وأصحابه والصَّدُقات فيما بينهم أربعمائة درهم فما دون ذلك. ولو كان الإكثار في ذلك تقوى عند الله أو كرامة: لم تسبقوه إليها؛ فلأعرفن ما زاد رجل في صداق امرأة على أربعمائة درهم. قال: ثم نزل فاعترضته امرأة من قريش فقالت: يا أمير المؤمنين نهيتَ الناس أن يزيدوا في**

مهر النساء على أربعمائة درهم؟ قال: نعم، فقالت: أما سمعت ما أنزل الله في القرآن؟ قال: وأي ذلك؟ فقالت: أما سمعت الله يقول: ﴿وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا﴾ [النساء: ٢٠] **قال: اللهم غفراً، كل الناس أفقه من عمر. ثم رجع فركب المنبر فقال: أيها الناس إني كنت نهيتكم أن تزيدوا النساء في صدقاتهن على أربعمائة درهم، فمن شاء أن يعطي من ماله ما أحب.** قال أبو يعلى: وأظنه قال: **فمن طابت نفسه فليفعل.** قال الحافظ ابن كثير: إسناده جيد قوي. وفي رواية: «امرأة أصابت ورجل أخطأ».

مرة أخرى: لقد خرج بنا المعلم القرآني من الواقعة الخاصة إلى بيان الحكم العام في المهور وناحيتي وجوب المهر، والوعيد على أخذه دون رضى، وأرتنا الرواية الآنفة الذكر اتساع صدر أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه لسماع حكم الله على هذا المحور من الهداية من امرأة من قريش في صورة من صور الكلمة للرجل والمرأة جميعاً في نطاق الذود عن الحق في الإسلام.

وتلك أمور يجب أن تشدنا أكثر وأكثر إلى مزيدٍ من اليقين بصلاحية شرعة الإسلام لأن تقول كلمتها فيما نريد من تغيير إلى ما هو أفضل ـ في إطار عملية التحويل ـ ومن تحولات تجمع بين الأصالة والتحديث على طريق البناء المنضبط بضوابط ديننا الحنيف.

على أني أود التنبيه على أن صنيع عمر رضي الله عنه: لا يقتضي إقرار المغالاة في المهور؛ فهو قد نهى عن ذلك صراحة، وأقام الدليل على ما أراد، ولكنه رجع عن تحديدها!!.

وها إن الأمة تجني من المغالاة في المهور وتعقيد أمور الزواج بتحكيم عادات وأعراف غير مرضية: الصاب والعلقم، الأمر الذي له ماله من العقابيل في بناء الأسرة وسلامة المجتمع؛ فمن الواضح أن من ثمرات المغالاة والتعقيد أن يستهان بالفتاة فتصبح إنسانة ـ أشبه بالسلعة ـ توزن بالمال أو بما هو بسبيله، الأمر الذي يربط الكفاءة في الزواج بالمادة فحسب، دون الدين والخلق والاعتبارات المطلوبة في شرعة الحكيم الخبير.

ناهيك عن إعراض الشباب ـ بسبب ذلك وغيره ـ عن الزواج، وفي هذا ما فيه من الشرور التي تصيب الفرد والجماعة،خصوصاً وان الطاقة البشرية الخيِّرة القوية: هي العنصر الأول على طريق الأمة فيما تهدف إليه من قوة ذاتية وازدهار؛ فالمؤمن القوي ـ كما أخبر الصادق المصدوق ـ خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف؛ وفي كلٍ خير.

إرث المرأة.. بين الجاهلية والإسلام والدلالة الحضارية

من روائع هذا الإسلام العظيم، أنه ـ مع الذي قرر من أهلية المرأة لتحمل العقيدة، ولخطاب التكليف، وإعطائها حرية الرأي في الذود عن الحق وبما كرمها من جَعْلِها موضع المسؤولية عما قدمت من خير أو سواه في حدود استعداداتها وتكوينها وطاقتها ـ: جعل لها ذمة مالية خاصة وأعطاها حق التصرف، الأمر الذي لم تعرفه الأمم الأخرى إلى وقت قريب، وهذا من شرعة الله: متصل بالنظرة الحقيقية إلى إنسانية المرأة كما ينبغي.

وعلى هذه الساحة المباركة، كان حقها في الإرث: ففي الوقت الذي كان الجاهليون يحرمون فيه النساء والأطفال من الإرث، ولا يورثون إلا الرجل القادر على الدفاع عن القبيلة وحماية الذمار. وفي الوقت الذي ما نزال نرى بعض الدول لا تورث إلا الابن الأكبر: نجد الإسلام قد شرع حق الإرث للمرأة قبل أربعة عشر قرناً أو تزيد، يوم كان الوحي يتنزل على محمد عليه الصلاة والسلام. وذلك ما يطالعنا به واحد من المعالم القرآنية التي تنطق بها سورة النساء، ذلكم قوله تعالى في الآية السابعة منها: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ۝٧﴾ [النساء: ٧] وآيات الإرث بعد ذلك خير شاهد على أن هذا القرآن من عند الله وليس من كلام البشر.

فالورثة جميعاً فيما ترك الوالدان والأقربون سواء في حكم الله تعالى في أصل الوراثة، وإن تفاوتوا ـ بحسب ما فرض الله لكل منهم ـ بما يدلي به إلى الميت من قرابة نسبيّةٍ أو زوجية أو غير ذلك من أسباب الإرث.

وهكذا كان توريث المرأة، من الحدود الفاصلة في الحقوق المالية للمرأة بين الجاهلية والإسلام. وقد روى ابن مردويه عن جابر قال: **أتت أم كحة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: يارسول الله إن لي ابنتين قد مات أبوهما وليس لهما شيء فأنزل الله تعالى:** ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ﴾ [النساء: ٧].

ويبدو أن أكثر من واقعة في المدينة بعد الهجرة حاول بعض الناس فيها تطبيق بعض ما كانت عليه الجاهلية قبل نزول آيات الإرث المباركة التي ردّت الأمور إلى نصابها.

من ذلك ما روى أبو داود والترمذي عن جابر بن عبد الله قال: **خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى جئنا امرأة من الأنصار في الأسواق، فجاءت المرأة بابنتين لها، فقالت: يا رسول الله، هاتان ابنتا ثابت بن قيس قُتل معك يوم أحد، وقد استفاء عمُّهما مالهما وميراثهما كلَّه فلم يدع لهما مالاً إلا أخذه، فما ترى يا رسول الله..؟ فوالله لا ينكحان أبداً إلا ولهما مال، قال: فقال رسول الله ﷺ: يقضي الله في ذلك قال: فنزلت:** ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ﴾ [النساء: ١١] **فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ادعو لي المرأة وصاحبها فقال لعمهما: أعطهما الثلثين وأعط أمهما الثمن وما بقي فلك.**

وفي رواية أن الواقعة كانت مع زوج سعد بن الربيع وابنتيه وهذا ما رجحه أبو داود والخطابي؛ لأن سعداً هو الذي استشهد يوم أحد.

وهكذا تقرر حق الإرث للأنثى في القرآن الكريم وعمل بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، على تفصيل يعرف في مصادره، والدلالة الحضارية في ذلك لا تخفى.

وقد يحلو لبعضٍ أن يتساءل عن قضية ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ﴾ والواقع أن نظرة واعية إلى رسالة كل من المرأة والرجل وأبعاد مسؤولية كل منهما المالية وغيرها في المجتمع، تجيب عن هذا السؤال.

على أن التنصيف ليس مضطرداً، فأحياناً إذا انفردت البنت عن الأخ يكون لها النصف، ويكون للبنتين فما فوق الثلثان، وكذلك بنتا الابن والأختان من صنف معين.

أقول هذا تاركاً التفصيل لموطنه وزمانه حسبما يتسع له المقام.

وأعود مرة أخرى: **لأدعو كل مسلمة تؤمن بالله واليوم الآخر وأَنَّ القرآن كتابها، وأن محمداً ﷺ نبيها ـ أن تزيد من القراءة الواعية المتبصرة للحقائق الإسلامية في موقع المرأة من البناء الإسلامي وما وضع من أسس أقام عليها المجتمع. إنها** إن فعلت ذلك، **كانت أقدر على كشف ما يطرح ـ ظلماً وعدواناً ـ على طريقها من زيف، وكانت إيجابية فيما ينبغي أن تعمله ـ ونحن في سباق مع الزمن ـ لبيتها ومجتمعها وأمتها، وتفوز بمرضاة الله ثم بتقدير الأجيال.**

ولسوف تكون في ذلك ـ إن شاء الله ـ على الطريق التي عبَّدتها السابقات العظيمات من أمثال عائشة ونسيبة وفاطمة بنت عبد الملك زوج عمر بن عبد العزيز. وإذا كان الشيء بالشيء يذكر: فما أحسب أنَّ من مكرور القول ـ مع ما أشرت إليه آنفاً ـ أن أنبِّه على أنه لو لم تكن إلا آيات الإرث في سورة النساء لكان ذلك دليلاً ناطقاً بأوضح بيان على أنَّ الكتاب العزيز كلام الله وليس من كلام البشر في شيء، وأن الرسول عليه الصلاة والسلام صادق أمين في دعوى الرسالة: ومما أحمد الله عليه: أني كثيراً ما كنت أنبِّه طلابي في الجامعة على ذلك منذ سنوات طوال. وله سبحانه الحمد والمنة كما يحب ويرضى، وهو ذو الفضل العظيم.

المرأة في الأعراف الجاهلية.. الهدم والبناء

دروس الماضي للحاضر

كلما عاود المؤمن النظرات المتدبرة في كتاب الله وحديث رسول الله صلوات الله وسلامة عليه، ازداد قلبه طمأنينة بكلام ربه وسنة نبيه، وتفتحت أمام عقله آفاق من إنسانية الإنسان وتجلَّت له حكمة البارئ المصوِّر، فيما خلق الذكر والأنثى، وفيما شرع سبحانه وتعالى لكل منهما من أحكام على اختلاف المراحل الزمنية في العمر وبعد الموت.

وعلى هدي من هذه النظرات المتدبرة قدر المستطاع، نسعد برحلة عجلى مع واحد من المعالم القرآنية هو قوله تبارك وتعالى في سورة النساء: ﴿يا أَيُّهَا الَّذين آمَنُوا لا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلاَّ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾﴾ [النساء: ١٩].

النساء شقائق الرجل، فالكل مخلوقون من نفس واحدة، ومن التناقض الصارخ أن تَحكُمَ التعاملَ بين الرجل والمرأة، عاداتٌ وأعراف جاهلية ظالمة تُغفِلُ إنسانية المرأة، وحقيقة ما هي عليه كما أراد الله تبارك وتعالى: وذلك ما كان في الجاهلية من صورٍ كلٌّ واحدة منها أشنع من أختها.

وفي هذا المعلم القرآني خطاب للمؤمنين يحرم إرث النساء كَرهاً في أنفسهن أو في أموالهن بعد وفاة الزوج. كما يحرم أن تضارَّ المرأة وتساءَ عشرتها، بغية أن يصل رجل من وراء ذلك إلى حيازة مال لها يريده منها، حيث تلجأ ـ وهي الضعيفة أمامه ـ إلى فداء نفسها منه بهذا المال تخلصاً مما يلحقه بها ذلك الظالم من الأذى والعنت.

وذلك ما كان يفعله الجاهليون دون أدنى استنكار من المجتمع أو اعتراض من أحد: فجاءت هذه الآية الكريمة لتقضي على ذاك الموروث الجاهلي وتحرِّمه على المؤمنين.

ويبدو ـ كما أشرت آنفاً ـ أن الإرث كَرهاً قد يكون للمرأةِ نفسِها وقد يكون لمالِها. روى البخاري وأبو داود والنسائي وغيرهم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «**كانوا إذا مات الرجل كان أولياؤه أحقَّ بامرأته إن شاء بعضهم تزوجها، وإن شاؤوا زوجوها، فهم أحق بها من أهلها، فنزلت هذه الآية**».

وفي رواية لأبي داود عن ابن عباس أيضاً «**أن الرجل كان يرث امرأة ذات قرابة فيعضُلها ـ يحبسها ـ حتى تموتَ أو تردَّ إليه صداقها فأحكم الله تعالى عن ذلك، أي نهى عن ذلك**».

ومن العجب المحزن حقاً ما روي عن ابن عباس أيضاً: «**كانت المرأة في الجاهلية إذا توفي عنها زوجها، فجاء رجل فألقى عليها ثوبها كان احقَّ بها**».

أما عن حبسها ليرثوا مالها: فقد روى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ـ كما نرى عند الطبري ـ في قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا**﴾ [النساء: ١٩] قال: «**كان الرجل إذا مات وترك امرأة ألقى عليها حميمُه ثوبَه فمنعها من الناس؛ فإن كانت جميلة تزوجها، وإن كانت دميمة حبسها حتى تموت فيرثها**».

وجاء القرآن فارتفع بأهله من هذه الأمة إلى المستوى اللائق بالفطرة وبإنسانية الإنسان، وهو البعيد عن الظلم ونهج الظالمين، فحسم المعلم القرآني بالنهي الجازم ـ والنهي للتحريم ـ عن كل عمل يراد من ورائه إرث المرأة نفسها وكأنها المتاع أو إرث مالها بالإكراه، وذلك ما يتفق تمام الاتفاق مع المنهج القرآني في البعد الذي أخذته المرأة في بنية الفكر الإسلامي والواقع التطبيقي في المجتمع المسلم. وقد مر بنا من قبل أن الله حرّم على الزوج أن يأخذ شيئاً من مهر زوجه الذي أصدقها إياه إلا عن طيب نفس منها، فإن لم تطب نفسها بشيء: فحرام عليه أن يفعل.

والحق أن هذا العدوان الجاهلي الصارخ على إنسانية المرأة ووجودها يفسر لنا من بعض الوجوه ما وصل إليه المجتمع الجاهلي قبل الإسلام من تخلخل وضياع.

وعلى العكس من ذلك: إن إنقاذ المرأة مما كانت فيه، ومخاطبتها بالدعوة ركيزة صالحة لا بد منها، فكان البيت المسلم يصوغ الرجال ويدفع بها إلى ميادين الجهاد والعمل والبناء..

إن كل الذين تؤرقهم حالُ الأمة، ويهمُّهم أن تتجاوز المرحلة الصعبة في حاضرنا الأليم: يدعون إلى الإحكام في بناء الإنسان المسلم وتربيته الحقة رجلاً كان أو امرأة، علماً بأن المرأة في العالم الإسلامي لا تأخذ حقها من الصياغة الإسلامية كما ينبغي. هذه ثغرة لا بد أن تتلافى بوعي وتدقيق. وهذا لا يعني أيضاً أن صياغة الرجل لا مآخِذَ عليها ولا نقص فيها، ولكن العناية بإعداد المرأة علماً وتربية قد تأخر ـ مع الأسف ـ لاعتبارات لا مجال لتفصيلها في هذه السطور.

إنه لا بد أن نضع في حسباننا عندما نكون جادين على طريق البناء والتنمية، أن تأخذ المرأة حيِّزها الطبيعي الذي أعدها له الإسلام بوصفها صاحبة رسالة، وبذلك نضمن إن شاء الله أكرم النتائج؛ ومنها ما تُشغَل به أحياناً من أفكار بعضُها إلى التقليد الأعمى أقرب وبالوهم ألصق؛ وبذلك نرضي ربنا، وننصح لمجتمعنا وأمتنا في هذا الخضم من التحديات.

العمل.. والجزاء
وموقع المرأة في البناء

«١»

الناظر في معالم القرآن الكريم بوعي وبصيرة: يقع على توافق عجيب بين ما تهدي إليه، وبين طبيعة الرسالة، فشمول الرسالة لكل جوانب الحياة، وكونها للإنسان بصرف النظر عن كونه ذكراً أو أنثى، يقابله في معالم الكتاب وبموافقةٍ تامة ما يعين على تحقيق الرسالة، ويفتح للعاملين على تحقيقها آفاق البناء.

ومن ذلك على سبيل المثال ما نجد في قوله تعالى في سورة الزلزلة: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة: ٧-٨] من العموم الذي يشمل ذكور الأمة وإناثها في هذه القاعدة النورانية، التي تبيِّنُ أن أيَّ عامل عملاً في الدنيا ذكراً كان هذا العامل أو أنثى يجد حصاد عمله يوم القيامة مهما كان حجم هذا العمل، حتى لو بلغ من القلة أن يكون مثقال ذرة، وذلك إن خيراً فخير وإن شراً فشر، وإنما جاء العموم من كلمة «من» الشرطية التي هي من أبرز أدوات العموم.

إنَّ رسالة الإسلام رسالة بناء تُعد الفرد إعداداً صحيحاً. وتبني الأسرة بعد الإيمان، على أسلم الأسس الاجتماعية وأقواها، وتقيم المجتمع الحضاريَّ المتماسك الذي سلمت خلاياه، فسلم له البناء في اقتصاده وفكره وروابطه الاجتماعية. وذلك كله طريق الإحكام في بناء الأمة التي شاء الله أن تكون لها من

المقومات ما يجعلها خير أمة أخرجت للناس.

ولما كان هذا كله، لا بد له من العمل مقترناً بالإيمان، وكان خطاب الرسالة للذكور والإناث: فقد جاء التعبير في المعلم القرآني الذي نحن بصدده يتسم بالعموم كي تشمل الدعوة إلى العمل الخيِّر وصدق الإحساس بالمسؤولية، كُلَّ المكلفين في الأمة دونما تفريق في هذه القضية الكبرى بين ذكر وأنثى.

هكذا نجد التعبير ﴿فَمَن يَعْمَلْ﴾ كلٌّ حسب تكوينه واستعداده، وما أهله الله له في حمل رسالة الإسلام رسالةِ البناء التي تقوم على العقيدة الصحيحة، وتُحِلُّ العلم والعمل محلهما الطبيعي في جنباته، فليس لأنثى في ظل هذه الرسالة أن تتفلّت من عمل خير تستطيعه لأنها أنثى، ولا أن تجترح أي عمل في مجال الشر مهما هان وصغر بحجة أن العمل منوط بالرجال. لا، ثم لا، إن الله تعالى يقول: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨﴾ [الزلزلة: ٧-٨] والجزاء من جنس العمل لا فرق في ذلك بين ذكر وأنثى.

وإن أمة وضعتها الأقدار على عتبة يقظة جديدة بعد غفوة طال أمدها، مطلوب منها على وجه التأكيد، أن تنتزع كل عواملٍ الضعف من الصدور، وان تحمل كل المخاطبين برسالتها ذكوراً وإناثا على العطاء الجاد المخلص في ساحات البناء المجدي، وميادين التنمية للثروة البشرية في مواهبها وإمكاناتها، والثروة المادية التي إن تحركت من منظور علمي في ضوء أخلاقيات الرسالة: أسهمت في صُنع تاريخ الأمة ووضعته على المسار الصحيح بإذن الله.

مرة أخرى.. مع العمل والجزاء
المرأة.. والبناء الحضاري
«٢»

النسب الكريم بين معالم الكتاب العزيز وبين منهج الرسول ﷺ في بيان هذه المعالم من خلال التحريك العملي في المسجد والبيت والسوق، والطريق وساحات الجهاد وغيرها.. هذا النسب الكريم هو من الوضوح بحيث لا يخفى إلا على غافل أو متغافل.

نقول هذا ونحرص عليه لأن البيان لتلك المعالم التي خوطب بها الرجل والمرأة، هو بحد ذاته، برهان عملي ناطق على أن الإسلام دين العلم والمعرفة، ورسالة الحياة البانية التي تعطي لكل شيء قدره بتوازن ينمي كل مقومات الوجود الذاتي للأمة، ويسلك بها سبيل البناء الحضاري القويم في كل ميدان من الميادين، في الداخل والخارج وفي حالات السلم والحرب.

على هدي هذه الحقيقة: نسعد في هذه العجالة من القول، بصورة من صور البيان النبوي تلقي مزيداً من الضوء على ما رأيناه في كلام سَلَف من العموم في ذلك المعلم القرآني. **﴿فمن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يره ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَراً يَرَهُ ﴿٨﴾﴾** [الزلزلة: ٧-٨].

وكيف أن التعبير في الآيتين يُحَمِّل الرجل والمرأة كليهما مسؤولية العمل ـ وأن يكون هذا العمل من أعمال الخير بعيداً عن الشر وما يمت إليه بصلة ـ. كلٌّ في تخصصه والثغر الذي أقامه الله عليه.

ها إنك ترى أن رسول الله خاطب ببيان الآية وشمولها النساء، كما خاطب الرجال؛ فقد ثبت في الحديث الصحيح عنه ﷺ قوله: «**يا معشر النساء المؤمنات**

لا تحقرن جارة لجارتها ولو فِرسِنَ شاة» رواه البخاري ومسلم.

وروى الإمام أحمد أن رسول الله ﷺ قال: **«يا عائشة استتري من النار ولو بشق تمرة فإنها تسد من الجائع مسدها من الشبعان».**

إن هذا الهدي النبوي يضع أيدينا على الدور الذي يمكن أن تؤديه المرأة في إحكام البنية الاجتماعية إذا تربَّت على أدب الإسلام.

هذا على الساحة الأولى، وهو قبس من الضياء يفتح أبواب الخير على مصاريعها أمام المرأة المسلمة، والمهم أن يوظف ذلك بموضوعية على ساحة التربية والإعداد، ليكون ذلك بريدَ العمل.

أما عن التنفير من عمل الشر ـ كائناً ما كان شأنه ـ فقد روى الإمام أحمد أيضاً أن رسول الله ﷺ قال: «**يا عائشة إياك ومحقرات الذنوب فإن لها من الله طالباً**». إنه التحذير من الاستهانة بالحقير الصغير من الذنب، لما أن الاستهانة بالصغير قد تفعل فعلها السيء في محاضن النفس، فتليها الاستهانة بما هو أكبر وأكبر «ومعظم النار من مستصغر الشرر».

لست اليوم بسبيل الاقتصار على أن أقول للمرأة: إن لكِ حقوقاً يقتضيها حمل الرسالة ولكني بسبيل تجاوز هذه المرحلة وتذكيرها بواجبها الإسلامي على ساحة البناء والنماء في ظل رسالة الإسلام أحكامها وآدابها «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته».

فالكل مسؤول والله لا يضيع عمل عامل من المسلمين من ذكر أو أنثى. ذلكم قوله تعالى: ﴿ **فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ** ﴾ [آل عمران: ١٩٥] وأطيب الثمرات لذلك كائن في الدنيا والآخرة، هاهي ذي سورة النحل أيضاً وهي سورة مكية تطالعنا بقول الله جل ثناؤه: ﴿**مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴿٩٧﴾﴾ [النحل: ٩٧].

بنية المجتمع.. في المعلم القرآني وبيانه
الرجل والمرأة.. وجزاء العمل
«٣»

ماذا علينا لو استأثر الحديث عن المعلم القرآني في سورة الزلزلة بمزيدٍ من الاهتمام والمتابعة.. ماذا علينا لو كان ذلك وكلمات القرآن في هداها وعطائها لا تنفد..؟

لقد رأينا في كلمات سلفت من قريب جوانب من هدي هذا المعلم الكريم التي تضيء الطريق لمن يسعدهم الله فيسهمون في إحكام البنية الفكرية والاجتماعية والاقتصادية لمجتمعهم، في ضوء الحرصِ على كل عمل هو خير من الخير، دقَّ هذا العمل أو جلَّ: وإعلانِ الحرب على كل ما هو من الشر بسبيل، كبر ذلك أو كان مثقال ذرة.

ولقد كان واضحاً ـ دون تكلُّف ـ أن هذه المهمة منوطة بالرجل والمرأة على السواء. كلٌّ في حدودٍ مؤهلاته وإمكاناته، دون تجاوز لأي من أحكام الشريعة وآدابها، وبذلك يتكامل البناء مبرّءاً من الثغراتِ السلبية وعوامل الضعف.. لأن الإسلام يُنمِّي مع البناء كل خصائص الاستمرار، ويحرص على أن تكون القدرة الذاتية للأمة ركيزة المسيرة الخيِّرة الهادية على الدوام.

وحين نتجاوز هذه القنطرة على واقع الأمة في مجتمعاتها اليوم، نجد كثيراً من البلايا وأسباب الانهدام تكمن في التهوين من شأن ألوان من المخالفات عند الممارسة اليومية لشؤونِ الحياة، وتحرك الإنسان في ميدان تخصصه وعمله الذي أقامه الله فيه.

وما درى هؤلاء المستهينون أن البنية الأخلاقية لا تتجزَّأ، فالانحراف هو الانحراف. وتجاوز الحدود من ساحة الخير إلى مباءة الشر، هو التجاوز، ولعل هذا من نور الآيتين الكريمتين: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨﴾ [الزلزلة: ٧-٨].

ألا فلننظر بوعي وتدبر إلى كل عمل على صعيد البناء المطلوب، والتغيير المرتجى إلى الأفضل من خلال هذه الكلمات المباركات، فما الذي سنرى؟

الجواب مع صورة مشرقة أخرى من صور البيان النبوي لهذا المعلم أُوردها تاركاً للقارئ الكريم أن يدرك أبعادها على صعيد التحرك في كل ميدان.

روى الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إياكم ومحقرات الذنوب فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه**» وإن رسول الله ﷺ «**ضرب لهن مثلاً كمثل قوم نزلوا أرض فلاة، فحضر صنيع القوم، فجعل الرجل ينطلق فيجيء بالعود، والرجل يجيء بالعود، حتى جمعوا سواداً وأججوا ناراً وانضجوا ما قذفوا فيها**» وصلى الله وسلم وبارك على معلم الناسِ الخيرَ المبلغِ عن الله ما أراد، الذي أدى ـ خير أداء وأحسنه ـ أمانة البيان لكتاب الله التي اؤتمن عليها بقوله سبحانه: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤].

المرأة.. والبناء
وواحدة من وقفات الفقيهةِ البارعة المعلمة
عائشة أم المؤمنين

«١»

ما أحسب أن حقبة زمنية مرت بأمتنا، كانت أحوج فيها إلى وعي حقائق الإسلام ومضمونات ما جاء به القرآن الكريم وسنة المصطفى عليه الصلاة والسلام: منها اليوم.

والمفترض أن تبنى الأجيال الإسلامية قلوباً وعقولاً على قدر مشترك لا بد منه في معرفة حقائق الدين وما به يكون المسلم مسلماً، يحلُّ الحلال، ويحرم الحرام، ويحسن التصوّر الذي يطوِّع له السلوك.

وفيما وراء ذلك: تعمل ميادين التخصص عملها في تنشئة العلماء العاملين والباحثين المنتجين. والتوعيةُ على مستوى القدر المشترك بين الجميع ـ كما أسلفنا ـ تحلّ كثيراً من المشكلات والمعضلات، وتريح أبناءنا في مواقفهم من الإسلام دون أن يتخبطوا في ظلام الغزو الفكري من الخارج، أو في المفهومات الخاطئة من الداخل.

أقول هذا وأنا أقرأ قول الله تعالى في سورة البقرة: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّه فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَو اعْتَمَرَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْه أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْراً فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾﴾ [البقرة: ١٥٨] ونرهف السمْعَ إلى ما حصل لعائشة أم المؤمنين رضي الله عنها مع تلميذها النابه الموفق ابن أختها عروة بن الزبير رحمه الله في شأن هذه الآية.

إذ إن هذه الواقعة من أسمى البراهين على ما يريده الإسلام من العطاء الحقيقي دونما تفريق بين الرجل والمرأة، صورة من صور التوعية الحقيقية لأحكام الإسلام كيف تُبْنى على الدليل، ولمحة من لمحات الضياء عند الفقيهة المعلمة البارعة عائشة رضي الله عنها في حرصها على بناء الإنسان المسلم، بناءً علمياً يتَّسم بنقاء الفكر والتثبت، والإحاطة بالدليل. وهذا لا يعني ـ لا سمح الله ـ غضاً من قدر عروة رحمه الله بحال من الأحوال، ولكنه التنبيه على نهج أم المؤمنين في إعداد المسلم الذي يتوافق مع حقيقة ما هو عليه وعياً، وإدراكاً لحقائق الإسلام وأحكامه.

فلقد بلغ عائشة رضي الله عنها، أو سمعت ـ كما في بعض الروايات ـ من ابن أختها عروة بن الزبير كلاماً يرى فيه أنه ما على أحد جناح أن لا يطوّف بالصفا والمروة، أي أنه فهم من قوله تعالى: ﴿ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﴾جوازَ ترك السعي بين الصفا والمروة. فردته أم المؤمنين على الصواب بتوجيه نظره إلى التدقيق في نص الآية، وفي ضوء سبب النزول الذي حدثته به كما سنرى في خطوة قادمة إن شاء الله.

ألا ما أحوجنا اليوم ونحن نستظل بظل الإسلام، ونريد بحق نبراساً للأمة يبني وجودها الذاتي، وينمي في أبنائها طاقات المواجهة للتحديات، وما أكثرها.. ألا ما أحوجنا والأمر كذلك، إلى تبين الطريق وفهم حقائق الإسلام كما ينبغي والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

المرأة.. والبناء العلمي ووقفة للفقيهة المعلمة عائشة

«٢»

في إنجاز لوعدٍ العهدُ به قريب، باستكمال ما حصل لعائشة أم المؤمنين مع ابن أختها عروة بن الزبير بشأن فهمه لآية السعي بين الصفا والمروة، نذكر ما روى الإمام أحمد عن طريق الزهري عن عروة عن عائشة رضي الله عنها قال: قلت: أرأيت قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ [البقرة: ١٥٨] قلت ـ ويعني عروة نفسه ـ فوالله ما على أحد جناح أن لا يتطوف بهما، فقالت عائشة: بئسما قلت يا بن أختي: إنها لو كانت على ما أولتها عليه كانت: «فلا جناح عليه آن لا يطّوف بهما» ولكنها إنما أنزلت أن الأنصار كانوا قبل أن يسلموا، كانوا يهلون لمناة الطاغية التي كانوا يعبدونها عند المشلل وكان من أهلّ لها يتحرج أن يطوف بالصفا والمروة، فسألوا عن ذلك رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله إنا كنا نتحرج أن نطوّف بالصفا والمروة في الجاهلية، فأنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ [البقرة: ١٥٨].

قالت عائشة: ثم قد سنّ رسول الله الطواف بهما، فليس لأحد أن يدع الطواف بهما، أخرجه البخاري ومسلم.

وفي رواية عن الزهري أنه قال: فحدثت بهذا الحديث أبا بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام فقال: إن هذا العلم ما كنت سمعته، ولقد سمعت رجالاً من أهل العلم يقولون: إن الناس ـ إلا من ذكرت عائشة ـ كانوا يقولون إن طوافنا بين هذين الحجرين من أمر الجاهلية، وقال آخرون من الأنصار: إنما

أمرنا بالطواف بالبيت ولم نؤمر بالطواف بين الصفا والمروة، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ قال أبو بكر بن عبد الرحمن فلعلها نزلت في هؤلاء وهؤلاء.

هذا كان العلم الذي قدمته عائشة رضي الله عنها إلى تلميذها عروة حين ردّته، إلى أنه لو كان المقصود عدم الطواف لقال الله تعالى: «فلا جناح عليه آن لا يطّوف بها» بذكر كلمة (لا) وحين كشفت عن سبب النزول وتحرُّج الأنصار في السعي بين الصفا والمروة خشية أن يكون ذلك امتداداً لتمسُّكهم في الجاهلية بمناة الطاغية التي كانوا يعبدونها عند المشلل.

أما بعد هذا البيان: فقد علم أن الآية تقرر مشروعية السعي بين الصفا والمروة وأنه من شعائر الحج في ظل عقيدة التوحيد.

جزى الله عروة خير الجزاء ورحم أم المؤمنين ورضي عنها، فلقد أصبحت هذه الواقعة معلماً نيراً على طريق الذين يرتادون للأمة طريقها في بناء المسلم وتنمية قدرته على فهم الإسلام ووعي حقائقه وعياً يدفعه إلى ميادين الحياة قيمة تغني بالخير في بناء الحياة، كالذي كان لعائشة من فضائل علمية في هذا الباب، نقع على كثير منها في المصادر الموثّقة، ومنها كتاب «الإجابة فيما استدركته عائشة على الصحابة» للإمام الزركشي رحمه الله.

المرأة المسلمة.. وعيٌ وبناء
وخولة بنت ثعلبة
«٣»

حين يذكر الحرص على الإلمام بحقائق الإسلام من مدعيها بعلم يصحب الإيمان، لا بد أن يُذكر معه ولو بعضٌ من تلك النماذج الرائعة التي كانت شديدة الحرص على معرفة الأحكام من أجل أن تكون في السلوك والتصرف على المحجة البيضاء طاعة لله ولرسوله، وبعداً عن التجاوز لأي حد من حدود الله.

والمرأة المسلمة يوم بناها الإسلام على هذا الوعي والحرص على سلامة التطبيق، استطاعت أن تسهم في دفع القافلة إلى الأمام، وأن تشارك مشاركة فعالة في بناء الأسرة ومجتمع العقيدة السمحة، ضمن إطار الخلق الإسلامي الذي يحكم السلوك.

وفي سورة المجادلة واحد من المعالم القرآنية التي تضع أيدينا على هذه الحقيقة؛ حقيقةِ الوعي عند المرأة المسلمة لحقائق دينها، وعياً دفعها إلى معرفة حكم الله في كل صغيرة وكبيرة من أجل أن يقترن العلم بالتطبيق والسلوك.

ذلكم قوله تبارك وتعالى في فاتحة هذه السورة: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ۝١﴾ [المجادلة: ١].

الخطاب للرسول ﷺ والمرأة المقصودة بقوله تعالى ﴿الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ هي «خولة بنت ثعلبة»

وقصة ذلك ـ كما روى البخاري وأحمد وغيرهما ـ أن خولة هذه جاءت إلى رسول الله ﷺ تشتكي زوجها أوس بن الصامت الذي قال لها: «أنت عليَّ كظهر أمي» وكان الظهار ـ وصيغته هذه الكلمة ـ: طلاقاً في الجاهلية، فقد خشيت

خولة وهي المرأة المسلمة التي بلغ من اهتمامها بأمر دينها: أنها خشيت أن يكون مكثها في بيت أوس مكث الأجنبية مع الأجنبي، فجاءت إلى رسول الله ﷺ تقص عليه الخبر وتستفتيه في حكم ما قال زوجها، وهل تظل زوجته بعد قوله: «أنت علي كظهر أمي» أم عليها مغادرة بيتها وأولادها.

وكان الحوار وكانت المجادلة حتى نزلت آيات الكتاب تقضي بالأمر كما سنرى فيما يأتي من القول إن شاء الله حيث نورد الروايات وما نطقت به من سبب النزول، وما كان لذلك من أثر في فقه ما دلت عليه الآية الأولى من السورة وما بعدها من أحكام، ثم ما كان لذلك من دلالة على ما يجب أن تكون عليه المرأة المسلمة من حرص على العمل بأحكام الشرعَةِ المباركة، كيما تنجو بنفسها من غضب الله، وكيما تسهم إسهاماً حقيقياً فعّالاً في بناء الأسرة المسلمة والمجتمع المسلم على الوجه الذي ينبغي في شرعة الإسلام.

وشاء ربنا تبارك وتعالى أن تكون فواتح سورة المجادلة معلماً مضيئاً على طريق الأمة يهديها إلى سلامة البنية الفكرية والسلوكية عند المرأة المسلمة أهلتها ـ وتؤهلها دائماً ـ لكثيرٍ طيبٍ في بناء الأسرة والمجتمع الفاضل الكريم.

المرأة المسلمة.. وعي وبناء
وخولة بنت ثعلبة
«٤»

في إشارة سريعة إلى واحدة من خصائص البناء في معالم القرآن الكريم: ألمحنا إلى صورة من صور الوعي عند المرأة المسلمة في تاريخنا وما كانت عليه من الحرص على فهم أحكام الإسلام وحسن تطبيقها عند كل شأن من شؤون الحياة.

وخولة بنت ثعلبة زوج أوس بن الصامت والتي كانت محور تلك الصورة التي جرت الإشارة إليها في حديث قريب: قد جاءت الأخبار الصحيحة بشأن قصتها التي كانت سبب نزول قول الله تباركت أسماؤه: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ۝١﴾ [المجادلة: ١].

فقد روى أحمد والبخاري تعليقاً بجزم ـ وغيرهما عن عروة عن عائشة قالت: «الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات لقد جاءت المجادلة إلى النبي ﷺ تكلمه وأنا في ناحية البيت ما أسمع ما تقول، فأنزل الله عز وجل: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ﴾ [المجادلة: ١] إلى آخر الآية».

وفي رواية لابن أبي حاتم عن عروة أن عائشة رضي الله عنها قالت: «**تبارك الذي أوعى سمعه كل شيء إني لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة ويخفى عليٍّ بعضه وهي تشتكي زوجها إلى رسول الله ﷺ وهي تقول: يا رسول لله: أكل مالي وأفنى شبابي، ونثرت له بطني، حتى إذا كبرت سني، وانقطع ولدي، ظاهر مني. اللهم إني أشكو إليك قالت: فما برحت حتى نزل جبريل بهذه الآية**».

لقد أهمّ خولةَ رضي الله عنها أن ظاهر منها زوجُها أي قال لها: أنت علي كظهر أمي، وخشيت أن يكون هذا طلاقاً، فتكون حراماً عليه كما أسلفنا.

إن هذا الأنموذج من النساء صورة صادقة من صور الحرص الداخلي على الالتزام بأحكام الإسلام، ودليل واضح على سلامة الصياغة التي صاغها محمد ابن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه للإنسان المسلم. لقد كان زوج هذه المرأة على شيء من المتاعب النفسية والعصبية ـ كما تدل بعض الروايات ـ فوقع في الخطأ، ولكن البيت المسلم لم يعدم امرأة صالحة تقف للخطأِ بالمرصاد، قائلة في مواجهة الانحراف: (لا) وتسأل في أمر دينها رسول الله عليه الصلاة والسلام.

إنه الأنموذج القدوة في عملية بناء الفتاة المسلمة اليوم، الأنموذج الذي من الوفاء بعهد التربية الحقة أن نعضَّ عليه بالنواجذ في المنهج والتطبيق.

المرأة المسلمة.. وعي وبناء

خولة.. وقفة عمرية

«٥»

ليس بأمر قليلٍ أن تسمى سورة من سور القرآن بالمجادلة وهي خولة رضي الله عنها. وإنما كان ذلك ـ والله أعلم ـ لأن جدالها كان في أمر من أمور دينها، وكان ما وقع لها سبباً في بيان تفصيلي لحكم شرعي يتعلق بكيان الأسرة وسلامة العلاقة بين أفرادها.

وسلامة العلاقة قوامها أن تكون على ما يرضي الله ورسوله، فلا تجاوز لحدود الله ولا انحراف.

أما بدء السورة بقوله تعالى خطاباً للنبي عليه الصلاة والسلام: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا﴾ [المجادلة: ١] فهو العجب العجاب، والأمر المثير للدهشة في إعطاء البحث عن الحقيقة، والتحري عن حكم الله ليتبع: الحجمَ المناسب في كتاب الله تبارك وتعالى.

فالأجيال كلها وعلى مدى القرون حتى يرث الله الأرض ومن عليها تقرأ وتكتب وتسمع وتدرس ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ﴾.

وعلى طريق البناء بناء الفتاة المسلمة: تظل هذه الآيات في شأن هذه الواقعة معلماً مشرقاً يضيء الدروب وينفي عن مسالك الإعداد الخبث، أن لو صدقت النيات في الاستنارة بهدي كتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام: امرأة تسأل رسول الله عن الحكم، فيتنزل الوحي بالواقعة والحكم، وأن الله قد سمع قولها وهي تجادل رسول الله وتشتكي إلى الله... لقد سمع الله السميع البصير قول خولة، وعائشة، في ناحية البيت لا تسمع.

ولقد عرف الرجال الأولون الذين أدوا الأمانة وحملوا عبء البناء لهذه المرأة مكانتها وقدّروا تلك القضية حق قدرها، وكانت مع الزمن تنمو في أنفسهم عظمتها ودلالتها على درب الأمة الطويل في تحمُّل أمانة الإسلام وهاك واحداً من الموقف العمرية في هذا الباب. حدث جرير بن حازم قال: سمعت أبا يزيد يحدث قال: لَقِيَتْ امرأةٌ عُمَرُ يقال لها خولة بنت ثعلبة وهو يسير مع الناس، فاستوقفته، فوقف لها ودنا منها وأصغى إليها رأسه ووضع يديه على منكبيها حتى قضت حاجتها وانصرفت، فقال له رجل: يا أمير المؤمنين حبستَ رجالات قريش على هذه العجوز؟! قال: ويحك. وتدري من هذه؟ قال: لا، قال: هذه امرأة سمع الله شكواها من فوق سبع سماوات، هذه خولة بنت ثعلبة، والله لو لم تنصرف عني إلى الليل ما انصرفت عنها، حتى تقضي حاجتها، إلا أن تحضر صلاة فأصليها، ثم ارجع إليها حتى تقضي حاجتها. أخرجه ابن أبي حاتم والبيهقي في «الأسماء والصفات»، وأخرج البخاري في تاريخه وابن مردويه عن قامة بن حزن قال: بينما عمر بن الخطاب يسير على حماره لقيته امرأة فقالت: قف يا عمر، فوقف، فأغلظت له القول، فقال رجل: يا أمير المؤمنين ما رأيت كاليوم، فقال وما يمنعني أن أستمع إليها وهي التي استمع الله لها ونزل فيها ما نزل ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ﴾ الآية وينظر «الدر المنثور» للسيوطي.

المرأة.. ووقائع البناء
خولة.. وقراءة التاريخ

«١»

عندما تكون الوقائع نفسها هي التي تنطق، وهي التي تبين عن حجم قضية من القضايا في ميادين البناء، فذلكم هو البرهان على صدق هذه القضية ووزنها في تلك الميادين أو واحد منها.

وواقعة خولة بنت ثعلبة رضي الله عنها ـ كما بدا لنا فيما سبق من القول ـ ناطقة بوعي المرأة المسلمة التي أسهمت في عملية البناء الكبرى في صدر الإسلام، شاهدة على صدق اهتمامها بدينها، وأن الإسلام ليس لعقةً على اللسان، حيث الدعوى بجانب، والعمل والسلوك بجانب، وإنما هو عقيدة وعمل وسلوك في مراقبة دائمة لله الذي لا تخفى عليه خافية ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء: ١].

وحين تستيقظ في النفوس جذوة الخير، ويدرك المؤتمنون على بناء الجيل أهمية المرحلة التي تمر بها الأمة، وما تعرضت له المرأة المسلمة من أفكار مستوردة، وأوهام حاول سماسرتها أن يجعلوها حقائق.. حين تسير الأمور سيرها الطبيعي على هذه الشاكلة تأخذ هذه الصورة من صور البناء دورها الرائد في مرحلة اليقظة، وتتخفف الجماعة من قيم غريبة عن الدين والفطرة ابتليَ بها كثير من المجتمعات في دنيا المسلمين.

إن تنمية الشعور المهيمن بأن الإسلام قول وعمل وعقيدة وسلوك، ـ وبخاصة في نفس الفتاة المسلمة ـ: تعمل عملها في سلامة كيان الأسرة، وإعدادها على الوجه المطلوب، كيما تكون حقاً تلك اللبنة الصالحة المتماسكة في كيان المجتمع.

وما رأيناه من تقدير أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه للمجادلة خولة بنت ثعلبة جدير أن يشدنا إلى قراءة جديدة واعية لتاريخ المرأة المسلمة في صدر الإسلام، كيما يكتمل التصور لتلك العوامل التي أسهمت مجتمعة في بناء المجتمع الأمثل الذي كان الدين باعث الحياة في جوانبه وميادينه كافة.

وإنها لواحدة من وقفات عمر وشموخه بالإسلام. أن يقف وهو الذي يحكم العالم من المدينةِ المنورة، ويتابع إحكام البناء في دنيا الأمة الإسلامية على الصعيد ـ المحلي والدولي ـ أن يقف ويطيل الوقوف ليستمع إلى تلك العجوز التي سمع الله قولها من فوق سبع سماوات، وفي عزمه أن لا يقطع حديثها أو ينصرف عنها مهما أطالت إلا من أجل الصلاة..: من المحطات المهمة البانية في سيرة الخليفة الراشد أبي الفاروق وحسن توجهه الحضاري في تقدير اللَّبنات المباركات التي تسهم في بناء المجتمع الأمثل، وإنه لموقف يؤذن بما سبقت الإشارة إليه من ضرورة تجديد قراءة التاريخ في شأن تكلم المسلمات القانتات البانيات، واستكمالِ التصور لتلك المرحلة وآثارها في البناء.

وإن أمتنا ـ وهي على موعد مع صناعة تاريخها من جديد ـ: مدعوة إلى أن تضع في حسبانها وهي تعمل على بناء الفتاة المسلمة أن يكون لهذا التصور الموقف الملائم في التنهيج والتطبيق كفاء المرحلة القادمة والله ولي التوفيق.

بين الأمس واليوم خولة.. وواقع المرأة والبناء

«٢»

حقيقة ما بين الأمس واليوم: لا بد أن تكون منظورة على صعيد التحديد المنهجي لمسار الفرد والمجتمع في عالمنا الكبير.

إن فواتح سورة المجادلة التي دلنا المعلم القرآني من خلالها على صنع المرأة المسلمة في تلك المرحلة من مراحل إرساء القواعد التي يقوم عليها البناء. وما كان من وقع الحادثة وسبب النزول وتقدير صاحبها في النفوس كالذي حصل من عمر رضي الله عنه.

إن فواتح هذه السورة المباركة المبدوءة بقوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١] جديرة أن تصحب خطوات أهل الريادة في ساحات البناء وبخاصة ما كان على صعيد الأسرة والروابط الاجتماعية، ناهيك عما يجب من تنمية الشعور بالواجب، وإن أحكام الإسلام أمانة في الأعناق مطلوب أداؤها على الوجه الأكمل. وذلك في إطار مقارنة تحمل شيئاً من العمق بين أمسٍ واليوم، وكيف كان ارتباط كل نتيجة بمقدماتها.

وإذا كنا لا ننكر أهمية الموقع الذي يجب أن يكون للمرأة المسلمة في استئناف رحلة البناء بعد أن ابتليت الأمة بما ابتليت به من الصوارف والمعوقات سواء أكان ذلك: من ذاتها أو من أعدائها.

إذا كنا لا ننكر ذلك فليكن لنا من الأبعاد التي أخذتها فواتح سورة المجادلة في صياغة المرأة المسلمة، وارتباط ذلك بميادين التشريع والاجتماع، وإحكام الروابط في الأسرة على أساس من تقوى الله عز وجل والوقوف عند كل ما فيه طاعته وطاعة رسوله عليه الصلاة والسلام، وإنما يكون ذلك بوضع الواقعة موضعها من الاعتبار المنهجي والتخطيط.

ولعل التدبر الواعي لمدلولات المعلم القرآني في هذه السورة المباركة، يحمل كل أولئك الذين يهمهم أمر بناء الإنسان المسلم من جديد، والسير بالمجتمع قدماً إلى ما هو أفضل وأقوم... لعله يحملهم على الجادة في إحلال الحقيقة العملية الناطقة بشأن المرأة المسلمة في تاريخنا محلها اللائق، كيما تكون التربية على الوعي الإسلامي عقيدة وشريعة وانتظاماً بين العلم والعمل والسلوك: وقود البنية الحقيقيةِ للأسرة والمجتمع وتنمية ما نريد من طاقات وفاعليات.

ولهذا التاريخ كلمة هو قائلها تعلن إعلانها بأن مسيرة الخير لا بد منصورة بإذن الله، ولا تسل عما يثمر ذلك من عوامل الوجود الذاتي للأمة التي أكرمها الله بأن تكون خير أمة أخرجت للناس.

المرأة مع بعض الملامح في قصة خولة والبناء

«٣»

من خلال بعض الملامح التي أشرق بها المعلم القرآني في فواتح سورة المجادلة، يتبدى للناظر المتأمل، أن قصة خولة بنت ثعلبة التي كانت سبب نزول الآيات لم تكنِ ـ في حدودها وأبعادها ـ وكما هي في محتواها، بدءاً مما حصل بين خولة وبين زوجها، وانتهاءً بتنزيل الوحي على رسول الله ﷺ بتلك الآيات.. لم تكن قضية هامشية في حياة البيت المسلم والمجتمع الوليد، بل كانت قضية جذرية تتعلق بالبنية من أساسها، سواء أكان ذلك في إعداد المسلم والمسلمة لمواجهة الحياة بشريعة الله، أم كان في صياغة مجتمع المدينة الذي كان حتى هجرة النبي ﷺ وأصحابه مثقلاً بالموروثات الجاهلية ـ ومنها كلمة أنت عليَّ كظهر أمي ـ وبالعادات التي تضع كلاً من الرجل والمرأة في غير الموقع الذي آذنت به الفطرة وطبيعة التكوين وما يجب لسلامة البنية في الجماعة والمجتمع.

نقول ذلك لأن الجماعة التي صاغ رسول الله ﷺ لبناتها بمادة الإسلام كان يواجه بها ـ من منظور حضاري ـ لا جزيرة العرب فحسب؛ لكن كان يواجه بها العالم بكل موروثاته الجاهلية والحضارية.

وكانت هذه المواجهة تحمل طابع التحول الجديد في العقيدة والفكر والتشريع والسلوك، وكان من الرجل والمرأة موضعه الطبيعي على أرض الصراع، حتى رأينا سلطان عقيدة التوحيد والشريعة التي قامت عليها: بارزاً واضحاً في كل شأن من شؤون الفكر والتشريع والاقتصاد، ناهيك عن الروابط التي يجب أن تقوم عليها الأسرة، وعلاقة الأفراد بعضهم ببعض.

فالمؤمنون يلتقون على كلمة «لا إله إلا الله محمد رسول الله» وتجمع بينهم آصرة الأخوة الإيمانية، وتحكم علاقاتهم وتصرفاتهم شريعة الله، وتوجه سلوكهم أخلاق الإسلام.

ومن هنا كانت الجذرية في قصة خولة وما كان من وعيها العميق لعملية البناء. ورحلةُ البناء اليوم: لا يصح بحال أن تكون مبتورة الصلة ـ لا سمح الله ـ عن الحقبة الزمنية والجماعة التي واجه بها رسول الله العالم، حين أحسن بناء الرجل والمرأة على الإسلام، ونمىَّ في الرجل والمرأة ذاتية المسلم وقدرته على تخطي الصعاب، كيما يكون عنصر فاعلية في مجتمع أرسى القواعد المضيئة لحضارة الإنسان. الحمد لله على نعمة هذا الدين وأكْرِم بها من نعمة زاخرة بما يوجهنا به إلى سعادة الدنيا والآخرة.

من القيم في قصة خولة..
على طريق البناء
«٤»

أبعاد الهداية في القرآن الكريم ـ وهو يحمل دعوة الحياة ـ لا تنحسر عن أي من الميادين التي تقتضيها الحياة، فأنى طلبت الهداية على صعيد الفكر أو الاجتماع أو الاقتصاد أو السياسة أو ما هو من ذلك كله أو بعضه بسبيل، وجدتَ الذي تبتغيه، ضمن قواعد عامة وإجمال يفسح للتطور وما يستجد من وقائع أن تأخذ أحكامها عند التفصيل، سواء من ذلك ما كان في السنة النبوية، أو ما تُرِكَ للاجتهاد فيما وراء النصوص.

ومن هذه الزاوية نجد قصة خولة بنت ثعلبة رضي الله عنها مثقلة بصنوف الهداية، حافلة بكثيرٍ طيبٍ من مقومات البناء، جديرة بأن تنمي في الفتاة المسلمة روح الالتزام بأحكام دينها، والإحساس بدورها الكبير في تحقيق رسالة الإسلام في نفسها وأسرتها وذويها، وما يحدث ذلك من أثرٍ ينعكس على بنية المجتمع في ضوابطه التشريعية وعلاقات أبنائه الاجتماعية.

فلقد أقام القرآن من خولة رضي الله عنها مثلاً رائعاً بموضوعيته وعمقه، لبنات جنسها على مدى التاريخ، في صدق الإيمان، والشجاعة في الحق وتطويع السلوك لمقتضى ذلك، والوعي المستنير لكل صغيرة وكبيرة على ساحة الممارسة لأي شأن من شؤون الحياة، ما كان في نفسها، أو في علاقتها بزوجها وأولادها.

وحرصُها على أن يكون ذلك كله وَفْقَ منهاج الشريعة وأحكامها حملها على أن تغذَّ الخطا إلى رسول الله ﷺ تستفتيه في حكم ما كان من قول زوجها أوس بن الصامت: «أنت علي كظهر أمي».

وفي استمرارية لطريق الهداية يرسمه القرآن الكريم، ويضيء بمعالمه كل جوانب الحياة ـ ومنها هذا الجانب الاجتماعي في أحكام الأسرة وضوابط العلاقة بين الزوج وزوجته وما يترتب على الأقوال والأفعال ـ: نزل قولُ الله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ۝١﴾ [المجادلة: ١].

وليس من مكرور القول أن نعود إلى ما يدعو إليه المصلحون الأمناء من أن عنوان السلامة في يقظة الأمة، وتطلعاتها إلى مرحلة جديدة من مراحل البناء، وضع العبرة موضعها من البناء، وتربية الجيل على حُسْنِ التأسي بمن هم أهلٌ للتأسي، من كل أولئك الذين أسهموا في صناعة تاريخنا من الرجال والنساء.

وشهادة القرآن لتلك الصحابية التي أنزلت بشأنها آيات تتلى وأحكام تلتزم: هي الشهادة، وقد آن للأمة بعد كل ما مر بها من تجارب: أن تتجه بالمرأة المسلمة صوب البناء من هذا المنطلق، وأن تنمي فيها روح التفاعل مع قيم الإسلام وأحكامه والله الهادي إلى سواء السبيل.

المرأة.. والبناء المنشود

وكلمات عائشة

«٥»

حين يراد تحقيق الطموحات في بناء الجيل بناءً لا يعوزه التكامل، والوصولُ إلى حيث يكون الإنسان في المجتمع قيمة تفجر طاقات العطاء، وتستعلي بالذاتية والأصالة على التبعية والاستخذاء، والجهالة والفوضى..

حين يراد ذلك بعزيمة وإصرار، لا بد من أن تعطى عقيدة التوحيد دورها في إحكام الأساس الذي يبنى عليه العلم والعمل، وتتولد من عطائه استقامة السلوك، وينمو بعمقه وشموله الإحساس بالواجب.

وكلما كانت العناية بغرس العقيدة وزيادة الإيمان أكثر، كانت ثمار بناء الشخصية أغزر وأوفر، ونمت في نفوس الأفراد القدرة على تزكية النفوس وتطويعها لكل ما هو من الخير بسبيل، وتضاعفت ـ بعون الله ـ طاقاتها في ارتياد الطريقِ الصاعدة، والاستعلاء على الركام.

أقول هذا وأنا أذكر جانباً من جوانب الضياء في المعلم القرآني من فواتح سورة المجادلة: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ﴾ الآيات... حيث قالت السيدة عائشة رضي الله عنها وهي تذكر سبب النزول: الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات. لقد جاءت المجادلة إلى النبي ﷺ تكلمه وأنا في ناحية البيت ما أسمع تقول، فأنزل الله عز وجل: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ۝١﴾ [المجادلة: ١].

هكذا ـ وكما أشرنا من قبل ـ يخفى على عائشة وهي في ناحية البيت ما تقول خولة بنت ثعلبة في استفتائها رسول الله في ما قال زوجها، وشكواها إلى الله عز وجل.

ولكن الذي لم تسمعه عائشة وهي في ناحية البيت سمعه رب العزة السميع البصير وتنزل الوحي بقوله جلّ وعز: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿١﴾﴾ [المجادلة: ١].

وتحمد أم المؤمنين ربها فتقول: «الحمد لله الذي وسع سمعه الأسماع» إيذاناً بما استحوذ على قلبها من عظمة القدرة الإلهية من خلال واقعة عايشتها.

ألا إن الإيمان بقدرة الله وعلمه وأنه مع خلقه يسمع ويرى ولا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.. إن هذا الإيمان كفيل بأن يُنَمّي في نفس الإنسان المسلم طاقة لا تجارى، واندفاعاً إلى الخير لا تحول دون تحقيقه المعوقات، واستقامة في السلوك لا تقطعها غفلة البشر فالله تعالى يسمع ويرى.

وهل يماري عاقل في أن الأمة وهي تبني أجيالها على أداء الرسالة وتحمل أعباء التغيير بأمس الحاجة إلى التربية على هذا الإيمان، اللهم لا ولكنَّ كثيراً من الناس عن هذا غافلون!!.

التحديد القرآني، والبناء
سورة المجادلة وكلمة الفصل
«٦»

ما زلنا مع الذخيرة المباركة في واحد من المعالم القرآنية من سورة المجادلة. ونحن اليوم على وعد مع كلمة الفصل التي تنزل بها الوحي بشأن قول أوس بن الصامت لزوجه خولة بنت ثعلبة رضي الله عنهما: «أنت علي كظهر أمي».

فالقرآن بما يبني الإنسان المسلم على الانضباط في أقواله وأفعاله وسائر تصرفاته وبما يحدد من المصطلحات، وبما يرتب من الآثار على عمل الجوارح ـ ونطقُ اللسانِ منَ الجوارح ـ... أعطى تحديداً جديداً لمدلول الكلمة «أنت علي كظهر أمي» ولكل تلك الكلمات التي قد يلقيها الزوج في حالة نفرة أو غضب، أو قصد لفراق زوجته.

ومن الناحية العقلية: يوضح المعلم القرآني أن كلمة الظهار لا تجعل الزوجة أماً، فالزوجة غير الأم بلا ريب؛ إذ إن أم الإنسان هي المرأة التي ولدته لا المرأة التي تزوج بها. وإذا كان إطلاق مثل هذه الأقوال ينبئ عن لون من الاستهتار بسمو العلاقة بين الزوجين، فلا بدع أن يكون هذا الكلام منكراً من القول وزوراً.

ذلكم قوله تعالى في الآية الثانية من السورة المباركة: ﴿ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلاَّ اللاَّئِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (٢) ﴾ [المجادلة: ٢].

ونقرأ في الأحزاب قوله تعالى: ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللاَّئِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ (٤) ﴾ [الأحزاب: ٤].

أرأيت إلى هذا النهج القرآني في ضبط التصرفات بين الزوجين، وإحكام العلاقات الاجتماعية في دنيا المؤمنين وهم يبنون مجتمعهم الأمثل في المدينة المنورة. تحديد للمفهومات، وتقويم للاعوجاج، وتنمية لارتباط الفرد والأسرة والمجتمع بالمنهج الرباني الذي لا يحيد ولا يزيغ.

ثم أرأيت إلى هذا الانتصار للمرأة الضعيفة التي تستفتي رسول الله وتشتكي إلى الله، وهي تخاف أن يكون ما قاله أوس طلاقاً كما كان في الجاهلية، وتقول: يا رسول الله أكل مالي وأفنى شبابي ونثرت له بطني، حتى إذا كبرت سني، وانقطع ولدي ظاهر مني، اللهم إني أشكو إليك.

«اللهم إني أشكو إليك» لقد تلقفت الملائكة هذا الدعاء الشاكي وسمعها الذي أوعى سمعه ـ جل شأنه ـ كل شيء، وتنزل الوحي على رسول الله، وكان من ذلك: ﴿ **الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ** ﴿٢﴾ ﴾ [المجادلة: ٢].

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل كان من آثار الوقفة الإيمانية الصادقة من خولة: أن الكلمة القرآنية في هذه السورة بعد أن آذنت المسلمين بأن كلمة «أنت عليّ كظهر أمي» منكر من القول وزور، وأن الله عفو غفور. جاءت على الحكم فيمن أراد أن يعود إلى زوجته: بأن عليه قبل أن يتماسَّا: الكفارة، وهي عتق رقبة ـ وهذا باب من أبواب التحرير الكثيرة التي فتحها الإسلام ـ فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسَّا، فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكيناً. نجد تفصيل ذلك في قوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ** ﴿٣﴾ **فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴿٤﴾﴾[المجادلة: ٣-٤].

سبحان الله..! أيّ وضوح أثمن وأغلى من هذا الوضوح.. إن هذا المؤشر العظيم جدير أن يرتفع بالفتاة المسلمة إلى حيث تعايش القرآن، وتولي وجهها شطر البناء بناء الجيل القرآني الذي هو أمل الأمة ومناط رجائها بعد الله.

البناء الاجتماعي.. والمرأة المسلمة ذات النطاقين.. والوعي

«١»

في كلمات خلت: وقفنا على واحدة من الوقائع العملية على طريق البناء الاجتماعي الذي كان يقود حركته الرائدة رسول الله ﷺ وهو يبني المجتمع المسلم في المدينة المنورة على أنقاض ما سبق قبل الهجرة إليها.

وتلك الواقعة: هي ما حدث لذات النطاقين أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما في شأن أمها التي قدمت المدينة وهي ما تزال على شركها راغبة في الصلة والإحسان من ابنتها، مع كراهيتها أن تتحوَّل عما هي عليه من الشرك، وسخطها على بنتها بسبب إيمانها، ها هي ذي تتحرَّى لدينها، فتسأل رسول الله ﷺ إذا ما كان يجوز لها أن تصلها وهي على هذه الحال من الشرك والعناد؟.

ويضع رسول الله ﷺ أحكام القرآن التي تنظم علاقة الولد بوالديه موضعها العملي على صعيد الواقع، فيفتي أسماء رضي الله عنها بأن تصل أمها، لما أن ذلك من حقها وإن كانت مصرَّة على شركها؛ فالوالدة لها حق الصلة والإحسان بوصفها والدة بصرف النظر عن إيمانها أو كفرها ولكنها لا تطاع في مخالفة.

وذلكم ما روى البخاري ومسلم وأحمد عن أسماء رضي الله عنها قالت: «**قَدِمت أمي وهي مشركة في عهد قريش إذ عاهدوا، فأتيت النبي ﷺ فقلت: يا رسول الله إنَّ أمي قدمت وهي راغبة أفأصلها؟ قال: نعم صلي أمك**» وفي رواية لأحمد.. «فأبت أسماء أن **تقبل هديتها وأن تدخلها بيتها، فسألت عائشة النبي ﷺ، فأنزل الله** تعالى: **﴿لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾** [الممتحنة: ٨].

ولئن كانت الواقعة وفتوى رسول الله ﷺ فيهما صورة صادقة بيِّنة للوجود العملي للحكم الإسلامي بين ظهراني المسلمين في شؤونهم الخاصة والعامة.. فإنها في الوقت نفسه ـ كما سلفت الإشارة ـ أنموذج رائع لوعي المرأة المسلمة واستعلائها على كل ما هو مخالف لشرعة الإسلام وآداب الإسلام، ولإسهامها الفعّال في بناء المجتمع وفق المنهج الرباني؛ الأمر الذي يجعلها لا ترضى بحكم الله ورسوله بدلاً، ولا تبغي عنه حولاً. والأمر الذي لا بد من الوقوف عنده، والانتفاع به في واقعنا المجافي أحياناً لما يقضي به الله ورسوله: ما رأينا من إيمان أسماء وإحساسها بالمسؤولية، وأن الحكم في المشكلة التي عرضت لها لا بد أن يكون للإسلام: كل أولئك مما دفعها دفعاً إلى استفتاء النبي عليه الصلاة والسلام، فيما يجب أن تصنعه لأمها ـ نعم لأمها المشركة؟ هل تصلها ـ كما هو المعتاد والمألوف ـ أم أن هنالك شيئاً جديداً يحدثه إصرارها على الشرك وكراهيتها للتحول عنه، بل وشهرة انزعاجها منها لأنها على الإسلام؟

وبماذا استفتت هذه المرأة المسلمة المراقبة لله عز وجل رسول الله ﷺ؟ لقد طلبت الفتيا في أمر يبدو لأول وهلة من الأمور الأسرية الخاصة ـ كما نقول اليوم ـ ولكن أسماء ذات النطاقين التي رافقت مرحلة البناء على طريقها الصاعدة الشائكة منذ الساعات الأولى للهجرة، تعلم حقَّ العلم أنه ليس من فرق في العمل بشرعة الإسلام بين أمور خاصة وأمور عامة، فالكل ـ على هذه الساحة سواء ـ والله تبارك وتعالى يقول في الأحزاب: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾ [الأحزاب: ٣٦] والأمر هنا في قوله تعالى: «أمراً» نكرة في سياق النفي تفيد العموم، فلا فرق بين مسألة خاصة ومسألة عامة.

ألا كم هو عظيم حقاً، ومجدٍ على طريق استئناف مسيرة الخير بجند الإيمان ذكوراً وإناثاً: أن تُنْهي الفتاة المسلمة مرحلة الإغراق عند البعض في التقليد الذي لا طائل تحته، ولا يجرُّ إلا إلى ذوبان الشخصية وإهدار الطاقات بما لا ينفع، ناهيك عن الوقوع أحياناً في المخالفة عن أحكام الإسلام وآدابه.

وكم هو رائع حقاً على طريق الشعور بالمسؤولية «**كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته**» أن يكون الرجال وقافين عند حدود الله في تعاملهم مع المرأة وان تتحول المرأة المسلمة عن الانشغال بما يلقى على طريقها من سفساسف القول عن الإسلام مما لا يمت إلى الحقيقة بصلة؛ لأن الإسلام يتعامل معها في ضوء الكتاب الكريم وسنة المصطفى ﷺ وسيرته على الوجه الأكمل الذي يحقق لها ما تقتضيه أنوثتها وما فطرها الله عليه، ويدفع بها إلى القيام برسالتها التي تتكامل كل التكامل مع رسالة الرجل، لأن النساء شقائق الرجال.

وإذا تحقق ذلك: أمكن لها أن تعود هي بنفسها إلى كلمة الإسلام في المرأة والرجل، ثم إلى ما تنطق به الوقائع في بيت النبي ﷺ وأصحابه ومن تبعهم بإحسان عبر التاريخ، وأن تتوجه شطر العمل في الميادين التي يحُقق العمل فيها رسالتها البناءة على الوجه الأكمل استجابة لخطاب التكليف ـ الذي تستوي فيه مع الرجل ـ وفق قدرتها وتكوينها كما خلقها الله.

وأيٌّ تكريم يساوي هذا التكريم الذي تطلع علينا به هذه الآية من سورة الأحزاب آنفاً ألا وهي قوله تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُّبِينًا** ﴿٣٦﴾﴾ [الأحزاب: ٣٦].

إنه تكريم بتحميل المسؤولية في بناء الحياة الإسلامية، وفق المنهج الرباني، إيماناً وعلماً وعملاً واستجابة لما تقتضي مقومات الحضارة الإنسانية أن يكون.

وإنما يُحَمَّلُ المسؤولية من كان أهلاً لتحمُّلها، وهذا يقتضي تربية متكاملة، وإعداداً يتفق مع تلك المسؤولية ويؤهل لها خير تأهيل.

فالمؤمن والمؤمنة كلٌّ حسب مؤهلاته وقدرته كما خلقه الله: مسؤول عن العمل بشريعة الله. وإحلالها محلَّها العمليَّ على صعيد الواقع في ميادين المجتمع وشؤون الحياة كافة.

والعدول عن ذلك معصية لله عز وجل وضلال مبين؛ فالمؤمن بوصفه مؤمناً مسؤول عن إنفاذ أوامر الله والرسول، وليس له خيرَة أن يقول ـ إذا قضى الله ورسوله أمراً ـ: أريد أو لا أريد، والمؤمنة بوصفها مؤمنة مسؤولةٌ على هذه الصفة كذلك.

وليس من شأن المؤمن ولا المؤمنة، بوصفهما ينتميان إلى عقيدة التوحيد: استبدال الضلالة بالهدى في ذات الضلالة والهدى، وفي كل ما يؤول إلى الضلالة، وما أكثر طرق الغواية التي تعترض سبيل المخلصين الصادقين!

ومن هنا كان الإعداد المتكامل للمرأة المسلمة وفق الشريعة التي كرَّمت المرأة وحمَّلتها من التبعات ما يتناسب مع تكوينها الذي شاءه العليم الحكيم قضيةً كبرى على طريق التربية والتزكية والتهيج لإعداد الأجيال، وهي قضية إذا أعطيت حقها من العناية، كانت ذخيرة من العطاء تسهم أيَّما إسهام في عملية التحويل المنشود في شتى الحقول والميادين.

وليس عزيزاً على الله أن يصل حبل الفتاة المسلمة اليوم بحبل ذات النطاقين، وسُميَّة، وعائشة وأم سلمة وأمثالهن ـ وهن كثيرات والحمد لله ـ ممن أسهمن في بناء حضارتنا المثلى، وصناعة تاريخنا العظيم.

القرابة.. ورحلة البناء

ذات النطاقين.. والوعي

«٢»

المنعطف الذي سبق أن حملنا إليه مسلك ذات النطاقين رضي الله عنها في وعيها الإيماني، وحرصها على أن تكون وقَّافة عند أمر الله ورسوله، وما لذلك من انعكاسات على بنية المجتمع في استكمال مقوماته، وعناصر وجوده المتميز، بوصفه المجتمع القدوة في الدولة الإسلامية التي شرع رسول الله ﷺ في بنائها منذ وطئت قدماه مهاجَره المدينة النبوية المنوَّرة.

هذا المنعطف: ينبغي ألاَّ يصرفنا عن أمر مهم وهو بيان أن أم أسماء التي ورد الحديث عنها هناك: هي قتيلة بنت عبد العزى بن سعد من بني مالك، وهي غير أم أختها عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها فتلك ـ أعني أم السيدة عائشة ـ هي: أم رومان، وكانت مسلمة مهاجرة رضي الله عنها، وأم أسماء غيرها.

هذه واحدة: وأما الثانية: فهي ما ينبغي من التنبُّه إلى ما سبق عند أحمد والطبري وابن أبي حاتم في شأن استفتاء أسماء في أمر صلة أمها المشركة قتيلة، وقول رسول الله ﷺ: «صلي أمك» وأنزل الله فيها: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩﴾﴾ [الممتحنة: ٨-٩].

والآيتان هما الثامنة والتاسعة من سورة «الممتحنة» وهي سورة مدنية، نظَّمت ـ علاقة المسلمين بقرابتهم من المشركين وأوضحت القاعدة في ذلك.

ولست الآن بسبيل التفصيل لمضمونات السورة ومكان ذلك من صيانة المجتمع المسلم عن عوامل التخلخل والفوضى، وربطه بمحور العقيدة؛ فقد تكون لنا عودة إلى ذلك إن شاء الله، ولكني بسبيل أن ألمح إلى أن المسافة الزمنية بين ما تنزل من القرآن في العهد المكي في شأن من الشؤون، وما تنزَّل منه في العهد المدني مما يتعلق بذلك: يزيد الناظرَ المتأملَ يقيناً بما ترمي إليه معالم الكتاب الكريم من تكامل البنية الواحدة في العهدين المكي والمدني، وبأن هذا القرآن ليس من كلام البشر، ولكنه كلام الحكيم العليم الخبير ـ جل شأنه ـ بما يصلح عباده.

وفي سورة العنكبوت ـ وهي سورة مكية ـ نقرأ قول الله تبارك وتعالى: ﴿ **وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ** ﴿٨﴾ ﴾ [العنكبوت: ٨].

ونقرأ في سورة لقمان ـ وهي سورة مكية أيضاً ـ قوله جلَّ وعز: ﴿**وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ** ﴿١٤﴾ **وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ** ﴿١٥﴾﴾ [لقمان: ١٤-١٥].

وتمضي السنون وتقدم قتيلةُ أم أسماءَ ذات النطاقين على بنتها المدينة بعد صلح الحديبية في السنة السادسة للهجرة راغبة في الصلة متوجسة من عكسها، ويحتاج الأمر إلى بيان، وتبدو الواقعة من بعض الوجوه صورة تطبيقية لما تنزَّل من القرآن في العهد المكي، ولكنها من جهة أخرى واقعة تتجاوز الواقع الأسري المحدود، إلى نطاق التعامل العام بين المؤمنين ـ وهم يبنون ـ رجالاً ونساءً ـ مجتمعهم المسلم في المدينة، محكِّمين في ذلك شرعة الحكيم الخبير وبين المشركين وفيهم من تربطهم بهم قرابة نسب.

وتجاوزت أسماء بإيمانها إلى رحب القضية الكبرى، قضية الإسلام، ولم تستسلم للعاطفة القريبة نحو أمها، الأمر الذي يدل على ما كان للتربية الإسلامية من أثر حتى على المشاعر والعواطف، حيث ارتقت بها هذه التربية التي زكت معها نفسها، وصفا أيّما صفاء قلبها: إلى حيث تكون طاعة الله ورسوله في الذروة من سلَّم الأولويات على ساحة الرغبات.

وكـان أن وجَّـه رسـول الله ﷺ في فـتـواه ـ وهو لا ينطق عـن الـهـوى ـ إلى أن وَصَلَ أمها في إطار التراحم والود، لا يتعارض مع العقيدة أيّما تعارض فقال لها: «نعم صلِي أمَّك».

وتنزلت الآيات المشار إليها في صدر هذا الحديث وهي قوله تعالى في سورة الممتحنة: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ﴾ الآيتان.

وكان ذلك من البشير النذير صلوات الله وسلامه عليه بياناً مشرقاً للقرآن الكريم على هذه الساحة، يعمل عمله الإنسانيَّ المؤثر على طريق البناء الحضاري الرباني الذي كان يقود حركته بجند الإيمان والإخلاص والوعي المتميِّز، وفيهم أسماء ذات النطاقين بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما وأرضاهما، والحمد لله على نعمة الإسلام وكفى بها من نعمة.

فقه العدل الإلهي.. والبناء الاجتماعي

أسماء.. الوعي

«٣»

حين نتدبر قصة أسماء رضي الله عنها مع أمها قتيلة، وما أفتى به رسول الله ﷺ في شأنها: يبدو لزاماً علينا أن نقف بتأمل عند الرواية الصحيحة الأخرى التي جرت الإشارة إليها في كلام سبق، لنرى كيف أن القرآن حدَّد للأمة ـ كما يعطي البيان النبوي ـ القاعدة التي يجب أن تحكم تعاملها مع الكفار على اختلاف مواقعهم من المسلمين؛ فخرج من الواقعة الفردية على ساحة التعامل مع الأقربين، إلى التقعيد الشامل الذي يتيح للأحكام أن تستجيب للوقائع الطارئة دون الجمود عند حدود الزمان والمكان وما إليهما..

ولا بدع؛ فالكتاب الكريم كلام الخالق الحكيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا﴾[النساء: ٨٢].

ذلكم ما أخرج أحمد والبخاري ومسلم عن أسماء رضي الله عنها قالت: «قدمت عليَّ أمي وهي مشركة في عهد رسول الله ﷺ، فاستفتيت رسول الله ﷺ قلت: قدمت عليَّ أمي وهي راغبة، أفأصل أمي؟ قال: نعم صلي أمك» وعند أحمد فأنزل الله فيها: ﴿لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ۝٨ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ۝٩﴾ [الممتحنة: ٨-٩].

هذه هي القاعدة النورانية التي أشرقت بها الآيتان الكريمتان في سورة الممتحنة: فالذين لم يقاتلوا المسلمين في الدين، ولم يُخرجوهم من ديارهم، ولم يظاهروا على إخراجهم: لا ينهى الله أهل الإيمان عن برِّهم والإقساط إليهم - أي العدل فيهم - كما في قوله تعالى: ﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨].

ولمزيد من الترغيب في ذلك ختمت الآية بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾؛ فالمسلم مطلوب منه شرعاً العدل حتى مع الكافر؛ تلكم شرعة الإسلام لا يعدو أمر على أمر آخر، فالكفر - على شناعته وعلى ما يصدر عن صاحبه تجاه المسلمين - ليس مسوغاً للجور بل العدل هو المطلوب.

لكن الذي تجدر الإشارة مرة بعد مرة إليه: أن الكفار في الأعم الأغلب - وهو واقعنا الجارح اليوم - يقلبون للمسلمين - مهما استمسكوا بمكارم الأخلاق - ظهر المجن، ولا يرقبون فيهم أيَّ معنًى من معاني الخير مهما دقَّ؛ فلا ترى إلا الأذى، وإيقاد نار الحرب في السر والعلن ضدّهم، وضدَّ كل ما هو من الإسلام بسبب؛ فاليوم ترى حرباً معلنة، وفي آخر تقع على مستخفية غيرها، حيث الوقاحة هناك، والماكر الماكر هنا، إنك لتبصر في تصرفاتهم ما يكاد يدل على أنه ليس لديهم في مواجهة المسلمين - على ضعف قدرة أهل الإسلام التنفيذية في العالم اليوم وهذا من أسباب شراسة العدو - إلا الدس والافتراء، والبهتان على الصعيدين العملي والفكري، ومظاهرة أعدائهم عليهم بشتى الوجوه والميادين.

وكم يبدو ضرورياً أن يَلحظ ذلك بعناية وتقدير للمواقف والظروف المحيطة: من يهتمون بأمر الأمة حقّاً وتؤرقهم همومها وما ينتابها من الكوارث المادية والمعنوية في الداخل والخارج: لما أن وجودهم الحقيقي على الصعيدين الإقليمي والدولي مرتبط بوجودها، ثقافةً، وتشريعاً، وقدرة على صنع القرار المتعلق بها، ومنطلقات حضاريةً، وقوة هي لغة التعامل اليوم - بعيداً عما هو حق وما هو باطل - عند الأقوياء في حالات السلم، فضلاً عن حالات الحرب أو مقاماتها، ناهيك عن نتائجها على ساحات تقرير المصير.

ونتجاوز إلى الآية الثانية لنراها تقرر أن الذين قاتلوا المسلمين في الدين وأخرجوهم من ديارهم وظاهروا بأي لون من ألوان المعاونة على إخراجهم: هم الذين ينهى الله المسلمين عن موالاتهم بالاطمئنان إليهم واتخاذهم أولياء ونصراء ومؤتمنين على الآراء والأسرار ـ الأمر الذي يشي بعدم جواز الركون إليهم والعياذ بالله ويأمر ـ بالتنبه الدائم، وأخذ الحذر منهم في كل مجال.

وقد جاء توكيد هذا النهي بالوعيد الشديد المنبئ أن موالاتهم ظلم وأن من يتولاهم محكومٌ عليه بأنه من الظالمين، كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ [المائدة: ٥١].

إن اتخاذ الوسائل التي تحمي البناء من السقوط، إنَّ اتخاذها بعناية وفق سنن الله ومعرفة بالواقع، مع اتخاذ الأسباب يحمل ـ على وجه اليقين ـ أهمية عملية البناء نفسها.

وفي كل يوم تطلع فيه الشمس، تصوَّب للمسلمين سهام الأعداء بألف وسيلة ووسيلة؛ يقطر منها الحقد على الإسلام نفسه، وعلى التاريخ الذي صنعه المسلمون بالإيمان والعلم والجهاد!!

وكم عند أعداء الله ورسوله من أحقاد، لكل نوع منها رائحته المؤذية وعفنه المدمِّر. والمهم بعد هذا كله أن يعيد أبناء الإسلام النظر في مقدار اعتصامهم بحبل الله على الوجه المطلوب، وأخذهم ـ وفق سنن الله ـ بالأسباب التي لا يجفوها الإسلام، ولا تعوزها معرفة الواقع ـ كما هو ـ ومراعاة التطور والمفاهيم والمصطلحات.

إن القوة بمعناها الأعم الأشمل وفق نصوص الهدى ومعطيات العصر: ضرورة لا يحيد عن القيام بها ـ قدر المستطاع ـ حسب الثغر الذي أقامه الله عليه، إلا من سفه نفسه وتنكَّر للدين والأمة والتاريخ.

رسالة المرأة في البناء

الإنسان والمسؤولية..خطاب التكليف والتحرير من مظالم الجاهليات

كانت رحلة طويلة ـ ليس المقام هنا مقام الكلام فيها ـ تلك التي كانت تتخبط فيها البشرية من جراء نظرتها إلى المرأة قبل الإسلام هنا وهناك، حتى بلغ هذا التخبط مبلغ تجريدها في كثير من بقاع العالم من بعض خصائصها الإنسانية، فضلاً عن الاستهانة بما لها من حقوق!! وما أمرها في الجزيرة العربية حيث التناقض في التعامل مع الأنثى، صعوداً ونزولاً ـ كما لا يخفى ـ إلا صورة من صور الغَبَش الذي كان يلمُّ بالتقويم وإصدار الأحكام على هذه الأنثى شطر بني آدم الذين قال الله فيهم ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴿٧٠﴾﴾ [الإسراء: ٧٠] أقول هذا لأن التعبير بـ«بني آدم» جاء على التغليب كما هو الشأن في معهودات العرب في الخطاب، وقد جاء القرآن بلسان عربي مبين على تلك المعهودات في الخطاب.

وليس من مكرور القول أن يذكِّرنا ذلك: أن المرأة والرجل يرتدان إلى أصل واحد في أصل الخلق كالذي نرى في قوله تعالى في سورة النساء ـ أول آية فيها ـ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ﴿١﴾﴾[النساء: ١].

والذي يستوقف المتأمل، ويكشف عن بعض من ملامح المنهج الرباني في بناء الفرد المراد أن يكون لبنة صالحة في المجتمع ـ ذكراً كانَ هذا الفرد أو أنثى ـ ما دلت عليه معالم الكتاب العزيز، وبيانها من السُّنة المطهَّرة، من التكاملية الشاملة

في تكوين الإنسان المسلم على قاعدة من الإيمان، ووحدة خطاب التكليف للرجل والمرأة، ونشدان العمل الصالح، والشعور بالمسؤولية: تكويناً يرتفع بكلٍ من المسلم والمسلمة إلى مستوى الإحساس الصادق أن كلاً منهما مسؤول ـ حسب تكوينه الخِلقي ـ عن تحقيق هدف أسمى، وأداء تسعد الإنسان ـ أن لو اخذ نفسه بتعاليمها ـ في الدنيا والآخرة، وهذا الإحساس الإنساني الكريم، بديهي أن يتنامى مع مخالطة الإيمان بشاشةَ القلوب!

يضاف إلى ذلك: ما دلت عليه تلك المعالم أيضاً من النظرة التكاملية الشاملة في صياغة المجتمع، الذي يأخذ فيه كلٌّ من الرجل والمرأة بُعده الطبيعي دونما وكس ولا شطط؛ الأمر الذي يضمن سلامة البناء الاجتماعي في خلاياه كافة، ويفسح المجال للطاقاتِ الفاعلة في شتى النواحي الاجتماعية والاقتصادية والفكرية، أن تأخذ طريقها إلى الوجود المثمر حسب الكفاءة والتخصص في الميدان المناسب.

وما على الأمة إلا أن تأتمن على هذا كله من يحسنون الفهم، ولا تعوزهم القدرة على الممارسة والتنفيذ، وأن تتيح لهم الفرصَ للقيام بهذه المهمة على أكمل وجه.

وهكذا يجد المتبصِّر في هداية الكتاب العزيز وبيانه من السنة النبوية: أن الإسلام وضع المرأة بعد رحلة التيه التي استدامت حقباً طويلة قبل تنزل الرسالة من السماء، ودون فترة انتقال كما يقال.. وضع المرأة موضعها اللائق بكرامة الإنسان الذي خلقه الله في أحسن تقويم، وأودع فيه أهلية العطاء، فخوطبت بمضمونات الرسالة الإسلامية كما خوطب الرجل، سواء في ذلك خطاب العقيدة والشريعة والأخلاق والسلوك، وكل ما هو من ذلك كله بسبب!!

وليس من التعجّل ـ فيما احسب ـ التذكير ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ بقوله تعالى في سورة التوبة: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ

سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾ [التوبة: ٧١-٧٢].

ولا يخفى أن ما كان بينهما ـ أعني الرجل المرأة المكلَّفين ـ من فوارقَ في بعض الأحكام: إنما مردُّه اختلاف طبيعة التكوين الخِلقي، وما أودع الله بحكمته البالغة في كل من الذكر والأنثى من أهلية تتوافق كل التوافق مع ما هو مراد له قطعاً على ساحة الوجود الأمثل للنوع البشري، وتراها ـ بعد هذا ـ على منتهى التساوق مع ما أنيط بكل منهما في ظل الرسالة الخاتمة، بحيث يتجلى التكامل بين الرجل والمرأة في أداء الرسالة، لما أن النساء شقائق الرجال.

وأنت واجد ـ كما سيأتي بالقدر الذي يتسع له المقام إن شاء الله ـ أن النصوص تدل بوضوح على أن كلاً من الرجل والمرأة بناءً على وحدة خطاب التكليف بمضمونات الرسالة: يحصد ثمرة عمله ومسعاه يوم الحساب،إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، والله لا يضيع عمل عامل من العباد ذكورهم وإناثهم كما جاء في سورة آل عمران ـ ونظائر ذلك كثير ـ: **﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ﴾** [آل عمران: ١٩٥].

وعلى هذا: فالإسلام ليس هو المسؤول عما يقع في بعض المجتمعات من تعسُّف أو جور مردُّهما الجهل أو ضعف الوازع الديني. ولكن المسؤول هو من يمارس الانحراف بعيداً عن شرعة الإسلام في ذاك الأمر أو غيره. والتغييرُ إلى الأفضل ـ على صعوبته ـ مطالب به الرجل والمرأة جميعاً ـ مع التيسير وإزالة العوائق من قِبَلِ أصحاب القرار ـ طاعةً لله عز وجل.

وإذا كان من الخير اليوم ـ وكلَّ يوم ـ أن ترد الفتاة المسلمة حياض دعوة الله المباركة وفاءً بعهده سبحانه ـ بوصفها مسلمة ـ وإسهاماً في تكامل البنية والانتفاع بالطاقات كافة كما أراد الإسلام: فلتكن هذه الغاية أوفر حظاً في التربية والتزكية، والتعليم والإعلام، كيما تسلم للأسرة والمجتمع طاقات النمو

والفاعلية على النهج الرشيد الذي تهدف إليه رسالة البناء الهادية، في مراقبة لله عز وجل في الظاهر والباطن، وحرص على تجويد العمل وطهارة السلوك تقرباً إليه سبحانه ومنه التوفيق.

المرأة.. مكانها الطبيعي من البناء

وسورة غافر

«١»

كانت لنا في عهد قريب، حيث الرحلة مع بعضٍ من معالمِ الكتاب العزيز: إشارة عجلى أن النصوص تدل بوضوح على أن كلا من الرجل والمرأة في نظر الإسلام يحصد ثمرة عمله ومسعاه إن خيراً فخير وإن شراً فشر، وذلك بناءً على أن كليهما قد وُجه إليه خطابُ التكليف بمضمونات رسالة الإسلام، مع الفوارق في بعض الأحكام نتيجة التكوين الذي أعدّ الله كلاً منهما عليه، وهي لمحةٌ من لمحات الإعجاز حيث كان التكوين متناسباً كلَّ التناسب مع ما يشاء الله تعالى من حكمة الخلق، ذكراً كانَ المخلوق أو أنثى، في شمول للجن والإنس جميعاً، مضافاً إلى ذلك ما هو من حكمة الله البالغةٍ أيضاً في طبع الذكر والأنثى على ما به يتحقق وجود جنس الإنسان على الأرض.

ففي سورة غافر ـ أو سورة المؤمن، وهي سورة مكية ـ بعد أن عرضت الآيات لجحود فرعون واستكباره والتوافق على الأذى بينه وبين هامان.. نقرأ في هذه السورة بدءاً من الآية الثامنة والثلاثين على لسان مؤمن آل فرعون: ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴿٣٩﴾﴾ [غافر: ٣٨-٣٩].

وفي كشف عما بين رسالة السماء وبين من هم في سن التكليف من بني الإنسان ذكورهم وإناثهم من ارتباط مردُّه إلى الفطرة، أهلية التكليف: نقرأ بعد ذلك مباشرة قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾﴾ [غافر: ٤٠].

إن تشابُك الثقافات وتنوّع الأفكار المستوردة، وما قد يبدو من جهل المسلمين أو بعضهم بأحكام الإسلام، أو إعلان الحربِ عليها من ذوي الجهالة أو مرضى القلوب: ينبغي أن لا يصرفنا عن هذه الحقيقة التي يشرق بها هذا المعلم القرآني ونحن نتطلع إلى الذاتية في البناء، واستئناف في صياغة المجتمع المسلم على الصورة المتميزة التي يرضاها ربنا تبارك وتعالى، والتي آتت أكلها من قبلُ إسعاداً للفرد والجماعة قروناً متطاولة في ظل الأخذ بشريعة الإسلام وتربية الإنسان المسلم عليها.

ويقيني أنه لا تثريب علينا إن نحن اتجهنا إلى أنه ليس من التكلُّف في شيء: تقرير أن الطرحَ ـ طرح مقولة الجزاء الحسن لمن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن ـ: في أعقاب ما جاء من بيان، أن من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها، ضمن آيات تتناول ما كان من الصراع بين الحق والباطل في قصة موسى عليه السلام وفرعون، وما كان لمؤمن آل فرعون ـ وهو يذود عن كلمة الحق ـ من تلك الوقفة الصامدة الواعية ـ أن هذا الطرح ـ طرح هذه المقولة ضمن هذه الآيات في سورة مكية يعني تذكير المسلمين ـ وهم يبنون بقيادة النبي عليه الصلاة والسلام الحياة في ظل عقيد التوحيد: تذكيرهم من أول الطريق حيث يصطرعون مع الشرك وأهله، ومع رواسب الجاهلية التي وضعت ـ في عديد من الأحوال ـ الأمور في غير مواضعها على ساحة العلاقة بين المرأة والرجل ودور المرأة الفاعل في بناء الأسرة والمجتمع: تذكير المسلمين بأن للمرأة مكانها الطبيعي الواضح في حمل أعباء الرسالة التي يتحركون تحت رايتها، ويعانون ما يعانون في ميدان نصرتها والذود عنها، وذلك في خاصة نفسها، وفي أسرتها، وفي المجتمع نفسه.

وإذن: فلا بد من العناية بتوجيهها وجهة الإيمان والعمل الصالح، علماً بأن دائرة العمل الصالح سواء بالنسبة للرجل أو بالنسبة للمرأة أوسع وأشمل مما يتصوره كثيرون.

فالعمل الصالح مُناخه الملائم ـ مع العبادات التوقيفية الخاصة: ـ كل حركة من حركات الجوارح يتحركها المؤمن أو المؤمنة مع النية الصالحة على ساحة الحياة بتعدد شعبها وميادينها، ما دام القلب مستشعراً حلاوة الإيمان ومخافة الله واليوم الآخر.

أو ليس هذا هو الخطوة الصحيحة في طريق الحرص على تحقيق ما تصبو إليه الأمة من تجنيد الطاقات كلها في معركة تحقيق الذات.

لقد نقل الإسلام المرأة من ظلمات الجاهليات المتعددة حيث الجمود والجحود، والإمكانات المهدرة.. نقلها دونما فجوة أو استرخاء إلى نور الإسلام، حيث الرسالة الهادية التي تدفعها والرجل إلى ساحات البناء الأقوم والنماء المتصل. ومن الخير استذكار أن ما سعدنا باصطحابه من مقوله العهد المكي في هذا الشأن نقع في الكتاب والسنة على ما يدل على استمراريته على أكمل وجه: من ذلك قولهُ تعالى في سورة النساء ـ وهي سورة مدنية ـ: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾﴾ [النساء: ١٢٣] تلا ذلك قولهُ سبحانه ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾﴾ [النساء: ١٢٤].

تقويم المراحل... على صعيد المسؤولية

وتحقيق الذات... المرأة والبناء

وسورة غافر

«٢»

ما يزال الحديث موصولاً برحلتنا العجلى مع آيات سورة المؤمن التي قادنا المعلم القرآني من خلالها إلى الأهمية البالغة التي يتسم بها طرح «أن الجزاء من جنس العمل، وأن المثوبة بدخول الجنة والرزق فيها بغير حساب كائنة لمن يعمل الأعمال الصالحة، وهو مؤمن، ذكراً كان أو أنثى؛ فالمثوبة ليست قصراً على ذكور العبادِ دونَ إناثهم ولكنها جزاء من يعمل الصالحات، دونما تفريق بين قبيل وآخر».

وعلى هذا: فالكل مدعو ـ رجلاً كان أو امرأة ـ أن يتحرى طريق الاستقامة، ويأتي صالح العمل ـ على سعة أبعاده وشموله ـ وهو يسهم وفق أهليته وما لديه من طاقات في إدارة حركة الحياة.

وتزداد أهمية هذا الطرح ـ كما أسلفنا ـ إذا كنا على ذكر لما حصل لموسى عليه السلام مع فرعون وملئه، وما أعطى القرآن من تلك القيمة الكبرى لصنع مؤمن آل فرعون وموقفه الإيماني الشجاع الحكيم، حتى إن السورة المذكورة فيها الآيات: كان من بعض أسمائها أنها سورة «المؤمن» وهو هذا الرجل العظيم الذي لم تَثنه ظلمات الكفر عند فرعون وملئِهِ أن يرفع عقيرته بالإيمان في بحران الصراع المرير بين الحق والباطل يومذاك.

والحق أن أمتنا ـ وهي تعيش واقعاً له وعليه، والأخير أكثر، وترى هذا الواقع يحمل بصمات التخلف عن حقيقة الإسلام تصوراً وعملاً في العديد من النواحي والمجالات، خصوصاً عند أهل الحيرة الضائعين بين التمرد على الماضي باسم العقلانية وزعم حرية الرأي، وبين تقليد الآخرين دون تبصُّر أو بعد نظر.. إلى كون هذا الواقع تحاصره تحديات فكرية وحضارية، وعدوان متعدد الألوان تحت عناوين مصطلحات بادية للعيان حيناً، ومستترة ماكرة حيناً آخر...

الحق أن الأمة ـ وهي تئن تحت سلطان هذا الواقع الذي لا تغبط عليه ـ مدعوة أكثر من أي وقت مضى، إلى أن تنفض بعزيمة إيمانية، واعتزاز بقيمها وتاريخها: غبار التخلف، وتعود إلى منبع القوة، قوةِ الاعتصام بحبل الله المتين، فتتجهَ بشجاعة إلى تقويم كل مرحلة من المراحل على أرض الواقع في ضوء العطاء القرآني الذي أنشأ أمة الإسلام وبه كانت خير أمة أخرجت للناس، وبيانه من السنة المطهرة، والسيرة الفذَّة ـ على ساحة التطبيق العملي، كيما تمارس عملية التغيير إلى ما هو أفضل ـ مع الأخذ بالأسباب ـ على نور وهدى.

وفي عود على بدء: ما بدٌّ من التذكير بأن المقولة التي جرت الإشارة إليها في صدر هذا الحديث، تلك التي أشرقت بها آيات بيّناتٌ من سورة «المؤمن» أو «غافر»: جزء من المنهج الرباني الذي قاد الأمة إلى ميادين العمل الصالح المجدي والبناء المكين، ونمّى في حسِّ المسلم الذي ندب لذلك ـ رجلاً كان أو امرأة ـ: شعوراً صادقاً بمسؤوليةٍ عمادُها وضع قيم الرسالة موضع التطبيق في النفس أولاً، ثم في الجماعة والمجتمع، الأمر الذي لا بد منه لحشد الإمكانات المعنوية والمادية طاعة لله تعالى، والإفادة من كل واحدة من الطاقات بشريةً كانت أو اقتصادية أو علمية وما إلى ذلك!

من هنا كان مما يزيد المرء يقيناً بحكمة الله البالغة ما جرى عليه القرآن الكريم من خطاب الرجل والمرأة جميعاً بمضمونات رسالة الإسلام، وان يتحمَّل كلٌّ مسؤولية عمله ومسعاه، ويُجزى على ذلك الجزاء الأوفى ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزَىٰ إِلاَّ مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝٤٠﴾ [غافر: ٤٠].

ولسوف نجد في الآيات التي تلت هذه الآية في سورة المؤمن ما يزيد القضية وضوحاً؛ فالمعلم القرآني يهدي إلى أن الآيات تضع الإنسان المسلم المكلّف ـ ذكراً كان أو أنثى ـ في حومة الصراع بين الحق والباطل؛ فهو المستهدف الأول لشراسة الباطل وأهله. وفي الوقت نفسه: لا بد من أن يعمل الإيمان عمله على ساحة العمل والجهاد؛ فبعد الآية السابقة: نقرأ قول الله تعالى على لسان مؤمن فرعون: ﴿وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٤٤﴾﴾ [غافر: ٤١-٤٤].

وبعد: فهل عليَّ من جناح ـ والأمر كذلك ـ إذا أنا دعوت فتياتنا المسلمات المتطلعات إلى مستقبل للأمة خيرٍ من واقعها: أن يتبصرن في تلكم الآيات من سورة المؤمن ونظائرها في الكتاب الكريم، وأن تزيد كلٌّ واحدةٍ منهن من صلتها بالقرآن، وهذا بعض مما توجبه مسؤولية المرأة النابعة من طبيعة رسالة الإسلام الخالدة؟!.

مرة أخرى.. مع صعيد المسؤولة وتحقيق الذات المرأة.. والبناء سورة غافر والنحل «٣»

سبحان الله ما أعظم ما يقع عليه المرء في كتاب الله من أحكام هي الخير كل الخير للعباد، ومن ذلك ما يرى في قضية موقع المرأة على ساحة المشاركة الفعالة للرجل في تحقيق ما تحمله رسالة السماء من الهداية للعباد والأخذ بأيديهم إلى ما فيه السعادة في عاجلهم وآجلهم على حد سواء.

أقول هذا وأنا بسبيل نقلة تتصل بما هدانا إليه المعلم القرآني من مقولةٍ يشرق بها قوله تعالى في سورة «المؤمن» ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾... الآية ودلالةِ هذه المقولة على مكانة الإنسان ذكراً كان أو أنثى على ساحة يشتد فيها الصراع بين الحق والباطل، وبين ما هو صالح وما هو فاسد في حركة البناء، على وجه الشمول للفرد والمجتمع.

والنقلة التي أعنيها قوامها توجه إلى آيات من سورة النحل هي من نظائر ما كنا بصدده في سورة «المؤمن».

ها نحن أولاء، نقرأ في هذه السورة المباركة بدءاً من الآية الرابعة والتسعين قوله جل وعلا: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [النحل: ٩٤-٩٦].

ثم تلا هذه التوجيهاتِ التي تصون الفرد والجماعة عن الأذى، وترقى بالمسلم إلى أن يتحرك بمزيد من القوة، والتفاؤل بالخير في المجتمع ضمن إطار خُلُقي يمليه الوازع الداخلي، لما أنه يرتبط أوثق الارتباط بالإيمان بالله واليوم الآخر... علماً بان هذا كله كانَ في العهد المكي حيث الصراع الدامي بين التوحيد والوثنية، وبين فضائل الإسلام الداعية إلى التحوّل إلى ما هو الأفضل، بين مثالب الجاهلية.

تلا هذه التوجيهات التي تقوم بدور التكوين والإعداد لبناء المجتمع المسلم وتنمية طاقات الجماعة، كيما تكون كفاءَ المعركة: قولُه تبارك وتعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل: ٩٧].

﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ [غافر: ٤٠] فالمطلوب إذن أن ينطلق العمل الصالح من قاعدة الإيمان. وهذا ما تريده الدعوة من أتباعها: إيمانٌ وعمل صالح دونما ركون إلى شيء من أوضار الجاهلية أو نظر إلى كون هذا المؤمن الذي عمل صالحاً ذكراً أو أنثى؛ لأن كُلاً مشمولون بخطاب التكليف.

والتزامُ حدود الشريعة في كتاب الله وسنة رسوله: هو الذي يضمن صلاح العمل، وما يترتب عليه من خيري الدنيا والآخرة، لا كون القائم به من هذا الجنس أو ذاك!

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل: ٩٧] نعم؛ إنها الحياة الطيبة بإكرام الله؛ طمأنينةً بالقيام بالتكاليف وراحة نفسية بالتسليم لما قدَّر الله وقضى، وتفاؤلاً يبعث على متابعة الإسهام بحركة الحياة بعزيمة وجدٍ. ثم الجزاءَ الموفور يوم القيامة الذي هو صورة عن فضل الله وإنعامه على عباده الصالحين.

وإذا كان الأمر كذلك: فمن الخطوات الإيجابية على طريق الرغبة في الانتفاع بحقائق القرآن وثوابته على ساحة التوجه إلى استئناف مسيرة الخير في ضوء القيم الإسلامية التي وضعت المرأة والرجل كلاً منهما في موقعه الصحيح: أن نكون على تصور واعٍ لطبيعة الصراع في العهد المكي بخاصة وفي تلك الحقبة على الصعيد العالمي بعامة، والثغرات التي كانت تلم بالمجتمعات، ومنها الوضع السيء الذي كانت عليه المرأة في الأعم الأغلب في نظرة المجتمع إلى الأنثى، أو في ساحة التعامل معها والسلوك!! هذا بالإضافة إلى ما يمكن أن تقدمه المرأة المعدَّة إعداداً سليماً قوياً على ساحة التربية والتحويل.

أقول: حين نكون على الجادة في هذا التصور: ندرك موقعَ الآية الكريمة في سورة النحل، وما رأينا من نظائرها، ومجيءَ هذه الآية عقب الذي رأيناه من قريب: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزَىٰ إِلاَّ مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ [غافر: ٤٠]

أو ليس هذا هو الذي نبتغيه لإحكام بنية الإنسان والمجتمع! حياة طيبة في الدنيا، وأجر بأحسن ما يعمل العاملون في الآخرة؟

إنها المقولة الثابتة المباركة التي تفصح عن قاعدة لا تتخلف ثمراتها على مختلف الأصعدة للفرد والجماعة في كل عصر وفي كل مكان.

وهنيئاً للعاملين المخلصين الصابرين ما يظفرون به من حسن العاقبة الناطق به قوله تعالى ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [النحل: ٩٦].

المرأة.. ورسالة البناء
وقبس آخر من سورتي المؤمن والنحل
«٤»

في رحلة مباركة عبر التكافؤ الذي تعطيه معالم القرآن بين عملية البناء الكبرى في المجتمع، وبين تجنيد الطاقات لهذا البناء ترجمانِ الهداية في المجتمع، وتنمية القدرة على العطاء من خلال ذلك.. في هذه الرحلة المباركة كانت لنا ـ ونحن نصطحب معالم الكتاب العزيز، وقفة عجلى مع قوله تعالى في سورة «المؤمن»: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزَىٰ إِلاَّ مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾﴾ [غافر: ٤٠].

كما كانت لنا وقفة أخرى مثل تلك مع قوله جل شانه في سورة النحل، ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل: ٩٧].

وفي واحدة من قبسات المعلم القرآني لكل آية وما سبقها ـ على القرب ـ ثم ما تلاها بعد: آنسْنا تلك الأبعادَ العميقةَ التي يدركها القارئُ المتدبِّر المدرك لدلالة كلٍ من السياق والسباق ـ كما يقول أهل العلم ـ في سورة المؤمن، وكونها جاءت ضمن مجموعة من الآيات التي تتحدث عن الصراع بين الحق الذي قوامه التوحيدُ وحريةُ الإنسان، والباطلِ القائم على تأليه فرعون ونفاق ملئه، مضموماً إلى ذلك كله، الأنموذج الرائع للمؤمن الذي لا تقعده عن مرضاة الله رغبةٌ ولا رهبةٌ، في موقف من سماه القرآن «مؤمن آل فرعون» حيث كان هذا المؤمن مثلاً يحتذى على ساحة القيام بالواجب ابتغاء مرضاة الله، مهما اشتد عسف الظالمين العتاة.

وأنت ترى أن واحداً من الأبعاد التي نلمح إليها: يكمُن في هذا الوضوح الذي تطلع علينا به الآية المشارُ إليها من سورة المؤمن.. إنه الوضوح في أن الجزاء مرتبط بالعمل، دونما نظر إلى جنس القائم بالواجب؛ فكل من الرجل والمرأة مخاطب بالتكليف؛ ولأن المهم تحقيق الواجب من قبل المكلف ذكراً كان أو أنثى. ويسير هذا على أدق وأسلم المعايير المتصورة: فالرجل لا يُقبَلُ عملُهُ ويكافأ عليه لأنه رجلٌ، والمرأة لا يردُّ عملها وتحرم من جزائه لأنها امرأة؛ فلكلٍ منهما حقوق، وعليه واجبات؛ وذلك ما تجلَّى في كلام الله الذي أنزل الحق والميزان، حيث الاهتمام بتقويم العمل ليس أكثر! ولا يدخل في هذا التقويم كونُ القائم بهذا العمل رجلاً أو امرأة؛ إذ العمل الصالح: هو القائم على قاعدة إيمانية تجمع الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، مضافاً إلى ذلك صوابه وكفى، وقبوله منوط بالإخلاص فيه؛ فإذا توافر للعمل صلاحه: عومل صاحبه بالفضل الإلهي مضاعفة للأجر، وإذا كان غير صالح، عومل صاحبه بالعدل فلا يجزى إلا بالمثل، وذلك من عظيم عفو الله ولطفه بعباده.

وفي ذلك كله ما فيه من تنمية الإقبال على الله أكثر وأكثر عند صالحي الأعمال، وتذكير غير الموفقين بأن يتوبوا ويرجعوا عن غيهم: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزَىٰ إِلاَّ مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾﴾ [غافر: ٤٠].

ففي الوقت الذي ينال فيه من عمل الصالحات من ذكر أو أنثى الحظ الوافر والخيرَ العميمَ، جناتِ عدنٍ ورزقاً بغير حساب؛ نجد أن مَنْ عَمِلَ السيئة لا يُجزى إلا مثلها.

ألا ما أسعد أولئك الموفقين الذين يتعرضون لنفحات الله بصدق الإيمان وصالح العمل!!

وما أغلى ما يثمر ذلك للأمة من نتائج لا يستهان بها على صعيد الأفراد والجماعات إذا وعى كلٌّ من الرجل والمرأة حقيقة ما دل عليه المعلم القرآني فكان الإيمان الراسخ، والعمل يسعد به الفردُ والمجتمع.

وسبحان من أنزل هذا القرآن على عبده محمد عليه الصلاة والسلام ولم يجعل له عوجاً، وهو المحمود على كل حال.

المرأة.. وتنمية القدرة الذاتية للأمة نقلة التحوُّل والبناء

«١»

في حومة الصراع بين الحق والباطل في شتى الميادين، وما يجب على كل مكلف من المؤمنين والمؤمنات أن يدور مع الحق حيث دار، لا يصرفه عن ذلك رغب ولا رهب: يستذكر النابهون في الأمة، أولئك الذين خالطت بشاشة الإيمان قلوبهم: ضرورة استنفاد الأسباب التي تمكن للحق ـ بعون الله ـ أن ينتصر، ولا يبرحون سنن الله في ذلك..

ومن تلك الأسباب: العمل على إعادة الطاقات المعطَّلة، أو الموضوعة في غير مكانها الملائم، بعوامل الجهل، أو الظلم ـ وما أعتاه في هذا الباب ـ أو الإهمال، وما يتصل بذلك من سبب... على إعادتها إلى السنن الطبيعي كيما تعطيَ عطاءها كاملاً غير منقوص، وكيما تنمو تلك الطاقات بما قد يصحبها من مختلف التخصصات، وتتعاظم ـ بفعل الأيدي القوية الأمينة ـ وتكوِّن الروافد الحقيقية لرحلة الأمة على طريقِ ما هي بأمس الحاجة إليه، من استئنافٍ لأحكام البناء على قواعد الرسالة ولتسيير النماء في قنواته المثمرة المنتجة التي تضمن مضاعفته واستمراره في كل زاوية من زوايا الحياة ـ خصوصاً ما يمليه التطور الطبيعي في العلم والمفاهيم ـ وعبر كل ميدان من الميادين؛ كل أولئك في تنسيق منهجي يراعي سلَّم الاهتمامات والأولويات، فيضع الأمور مواضعها، ويوظف الامكانات على طريق العطاء الذي يحول دون التناقص أو الفوضى.

ومن ذلك رد الأمور إلى نصابها ـ كما آذنت شرعة الحكيم الخبير ـ في شأن المرأة المسلمة ودورها في المجتمع بناءً وإنماءً وسداً للضرورات والحاجات، وما أكثرها في حياة الأمم والشعوب!

من هنا كان لا بد ــ من أجل التقويم الصحيح ــ: أن تكون صورة ما كانت عليه المرأة قبل الإسلام ماثلة للأذهان، حين نقرأ ـ على سبيل المثال ـ في سور «المؤمن» و«النحل» و«النساء» و«آل عمران» وغيرها: ما يوحي بالقاعدة النورانية التي ينطق بها قول الله جل ثناؤه: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزَىٰ إِلاَّ مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝٤٠﴾ [غافر: ٤٠] الأمر الذي يشعر بتصحيح المسار في نور الإسلام، ووضع الأسس لمنهج يهدف إلى التغيير إلى ما هو أفضل في شأن المرأة والكشف عن موقعها الطبيعي في الوجود الإنساني.

وليس من مكرور القول التذكير بأن جملة من الطاقات الفاعلة في المجتمع، كانت قبل عصر التنزيل معطّلةً، أو موضوعة في غير موضعها الصحيح ـ وبخاصة على صعيد المواقع لكل من المرأة والرجل ـ بل إن فاعليات الجاهلية كثيراً ما كانت توجه بعض الطاقات والإمكانات لتكون مصدراً للأذى، على صعيد الأخلاق والعلاقات الخاصة في الأسرة والمجتمع.

وكم تبدو نقلة التحوُّل عظيمة في هذا الجو الموبوءة بعضُ جوانبه بأسقام الجاهلية، حيث ترى تقدير المرأة على صعيد الأدب ــ مثلاً ــ فتكون حكماً بين الشعراء كما ترى فُشُوَّ الأنسابِ إلى الأم. وفي الوقت نفسه ترى ظُلامة الوأد وما يداخل الرجل من الأسى إذا رزق ببنت، فوجهه مسود وهو كظيم، إلى آخر ما أخبر عنه القرآن في ذلك. وترى حقَّ الرجل في نكاح المقت الذي هو زواجه بامرأة أبيه إن أراد، أو عضلها عن الزواج ـ إن لم يردها ـ إلا إذا أرضته على الشكل الذي يبتغيه؛ وغير هذا كثير، الأمر الذي يصوِّر فوضى الفكر وتناقض الجاهلية الصارخ!!

فإذا توجهت نحو الأمم الأخرى وقعت على ما هو أسوأ من ذلك بكثير، وحسبك أنَّ بعض الشعوب كانت لا تقرُّ إنسانية المرأة، ولذلك من المساوئ ما الله به عليم.

أجل كانت النقلة العظيمة في تاريخ بني الإنسان، يوم أعلنت عقيدة التوحيد إعلانها، باقتحام الوثنية ومواقعها، وأبعادها في الجاهلية وذيولها، وكما عملت على محاربتها واستئصالها من داخل النفوس، والجدية في القضاء على كل ما هو من انعكاساتها وآثارها، والتهيج للحيلولة دون تجدُّد ذلك في الفكر والعلاقات الاجتماعية بين الناس... كما عملت عملها على هذه الساحة: راحت تكشف ـ من خلال الهدي القرآني وبيانه من السنة النبوية ـ عن النظرة الواقعية إلى المرأة في ذلك المنهج الرباني، منهج الله الذي خلق فسوَّى وقدَّر فهدى، والذي خلق الإنسان في أحسن تقويم ـ وذكَّر عباده بأن المرأة والرجل يرتدَّان إلى أصل واحد في الخلق كما شاء هو سبحانه؛ كالذي نرى في فاتحة سورة النساء من قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ۝١﴾ [النساء: ١].

وتمتد اليد الحانية إلى تلكم الطاقات المعطَّلة أو الموضوعة في غير موضعها، أو المسخَّرة لغير ما خلقت له.. فتهدي إلى ما هو الصواب في شأنها، وترتفع بها إلى المستوى اللائق المتسق مع الفطرة والأهلية كما شاء الله لها أن تكون.

وكان ذلك يعني أن تأخذ المرأة موقعها على ساحة البناء الشامل المحكَم الذي أراده الإسلام، وذلك بإنشاء واقع جديد في مواجهة الهدم والهدامين، الأمر الذي أنقذ المرأة مما هي فيه، وحال دونها ودون أن تكون متاعاً للعبث بإنسانية الإنسان، ومصدراً من مصادر الأذى على صعيدي الأسرة والمجتمع..

وليس ذلك فحسب، بل شرَّفها بالمسؤولية التي تشعر بأهميتها على ساحة التغيير، وبناء الواقع الجديد المشرق بعقيدة التوحيد، والحفاظ على إنسانية الإنسان وحريته وكرامته، وتوجيهه إلى حيث السعادة الغامرة ـ أن لو استجاب لدعوة الحياة ـ في الدنيا والآخرة أجمعين.

﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزَىٰ إِلاَّ مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ ﴾ [غافر: ٤٠].

وهكذا تتنزّل هذه الكلمات الهاديات ونظائرها على النبي الأمي رسول الله عليه الصلاة والسلام، وأحوال المرأة ـ بنتاً كانت أو زوجة، أو أماً ... ـ محكومة بموروثات الجاهلية في عديد من الحالات؛ فلا هي تتمتع بما أعطاها الله من حقوق هي أهل لها حسب الخلق والتكوين ـ بوصفها مخلوقة هي والرجل من نفس واحدة ـ ولا هي قادرة إلا في القليل النادر ـ على الإسهام في نماء الأسرة على الوجه الذي يسهم في إنقاذ المجتمع مما هو فيه من عسف أبله وجهالة رعناء، وينقذها من أن تكون سلعة للمساومة في سوق الفوضى والانحراف عند كثير من الشعوب!!

فهل من المغالاة في شيء، تقرير أن كل انحراف بالمرأة عن منهج الله ــ مهما كان شأن هذا الانحراف ـ إساءة بالغة إليها وإلى المجتمع والأمة، وتعطيل لطاقة فاعلة أن تعمل عملها وفق المنهج الرباني الحكيم ـ والله أعلم بما يصلح عباده ـ وتسهم في تنمية القدرة الذاتية للأمة دون تناقض أو توجهات تغيّب فيها المسؤولية أمام الله ثم التاريخ، وتحكمها الأهواء والنزوات ـ ناهيك عن الغرور وفارغ الدعاوى ـ.

وصدق ربنا جلَّ جلاله إذ يقول: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

المرأة.. وتنمية القدرة الذاتية للأمة
نقلة التحوُّل ـ والبناء
«٢»

جرت الإشارة فيما سلف من القول إلى ضرورة أن تكون صورة ما كانت عليه المرأة قبل الإسلام، ماثلة في الأذهان عند النظرة المتدبرة فيما جاء في قوله تعالى في الآية الأربعين من سورة «المؤمن» ـ أو غافر ـ: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزَىٰ إِلاَّ مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝٤٠﴾ [غافر: ٤٠] وفي نظائرها من آي الكتاب العزيز؛ كالذي نرى في سورة آل عمران والنساء والتوبة والنحل والأحزاب وغيرها.

وعندما أشرت إلى ذلك: لم أكن أعني ضرورة استذكار وقائع محشوة في ذهن التاريخ امتحاناً للمعلومات، وكفى..

ولكن كنت أعني تمثُّل الحقيقة من خلال الارتباط الزمني والواقعي بين ما كانت عليه الجاهلية بمختلف ألوانها وأماكنها في هذا الباب، وبين الذي جاء به القرآن الكريم في العهد المكي، حيث معركة التحويل اعتقاداً وفكراً وسلوكاً، يرتاد ميادينها فئة قليلة مؤمنة، وحيث رَسْمُ المعالم الكبرى لما يجب أن يكون عليه بناءُ الإنسان في عقيدته وتصوراته واهتماماته ـ كما آذنت بذلك الهداية الربانية ـ وبناءُ المجتمع في العهد المدني على السنن المتسق مع الدعوة الجديدة، وهو المجتمع القدوة الناشئ في أعقاب الجاهلية المُزاحة، والقائمةُ قواعده على بنى الأفراد المؤهلين على السنن الذي أسلفت.

والبناء المومى إليه لم يكن الاتجاهُ إلى تحقيقه قصراً على جزيرة العرب فحسب، ولكن في العالم كله؛ ذلك بأن الرسالة الخاتمة التي جاء بها ـ من عند ربه ـ محمد عليه الصلاة والسلام: هي للناس أجمعين: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً﴾ [سبأ: ٢٨] ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩].

ولعلنا نرتحل مع كل جزئية من الجزئيات ذات العلاقة بما كانت عليه الحال في الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والثقافية وغيرها بعامة، ومع الأسس التي كان يقوم عليها تكوين الأسرة يومذاك بخاصة.. لعلنا نرتحل مع تلك الجزئيات، وإن لم يكن: فمع الكليات والخطوط العامة التي كانت مقبولة لدى الرأي العام في تلك الحقب.. لنواجه الكلمة الهادية في آي الفرقان الحكيم، بزادٍ من المعرفة بالمناخ الذي تنزلت فيه آيات سورة المؤمن ونظائرها، وبالتناسب بين الواقع ومنهج التحويل الذي آذنت به رسالة الهدى والخير فيه، كيما تكون الوجهة وجهة بناء وإنماء يقوم بهما صفاء القلب المشرق بالإيمان، وقوة الساعد الذي يأوي صاحبه إلى ركن شديد بقوة الحق، بعد أن شابت مع هذا الواقع سنون من الهدم والفوضى، ووضع الأمور على النقيض من محورها الذي تنتمي إليه.

ومن ذلك ـ بل في مقدمة ذلك ـ ما كانت عليه المرأة ـ إلا في النادر من الوقائع والأحوال ـ والخسارة التي كانت تلم بالمجتمع من جراء ذلك شاهد صدق على ما نقول.

أرأيت؟ ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ [النحل: ٩٧] الرجل والمرأة كلاهما ـ على اختلاف كلٍ منهما عن الآخر ببعض الأحكام ـ موضوعان في الآية الكريمة على طريق التحويل، وساحات التغيير، إلى ما هو الأجدى للفرد والجماعة، والأعون على الخير في الدنيا وسلامة العاقبة في الآخرة.

وما دام العمل يرتقع إلى مستوى الصلاح: فهو عمل مقبول مجزيٌّ عند الله الذي لا يضيع عنده مثقال ذرة أحسن الجزاء.

لقد كان ذلك ـ على وجه اليقين ـ يوم أشرقت شمس الإسلام على الدنيا، دعوةً إلى العمل البناء ـ طاعة لله ـ في دنيا الفرد والجماعة، موجهةً إلى الرجل المؤمن والمرأة المؤمنة كليهما ضمن ظروف هي من الشدة بمكان، وكانت المسيرة التي صنعت ـ بعون الله ـ الحضارة المثلى للإنسان.

وهي اليوم دعوة إلى استئناف هذا الانطلاق الخيِّر موجهة شأن ما سبق إلى الرجل المؤمن والمرأة المؤمنة كليهما.

وحين يتحول ذلك إلى حركة متوازنة لا إفراط فيها ولا تفريط، نجدها على ساحة التنهيج وفي ميادين العمل والتنفيذ.. حين يحصل هذا ـ بعون الله ـ نكون مع الخطوة الجادة على المحجة التي ترك الأمةَ عليها رسولُ الله عليه الصلاة والسلام، تلك المحجة البيضاء النقية، التي ليلها كنهارها، ولا يزيغ عنها إلا هالك!!.

الرجل والمرأة.. والبناء
تنمية الطاقات

ما وقفنا عليه المعلم القرآني فيما خلا من الحديث عن عطاء القرآن في شأن المرأة وموقعها في كيان الجماعة والمجتمع، وما شرَّفها الله به من المسؤولية ـ حسب تكوينها ـ على قدم المساواة مع الرجل: يشدنا إلى نظرة متأملة في البعد التكاملي لكون الآيات الكريمات في سور المؤمن والنحل والنساء وغيرها ذات العلاقة بالجمع بين الذكر والأنثى على ساحة المسؤولية، وما لكل عند الله في الآخرة من مثوبة على العمل الصالح، وعقوبة على غيره.. لكونها تأتي ضمن مجموعة من الآيات ترمي إلى تحقيق الهدف الكبير في تحقيق العبودية لله، ونفي الخبث الذي يعترض ذلك، سواء من داخل النفس أو خارجها؛ كالذي رأينا في تلك الطائفة من الآيات التي هدت إلى شدِّ أزر المؤمنين توعية وإثارة للعزيمة الإيمانية بما عرضت من قصة موسى عليه السلام بقدر من الإيجاز مع فرعون وملئه، وما كشفت عنه من موقع الثبات على العقيدة وأهميته البالغة في الصدع بالحق. وحسن التأني في معالجة الأمور عند المواجهة في ظل عملية التغيير في بنية الإنسان الفكرية وتصوراته ومعتقده، وفي بنية المجتمع، كيما يتحوَّل إلى ما هو الحق عقيدةً واستقامة على أمر الله، مهما تفاقمت شراسة الباطل، وامتلأت طريق المؤمنين والمؤمنات بالمصاعب والعقبات.

والنظرة المتأملة التي نشير إليها: ضرورة ملحة في دنيا أمتنا وهي على مفترق الطرق في كثير من شؤونها وتطلعاتها، ولا يعوزها ـ مع المعرفة الدقيقة بالواقع ـ إلا منهجية سليمة في تبين الطريق، وعزيمة صادقة مصحوبةً بالأخذ على أن تدور مع القرآن وهديه حيث دار.

أرأيت إلى ما جاء في سورة النحل من قوله تعالى كما رأينا من قبل: ﴿ **مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴿٩٦﴾ **مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴿٩٧﴾ ﴾ [النحل: ٩٦ ـ ٩٧] ثم أرأيت إلى ما جاء في سورة المؤمن كما رأينا أيضاً ـ من قوله سبحانه: ﴿ **مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزَىٰ إِلاَّ مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ** ﴿٤٠﴾ ﴾ [غافر: ٤٠].

هذه الآيات الكريمات التي نشهد من خلالها وضع الرجل والمرأة على طريق المسؤولية، وأن الجزاء حاصل عند الله الذي يجزي كلاً بما عمل متفضلاً بما لا يزيد عن المثلية في السيئة، ومتفضلاً أيضاً بمضاعفة الأجر والمثوبة على الحسنة في عمل، الصالحات..

هذه الآيات ـ بما سبقها وما تلاها ـ: تدل الناظر المتبصِّر المتدبر على أن وجهة الإسلام في عملية البناء الكبرى التي هي قديمة جديدة أبداً، بدءاً من بناء الإنسان ذكراً أو أنثى بناءً يليق بفطرته وأهليته وما يراد له أن يكون في ظل الرسالة التي يحمل رايتها في مواجهة الباطل، وانتهاءً ببناء المجتمع الذي ما بدَّ من أن تتوافر له كل المقومات الثقافية والاجتماعية والاقتصادية وغيرها.. أجل تدل على أن هذه العملية الكبرى قد روعي فيها كِفاء التحويل إلى ما هو أفضل في ميزان الحق والتمكين في الدنيا والسعادة في الآخرة: الرجلُ والمرأة جميعاً في بناء متكامل يضع كل لبنة موضعها، وينمي الكفايات والإمكانات التي تغني حوافز الحركة الدائبة بدافع من العقيدة ومراقبة الله تعالى الذي يعلم السرَّ وأخفى، والامتثال لأمره والاجتناب لنهيه في كل صغيرة وكبيرة، ظاهراً وباطناً.

ولقد نحسن صنعاً إذا وضعنا في الحسبان الآيات التي أوردناها هنا من سورة غافر والتي عرضت لقصة موسى مع فرعون وملئه، وجاءت على ذكر مؤمن آل فرعون بين يدي قوله تعالى: ﴿ **مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزَىٰ إِلاَّ مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ** ﴿٤٠﴾ ﴾ [غافر: ٤٠].

هذه الآيات جاءت في أعقاب التنديد بانحراف القبيل الفرعوني ومؤيديه عن جادة الحق، فكراً وسلوكاً مع مخالفيهم، والوعيد بأن يحلَّ بهم ما حلَّ بمن قبلهم من أهل الضلالة والفساد؛ الأمر الذي يجعل العبرة بوقائع هذه القصة التي جرت: أكثر وضوحاً لأولي الألباب، ويزيد من أهمية أن تأخذ المرأة المسلمة مكانها الطبيعي المتسق مع التكوين الخلقي والفطرة، وأهلية العطاء على ساحة البناء بشعبه ومختلف صوره هنا وهناك.

ذلكم قول الله تعالى بدءاً من الآية الثلاثين: ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾﴾ [غافر: ٣٠-٣٥].

ولنا عودة إلى مزيد من اصطحاب هذا المعلم القرآني عسانا نشهد معها جانباً آخر من عطائه على صعيد التبصُّر في طاقات المجتمع ووضعها موضع التقدم الشامل والازدهار المبرء من الجاهلية والشوائب.

ولم لا؟ والقرآن ـ وهو كلام الله الذي أنزله بالحق وبالحق نزل ـ لا يأتيه الباطل من بين ولا من خلفه، ولا تنقضي عجائبه ولا يخلق على كثرة الرد؟!

النظر إلى كفايات المجتمع.. مسؤولية المرأة.. وتكامل البناء وسورة المؤمن

إن ما ينشده أهل الريادة، والمصلحون الذين تؤرقهم هموم الأمة: من العمل الإيجابي المثمر على خط البناء المتكامل الذي لا يعوزه الانتماء في أصوله إلى مفهومات الرسالة الخاتمة، ولا قطيعة بينه وبين الواقع وحسن التأني في مواجهته، وتنمية الكفايات وجوانب العطاء كافة في المجتمع.

إن ما ينشده هؤلاء الأخيار الأطهار من أبناء الأمة، يقتضي الأمة أن تكون مع معالم الكتاب العزيز، فيما رسمت للإنسان ـ من حيث هو إنسان بصرف النظر عن كونه من الذكور أو الإناث ـ ومما رسمته هذه المعالم للإنسان المكلَّف: ما وجهت إليه من كون شرف المسؤولية ليس قصراً على الرجل ـ بوصفه رجلاً ـ ولكنه شرف للمكلَّف الحائز على أهلية التكليف، بصرف النظر عن كونه ذكراً أو أنثى.

وهذا يعيدنا من جديد إلى المعلم القرآني الذي أشرقت به آيات من سور آل عمران، والنساء، والنحل، والمؤمن ـ غافر ـ وغيرها، مما أسعدنا إيراده فيما سبق من القول من قريب.

ولنقف وقفة أخرى مع بعض من آيات سور المؤمن حيث نقع على قول الله جل ذكره في ثلاث منها: ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾﴾ [غافر: ٣٨ ـ ٤٠].

وأغلب الظن أنه لا جناح علينا في توكيد ما قلناه من قبل من أن ما يعطيه قول الله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزَىٰ إِلاَّ مِثْلَهَا﴾ [غافر: ٤٠]، وقد تنزلت مع أخواتها في العهد المكي، والصراع بالغ مداه بين الحق ودعوته البانية، وبين الباطل وما يستمسك به أهله من موروثات الجاهلية وعوامل الهدام: يصحبه بُعدٌ تكامليٌّ ناشئ من كون الآية وما يكتنفها سياقاً وسباقاً فيما سبقها وفيما تلاها: صورة من صور قصة الصداع بين موسى عليه السلام وبين فرعون وملئه، وما كان من الموقف الذي أملاه على التاريخ مؤمن آل فرعون..

وإنما كان ذلك: لأن هذا الاقتران يدل ـ بلا مراء ـ على طبيعة المهمة التي ترشّح لها المرأة حين يبنيها الإسلام على العقيدة وتخالط قلبها بشاشة الإيمان، مخالطة تثمر ـ فيما تثمر ـ الإذعان لحق كلمة التوحيد الطيبة «لا إله إلا الله محمد رسول الله»، وفي الوقت نفسه: لا تفتأ الكلمات الهاديات في الكتاب والسنة توجهها وجهة الخير والعطاء، مراعىً في ذلك: ما فطرت عليه، وما أودع الله فيها من طاقات؛ الأمر الذي يجعلها ممن يعملون الصالحات في كل ميدان تندب إليه وتحمل المسؤولية فيه حسب الأهلية والتكوين!!

وهل يخفى أن العمل القائم على قاعدة إيمانية راسخة: عنوان القوة المشرق على كل حركة مدروسة مسؤولة، سواء أكانت تتعلق بالفرد وتعامله مع العباد ورب العباد، أم بالأسرة بوصفها اللبنة الأولى من لبنات المجتمع، أو بالمجتمع نفسه، ثم بالأمة؟

وبعد فقد كانت لنا من قبل وقفاتٌ أذكرتنا ونحن نستوحي عطاء المعلم القرآني على هذه الساحة: ما سبقت به قصة موسى عليه السلام مع فرعون وملئه من آيات كشفت عما كان عليه بنو إسرائيل، وتندّدت بصنيعهم مع رسل الله، والحق الذي يدعون إليه، مصحوباً ذلك بالوعيد الذي تضمنه تخوّف مؤمن آل فرعون أن يصيبهم ما أصاب أهل الغواية ممن سبقهم، وأن يكون مردُّهم يوم القيامة إلى ما يؤول إليه أمر الكافرين الظالمين.

وكان من هذه الآيات قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولاً كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾﴾ [غافر: ٣٤-٣٥].

هكذا جاء الكلام في القرآن على مسؤولية الإنسان في الإيمان ونصرة الحق.. بوصفه إنساناً مكلفاً بصرف النظر عن كونه رجلاً أو امرأة ـ في معرض الإيذان بواحدة من الحقائق الكبرى على صعيد المواجهة بين الوثنية والجاهليين، وبين التوحيد وبين الفئة القليلة المؤمنة، ومكة وما حولها تموج واقعياً بأشكال من الصراع بين جاهلية بدّدت الطاقات، وجعلت الإنسان على حال من الجفوة لما خلقه الله من أجله، وبين دعوة خيرة، حملتها كلمات السماء إلى الأرض، تسلك لتصحيح المسار سبله الطبيعية، بدءاً من داخل الإنسان، والحيلولة دون عقله ودون العوائق التي تعطّله أو تجعله يسير على غير هدى.

وبعد: فالملاحظ أنه تلا الآيات التي نحن بصددها ما يزيد الوضوح في طبيعة الصراع المومى إليه؛ ذلكم قول الله جلَّ ذكره: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿٣٧﴾﴾[غافر: ٣٦-٣٧].

ولعلي لا أعدو الحقيقة بحال: إذا أنا قلت: إن هذا التذكير ـ جملة وتفصيلاً ـ كان عوناً لأهل الحق، ذكورهم وإناثهم، شبابهم وشيوخهم: على أن يجتمعوا بقلوبهم وعقولهم على نصرة الحق الذي به يؤمنون، وأن يحملوا مسؤولية البناء التي حُمِّلوها، ابتغاء مرضاة الله، وكانوا بذلك خير قدوة في بناءِ حضارتنا المثلى في تاريخ بني الإنسان.

والكل اليوم مدعوون إلى استئناف الطريق؛ ووضعِ مقومات الوجود الذاتي موضعها المنتج إيماناً وعملاً صالحاً ـ بمفهوم هذا العمل الشامل ـ وجهاداً في سبيل الله.

مسؤولية البناء المبكرة.. وتكريم المرأة بها التكامل.. والتوجه الحضاري

أن ترتفع هداية القرآن والسنة بالمرأة إلى مستوى المسؤولية والجزاء، وأن تؤذن الأمة بذلك في معرض الحديث عن جانب من جوانب الصراع بين الحق القائم على عقيدة التوحيد التي هي المصباح الهادي إلى تحقيق عبودية الله في الأرض، وبين الباطل المتمثل في ادعاء الألوهية في مكان، أو الإشراك بالله واتخاذ الأنداد له في مكان، وذلك في قرون خلت قبل الإسلام؛ كالذي أخبر القرآن عنه الحق المتمثل في دعوة موسى عليه السلام إلى توحيد الله الواحد القهار، وإفراده سبحانه بالعبودية، والإعراض كلياً عما يدعيه فرعون من أنه الإله الذي يجب على الناس أن يعبدوه، والباطل الذي كان عنوانه ضلال فرعون هذا بدعوته الناس إلى اتخاذه إلهاً من دونِ الخالق القادر سبحانه وتعالى، واتباعُ ملئه له في ذلك، حيث استخفهم فأطاعوه، كل أولئك مع الحديث عن مؤمن آل فرعون: إيمانه، وثباته، وصدق لهجته في دعوته، وانتصار الله له من زمرة الكفر والضلال ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزَىٰ إِلاَّ مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝٤٠﴾ [غافر: ٤٠].

أن ترفع هداية القرآن ـ والآيات تعرض لهذا الذي حصل قبل قرون ـ إلى هذا المستوى ـ والجاهلية الجهلاء في جزيرة الجُهَلاءِ في جزيرة العرب بخاصة وفي العالم بعامة ـ تضرب هنا وهناك.. أمر عظيم جدٌّ عظيم، يدل ـ فيما يدلُّ ـ على أن هذا الكتاب العزيز من عند الله وليس من كلام البشر؛ فالله تعالى هو الخالق، وهو العليم ـ جل شأنه ـ بمن خلق ﴿أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ۝١٤﴾ [الملك: ١٤].

خلق الله الذكر والأنثى من نفس واحدة، وأودع فيهما أهلية أن يخاطب كل منهما بالتكليف. لذا كان كلاهما مسؤولاً في حدود تكوينه وما أعدَّه الله له، ويلتقيان عند نقطة التكامل في حمل هذه الرسالة التي جرى بشأنها الخطاب؛ عقيدةً وشريعةً وأخلاقاً واعتباراً بالماضي... وغير ذلك. وعمدة ذلك أن يكون كل من المسلم والمسلمة من المتقين، وأول مراتب التقوى الإيمان!

والجزاء عنده سبحانه من جنس العمل للجميع ذكوراً وإناثاً، فلا تفريق بين جنس وآخر؛ إن خيراً فخير، وإن شراً فشر. ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ۝١﴾ [النساء: ١] وأكرمْ بهذا التوجه الحضاري من توجه، على صعيد البناء ومن يحمل رسالة البناء.

ومن هنا كان الذي ينبغي عدم تجاوزه إلى غيره دون وقفة تأمل: هو تقرير مبدأ المسؤولية والجزاء ـ دون تخصيص الذكر بذلك دون الأنثى ـ في عهد الدعوة المبكر العهدِ المكي؛ فسورة المؤمن التي أسعدنا اصطحاب بعض آيها من عهد قريب: سورة تنزلت ـ ورحى الحرب دائرة على أشد ما يكون بين الفئة القليلة المؤمنة وبين أهل الشرك والوثنية، وقيادة المجتمع بيد زعماء الجاهلية، وليس لأهل التوحيد بقيادة النبي ﷺ شيء من الأمر في شؤون هذا المجتمع؛ غير أن الصراع قائم يومذاك ومحورهُ العمل على هدم الوثنية واقتلاع جذورها وبواعثها من النفوس، وعلى إقامةِ بناءٍ سداه ولحمته توحيد الخالق جل وعلا، وعنوان ذلك الكلمة الطيبة «لا إله إلا الله محمد رسول الله».

وإذن: فلحكمة بالغة لله جلّ شأنه: كان تقرير هذه المسؤولية المومى إليها في هذا الوقت المبكر، كيما يكون ذلك ـ والله أعلم ـ من الثوابت التي كان يتربى عليها أبناء الفئة القليلة المؤمنة، الذين يجري إعدادهم لحمل الأمانة في بناء المجتمع الجديد الأمثل ـ وكان ذلك بمشيئة الله في المدينة ـ وإنشاء واقع جديد مبراٍ من المظالم الاجتماعية، يحال دونه ودونَ أن تنحسر المرأة عن أن يكون لها دور فعّالٌ في ذينك البناء والإنشاء تقوم به في ضوء أحكام الشريعة طاعةً لله عز وجل.

وهكذا صَحَتِ الإنسانية بعد طول سبات على صوت الحق في بطحاء مكة يؤذن بفجر جديد؟ ذلكم قول الله تبارك وتعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزَىٰ إِلاَّ مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾﴾ [غافر: ٤٠] ونظائر ذلك كثير.

وإذا كان الأمر كذلك: فمن الواضح أن أهمية بناء الإنسان ـ ذكراً كان أو أنثى ـ على تلك العقيدة النيِّرة السمحة: كانت وراء تقرير هذا المبدأ، مبدأِ المسؤولية والجزاء يخاطب به الرجل والمرأة على حد سواء، كلٌّ في حدود أهليته وإمكاناته بجانب المحور المشترك الذي يلتقيان عليه استجابة لخطاب التكليف ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ [غافر: ٤٠].

إنه لأمر جَلَلٌ في حسبان الحضارة ووجود الإنسان وجوداً يتسق مع قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [التين: ٤] عند أولئك الذين يعقلون عن الله ما أراد.

أو لا يرى الذين يحلو لهم التجنِّي على الإسلام ـ جهلاً أو تجاهلاً ـ أن معالم الكتاب العزيز، قد صحبت المرأة من أول الطريق في العهد المكي، فارتفعت بها من حمأة الوثنية، وحمتها من أوضار الجاهلية التي ذاقت من ويلاتها الصاب والعلقم، بل أشركتها في المسؤولية والجزاء.

بل وأعدتها مع الرجل مرحلة بعد مرحلة، للإسهام في مسؤولية البناء الذي يشمل الفرد والأسرة والمجتمع، المجتمع الذي تولى رسول الله ﷺ بعد الهجرة قيادته في مهاجره عليه الصلاة والسلام.

وما أوفر النصوص، وأكثر الوقائع التي تدل دلالة لا ينكرها، إلا مكابر، على ما أسهمت به المرأة المسلمة وتسهم في بناء ذاك المجتمع، وما تلاه عبر عصور التاريخ، ولا عبرة لما يكون من بعض الأخطاء التي قد تقع هنا وهناك؛ فالقضية الكبرى مصونة والحمد لله.

مع سورة النحل.. ومسؤولية المرأة في البناء
المحور الإيماني
«١»

الوقفة المتأملة التي جرتِ الإشارة فيما أسلفنا إلى أنه ينبغي أن تكون، تدبراً لحقيقة أن الحديث عن كون المرأة شقيقة الرجل في المسؤولية والجزاء عند الله تعالى: جاء مبكراً في القرآن الكريم على طريق الدعوة الإسلامية؛ إذ كان ذلك في العهد المكي، كما رأينا في سورة «المؤمن» التي هي سورة مكية تنزلت على رسول الله ﷺ قبل الهجرة إلى المدنية المنورة.

وقد أشرقت هذه السورة بحقيقة أن المولى تبارك وتعالى يريد من عباده العمل الصالح الذي يقوم على الإيمان، ولكلٍ جزاؤه بما عمل ذكراً كان أو أنثى، وهو جزاء يؤذن بفضل الله على الذين يعملون الصالحات ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزَىٰ إِلاَّ مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾﴾ [غافر: ٤٠].

هذه الوقفة المشار إليها: يؤكد ضرورتها في ظل ما يجب من فقه الدعوة ومراحل مضموناتها في البناء الشامل للفرد والجماعة: ما نجد في سورة مكية أخرى هي سورة «النحل» كما أشرنا إلى بعض من آيها ونحن نصحب آيات سورة المؤمن على هذه الساحة المباركة.

ذلكم قول الله جل ثناؤه في الآية السابعة والتسعين منها: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل: ٩٧].

والذي يحسن التنبه إليه أن هذه السورة التي بلغت آياتها ثمانيَ آيات ومئة وعشرين: والتي اشتملت على إعلان مساواة المرأة بالرجل في أمر المسؤولية والجزاء. قد زخرت بكثيرٍ طيبٍ نافعٍ على سلَّم الهداية الربانية ـ والقرآن كلُّه هدىً ونفعٌ ورحمة ـ من إقامة الأدلة على وجود الله عز وجل، بدءاً من القدرة على الخلق والإيجاد، وتوجيه العقول والقلوب إلى العبرة والنظر المتدبر في سنن الله في الكون والخليقة عموماً، وما جرى للسابقين في شتى الظروف والأحوال، وبخاصة على ساحة الاستجابة لدعوة الرسل أو عدمها.

هذا إلى محاجَّة المشركين في دعاواهم الباطلة، وتذكيرهم بقدرته الفاذَّة سبحانه وتعالى، ومن مظاهرها ما أنعم به على العباد من نعم لا تعد ولا تحصى ومنها «النحل» والإعجاز في الإيحاء إليها ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [النحل: ٦٨].

ولا بد من الإشارة إلى ما كان من الكشف عن عوار ما أصاب المجتمع الجاهلي من أذى تلكم الجاهلية الذي بلغ مبلغ خشية الأب أن يجلّله العار بسبب الأنثى تلدها زوجه؛ وينعكس هذا الشعور الداخلي على قسمات وجهه؛ فهل يمسك هذه الأنثى.. وهي بنته وفلذة كبده ـ على هون أم يدسها في التراب؟ ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [النحل: ٥٨ ـ ٥٩].

ويستوقفك في آيات السورة المباركة: كثرة ضرب الأمثال كيما يكون ذلك عوناً للعباد على الفهم وسلامة الإدراك، مقروناً ذلك بتوجيه العقول إلى النظر والتدبر، ثم التفكر الجادِّ بأمور الآخرة.

ناهيك عن الأمر بالتخلُّق بأخلاق أهل الإيمان، وذكر بعض المحرمات، والإلماح إلى عظيم قدر إبراهيم عليه السلام، وأنه كان أمةً قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين.

وناسب ذلك الكلامُ على واحدة من نقائص بني إسرائيل، وختمت السورة بقوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ [النحل: ١٢٥].

وبعد: فقد جاء قول الله جل ثناؤه: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل: ٩٧]. بعد ست وتسعين آية من السورة، وجاء من بعدها إحدى وثلاثون آية.

وإذا وفقنا للتبصر في الواقع من خلال الهداية ـ وهي المقصد الأسنى لكتاب الله ـ تشرق بها معالم الكتاب من كلام الله عز وجل: وجدنا أنه لا بد من الاقتناع الذاتي بأن المحور الذي رسمه القرآن لتحرك الرجل والمرأة وفي إطار تحمل المسؤولية في الأسرة والمجتمع: هو المحور الذي ينبغي أن يكون عليه مدار هذا التحرك في ميادين الحياة ـ كلٌّ بما يتفق مع تكوينه وأهليته ـ وأن ذلك من مقتضيات الإيمان!

فالقضية ـ بما هي عليه من عِظَمٍ ـ مرتبطة بالعقيدة أيَّما ارتباط، والأهداف المبتغاة في تحقيق بناء الإنسان القادر على الإسهام الفعَّال في إحكام بناء المجتمع، وإماطة الأذى عن طريق الأمة.. هذه الأهداف لا بد لإبرازها إلى حيز الوجود على الوجه الذي ينبغي: من نظرة صحيحة محيطة عند التخطيط والتنفيذ إلى تلك الحقائق التي طرحها القرآن عن الإنسان، والمبدأ الذي هدى إليه بشأن الرجل والمرأة على صعيد المسؤولية والجزاء.

كل أولئك من أجل أن يسير البناء سيراً لا يعوزه التكامل والسداد، وتصحبه تنمية البواعث الهادفة عند من ندبوا أنفسهم لعمل الصالحات من الذكور والإناث، في ظل العقيدة وما جاء به المنهج الرباني، والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

المرأة بين الأصالة والتبعية

على طريق البناء.. وعودة إلى سورة النحل

«٢»

ما نزال نُغِذُّ السير في رحلة مباركة ـ على وجازة القول فيما نريد ـ مع قول الله تعالى في الآية السابعة والتسعين من سورة «النحل»: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [النحل: ٩٧].

والعهد قريب بلمحات سريعة جرى فيها استعراض رؤوس الموضوعات التي اشتملت عليها هذه السورة المكية التي بلغ عدد آيها ثمانيَ آيات ومئة وعشرين، من أجل تبيُّن ما لموقع الآية الكريمة المشار إليها في موضوعها وما تدل عليه ضمن تلكم الآيات التي تشتمل على ما أشير إليه من قضايا كبار.

فكون السورة تشرق بهذا العدد الضخم من القضايا في العهد المكي فيما قبل الآية السابعة والتسعين وما بعدها: أمر يدل على تلك الأهمية التي ما بدٌّ من التنبيه عليها.

ذلكم بأن المخلوق المخاطب بهذا المحتوى البالغ الأهمية والشمول: هو الإنسان، وتجيء الآية المعنيَّة لتؤكد هذه الحقيقة، حقيقة أن الإنسان هو المحور في ذلك: لأنه هو المؤهَّل لخطاب التكليف كما شاء الله الذي خلق فسوَّى والذي قدَّر فهدى، ولتؤكد ـ في الوقت نفسه ـ حقيقة أخرى هي أن المعنيَّ بالإنسان: الجنسان الذكر والأنثى جميعاً.

وجاء التعبير عن ذلك واضحاً بيناً لا يحتمل أثارة من لبس أو إبهام ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل: ٩٧].

ولمزيد من البيان كم أتمنى لو يتدبره أولئك الذين يفكرون وأولئك اللواتي يفكرن بعقول الآخرين: أشير إلى أن كلمة ﴿مَّنْ﴾ هنا تفيد العموم، وهي شرطية، وجاء الجواب مقترناً بالفاء حيث ترتب على الشرط الذي هو ﴿عَمِلَ صَالِحًا﴾ الجواب الذي هو ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وهذا الوعد الله من تبارك وتعالى، ومن أصدق من الله قيلاً؟؟

وإذن: فالحياة الطيبة التي قوامها الطمأنينة والراحة والتفاؤل، وانشراح الصدر وانعتاقه من الحجر، والبعد عما يسبب الكبت والاكتئاب والتشاؤم، والأجر العظيم المجزيُّ به، وقِوامه أن يجزى هؤلاء بأحسنِ ما كانوا يعملون: كل أولئك أمران عظيمان مترتبان على العمل الصالح، وهو العمل المنوَّر باتباع الكتاب والسنة اتباعاً قائماً على قاعدة إيمانية راسخة.

ومن البلاغة المعجزة في أسلوب الكتاب المعجز: أنه لإيضاح تلك الحقيقة حقيقة أن المبشَّرين بذلك الخير العظيم هم الذكور والإناث جميعاً المعنيون بقوله تعالى: ﴿عَمِلَ صَالِحًا﴾ جاء البيان في قوله ﴿مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ بكلمة «مِن» البيانية التي قررت تلك الحقيقة وأكدتها على خير وجه وأكمله.

إن الالتزام بما جاءت به السورة من ألوان الهداية التي اتسمت بما اتسمت به، من سعة التذكير والشمول، والوقوف عند حدود الله عقيدةً وعملاً وسلوكاً يأخذ الفردُ به نفسه، فيما بينه وبين الله تعالى توحيداً وعبادة وشكراً لنعمائه الظاهرة والباطنة، وفي تعامله مع العباد انضباطاً بكل ما هو من الاستقامة بسبب؛ كل ذلك حين يكون على هدي الكتاب والسنة ـ كما أسلفنا ـ معدود في العمل الصالح، وهو مطلوب من كل من الرجل والمرأة على حد سواء، ولا يتعارض مع انفراد كلٍ منهما ببعض الأحكام التي اقتضتها حكمة الله البالغة في الأهلية والتكوين كما جرت الإشارة غير مرة!!

وحين نتدبر الواقع الملمَّ بالمسلمين في أصقاع الأرض: نجد أن ذلك بعض ما ينبغي اليوم استئنافهُ لبناءٍ محكَم متكامل تشرق عليه ـ بحق ـ شمس الإسلام.

ومن المهمات في ذلك: أن تعي المرأة المسلمة الأبعاد العظيمة لخطاب التكليف الذي وجه إلى الرجل والمرأة جميعاً في الكتاب والسنة، كما وعت ذلك المرأة المسلمة من قبل، وازدان التاريخ بالوقائع التي أثمرها الوعي الملتزم في كل جانب من جوانب الحياة.

وكم هو جميل حقاً أن يتنبه المؤتمنون على التخطيط والتنفيذ في حقول التربية والتعليم، والتزكية والتثقيف: إلى ما تهدي إليه آفاق المعالم القرآنية في هذا الأمر الجلل بالغ التأثير في حياة الأسرة والمجتمع والأمة.

الأمر الذي يجعلنا مع الأصالة والذاتية، بعيدين عن التبعية التي ما جنينا منها إلا الشوك المؤذي، وعن الزهو بترديد ما يقوله الآخرون الذين تختلف مفاهيمهم عن مفاهيمنا، وقيمهم عن قيمنا، والقواعد التي ينبغي أن يقوم عليها الاجتماع، عن قواعدنا في موقع كل من الرجل والمرأة.. نعم وعن الزهو بترديد ما يقوله هؤلاء في المرأة في ميادين البناء في حياة الأمة، وما يمكن أن تسهم به في إطار التنمية للكفاءات والمؤهلات، كيما تستأنف الأمة دورها الطليعي في العالمين. على نور من هدي رسالتها الخالدة، وثوابتها التي من ضعف الإيمان بمكان: تجاوزُها في القليل فضلا عن الكثير!!

المرأة.. ومسؤولية البناء المشتركة
الحكمة البالغة.. وسورة النحل
«٣»

ما وقفنا عليه المعلم القرآني ونحن نصطحب الآية السابعة والتسعين من سورة النحل المكية ودلالتها اليقينية على اشتراك الرجل والمرأة في المسؤولية والجزاء: تأخذ بنا إلى التذكير مرة أخرى بموقع تلكم الكلمات الهاديات وهي قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ من ذلك العدد الكبير المبارك من آي السورة المذكورة، والذي تناول كثيراً من الموضوعات والقضايا الكبار في العهد المكي، حيث كان ذلك بالإشارة المعبِّرة حيناً، وبالإجمال أو التفصيل حيناً آخر، ناهيك عن القضايا والمسائل المتعلقة بتلك الموضوعات، وما ينبغي للعباد أن يكونوا عليه من إيمان صادق، وعبادة لله لا لغيره، وشكر له سبحانه على ما أسبغ عليهم من نعمة الظاهرة والباطنة.

وانت واجد أن الآية المذكورة، فيما هي عليه من موقع ضمن أخواتها الأخريات: تأخذ أهميتها البالغة من طبيعة تلك الموضوعات في تنوعها وشمولها تذكيراً باليوم الآخر، والنعم والثوابت المرتبطة بالإيمان، وأمراً ونهياً، وكل ما هو من ذلك كله بسبيل؛ كما في توكيد أن الأرزاق والآجال بيد الله، وأن على الإنسان أن لا يغفل عن مخافة الله واليوم الآخر بحال، وأن يكون من أهل العدل والإحسان والوفاء ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

ولعل من المفيد في هذا الباب: أن ننظر في بعض النماذج التي تدل أوضح الدلالة على ما قرره المعلم القرآني وأكّده من مبدأ المسؤولية والجزاء للرجل والمرأة كليهما في آيتنا المشار إليها وهي قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل: ٩٧] ومالها من نظائر ومثيلات في الكتاب العزيز.

ها نحن أولاء نقرأ في هذه السورة المكية سورة النحل قبل الآية السابعة والتسعين المومى إليها، قول الله جلَّ ذكره: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝٩٠﴾ [النحل: ٩٠].

وليس ذلك فحسب: بل نقرأ بعد ذلك قوله سبحانه: ﴿وَلا تَنقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ۝٩١﴾[النحل: ٩١].

هذه القضايا الكبرى التي تبدو من عطاء هاتين الآيتين الكريمتين، والتي تتعلق ببنى الفرد والأسرة والجماعة، وترتبط بالحقوق والواجبات على الساحة، وما يجب أن تكون عليه العلاقات خاصُّها وعامُّها ضمن هذا الإطار الذي له أحكامه وآدابه وأخلاقه، حيث يُعَدُّ ذلك ـ بحقٍ ـ من أعظم الركائز لطمأنينة الفرد وشعوره بالاستقرار الذي يسعف في تحقيق الأهداف المنوط به تحقيقها، ولاستقرار المجتمع المستنير بنور الشرعة المباركة، من النواحي الثقافية، السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية، ناهيك عما يتحقق من حيازته للضمانات الأخلاقية على كل صعيد!.

وكل ذلك يجري على توافق تام مع عقيدة الفطرة، عقيدة التوحيد، التي تفتحت لها القلوب، وانشرحت لنورها الصدور.

هذه القضايا جملةً وتفصيلاً: أتراها مقصورة ـ على صعيدي التصور والممارسة والتطبيق ـ على الرجل وحده، يمارسها باستقامة أو انحراف ـ لا سمح الله ـ أم أن للمرأة في ذلك الحظ الوافر أيضاً، حسب فطرتها واستعدادها؟

الحق أن الجواب يكمن فيما دلت عليه الآية التي نطوِّفُ حولها وندندن، وفيما سبق من بعض نظائرها كما رأينا في سورة المؤمن.

وللناظر المتبصِّر في هداية السماء على هذه الساحة: أن يفكِّر بتأنٍ وسعة أفق، في الصورة العملية التطبيقية لما جاء في الآيتين السابقتين لقوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾[غافر: ٤٠]: من الأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، والنهي عن الفحشاء والمنكر والبغي مع التنبيه على أهمية الموعظة الربانية وما يجب أن يعقبها من التذكر وعدم الوقوع في نسيان آيات الله.

ثم الأمـــر بـالوفـــاء بـالعـــهـــد، والنهي الجـــازم عن نقض الأيمان بعـــد توكيدها،والتذكير بعلم الله المحيط سبحانه.

إنه إن فـعل ذلـك: حـاز على مـزيد من الإدراك لأبعاد هـذه الشـرعـة الإلهـيـة، والبلاغة القرآنية في مرامي قوله جل جلاله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل: ٩٧].

وكلما أضاف إلى ذلك النظر، نظرات أخر في آيات السورة: ازداد يقيناً بأحقية ما دلَّت عليه الآية التي نحن بصددها ونظائرها، وببالغ حكمة الله جل شأنه في أن تقع هذه الآية هذا الموقع من كلامه المعجز في سورة من سور كتابه الكريم.

من الجاهلية إلى الإسلام
المرأة وإحكام البناء..
وسورة النحل
«٤»

ليس من مكرور القول: أن نعمد إلى توكيد ما دل عليه المعلم القرآني في سورة مكية هي سورة النحل من ارتباط عملي ـ في ضوء العقيدة، ووضع الرجل والمرأة جميعاً على خط المسؤولية والجزاء ـ: بين موقع الآية السابعة والتسعين وهي قوله تعالى ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل: ٩٧] وبين السورة وما طرحت من قضايا تتسق مع طبيعة العهد المكي، حيث الوجهةُ الجادة المستنيرة في انتزاع رواسب الجاهلية من الصدور، وبناء الإنسان بناءً محكماً متكاملاً على عقيدة الفطرة عقيدة التوحيد، وحيث رسمُ المعالم الكبرى للمجتمع المنشود الذي طلع على الدنيا بعد الهجرة في المدنية المنورة، ومن هذه المعالم: إعادة المرأة إلى ما يجب أن تكون عليه كيما يستضيء قلبها بنور العقيدة، وتتحمل ـ في حدود أهليتها وقدرتها ـ مسؤولية الإسهام في عملية البناء الكبرى التي كانت من مقاصد رسالة الإسلام.

وكان الأنموذج الذي عرضنا له لإيضاح ما نقول: ما جاء في الآيات الكريمة بدءاً من الآية التسعين من السورة المشار إليها.

ذلكم قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾﴾ [النحل: ٩٠-٩١].

وواضح ـ كما أسلفت من القول ـ أن ما تحمله الآيات الثلاث، من العطاء على صعيد بنية الفرد وبنية الجماعة وضمانات الاستقرار ـ في المجتمع المنتمي إلى خير أمة أخرجت للناس.. واضح أن للمرأة فيما وراء مسؤولية الحاكم التي شملها قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ قسطاً كبيراً من المسؤولية في تحقيق ما جاءت به الآيات الكريمات الثلاث؛ الأمر الذي يكشف مرة أخرى عن أهمية موقع الآية السابعة والتسعين التي أشركت المرأة والرجل في المسؤولية والجزاء، في تلك السورة المكية، وضمن آياتها التي بلغت مئة وعشرين وثماني آيات، وعرضت لقضايا جذرية تتعلق بقواعد البناء بُنَى الفرد والجماعة، بل وكيان الأمة ومستقبل الإنسان وحضارته ـ على وجه العموم ـ، وراحت بشكل مبكر تُنمي طاقات الحركة والتحويل إلى ما هو الأقوم والأفضل.

وبعد: فما أحسب أن منصفاً لا يرضى لنفسه أن يلقي الكلام على عواهنه بلا علم ولا دراية: يماري في أن وضع المرأة على خط المسؤولية والجزاء ـ بهذا الوضوح ـ شريكه للرجل في ذلك ـ ضمن حدود الشريعة وضوابطها: عنوان النقلة الإنسانية العظيمة التي أرادها الإسلام للمرأة من الجاهلية إلى الإسلام، وذلك معلم واضح من المعالم التي تبدّت في العهد المكي، وهي خطوط أسياسة أولى لبناء المجتمع الأمثل المرتقب، المجتمع الذي شاء الله أن يكون في المدنية حيث قامت الدولة الإسلامية، وشرعت تدك معاقل الكفر، وتعطيلِ أن يعمل العقل كما ينبغي: بالإيمان، والعلم والعمل، والصبر والمصابرة.

هكذا من أول الطريق.. يخاطب الجميع وهم أمة الاستجابة: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلا تَنقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾﴾ [النحل: ٩٠-٩١].

وعلى سلم التغيير إلى ما هو الأفضل يشرك الرجل والمرأة في الإعداد لما يجب أن يكون هذا الإنسان وحضارته التي يبني ـ على وجه العموم ـ وراحت بشكل مبكر تنمي طاقات التحويل بمهجية غاية في الدقة والوضوح، إلى ما هو الأقوم والأفضل في ظل الشرعة الربانية التي أنزلها العليم بما هو الصالح لعباده الذين خلقهم ويعلم سِرَّهم ونجواهم ولا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء!

المرأة.. والبناء.. الأنموذج

وسورة النحل

«٥»

عرضنا ـ ونحن ندير الحديث فيما سبق عن مسؤولية المرأة في البناء: لأنموذج يكشف عن أهمية موقع الآية السابعة والتسعين من سورة النحل وهي قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل: ٩٧] وما يكشف عن أهمية هذا الموقع ضمن آيات السورة الكريمة التي بلغت ثماناً وعشرين ومئة آية.

وقد أشرق علينا المعلم القرآني بهذا الأنموذج من خلال آيات كشفت عن مدى الارتباط بين العمل والسلوك ـ على أساس من العقيدة الصحيحة ـ وبين مبدأ المسؤولية والجزاء الذي خوطبَ به الفرد المسلم المكلف ذكراً كان أو أنثى، كما خوطبت به الجماعة المسلمة كذلك؛ الأمر الذي يدل واضح الدلالة على شديد حرص الإسلام على إعادة الأمور إلى نصابها في كل ما يتعلق بالرجل والمرأة حميعاً، وتجنيد الطاقات كلها لتحقيق أهداف البناء المنشود، وتنمية كل ما من شأنه أن يكون واحداً من بواعث الخير وحوافز العمل المثمر عند المسلم والمسلمة على حد سواء، كل أولئك ضمن منهج متكامل متوازن، يضع كلاً من الرجل والمرأة على ساحة البناء والإنماء، في ضوء القيم الإسلامية وأهلية كلٍ منهما، على الوجه الذي يتحقق معه التكامل الذي توجبه الثوابت والقيم، والذي لابد منه لسلامة المنطلقات وضمانة الاستقرار والاستمرار.

والآيات المشار إليها في النحل ـ وسبق إيرادها، وهي من جوامع الكلم في الكتاب العزيز ـ: هي قوله تعالى بدءاً من الآية التسعين: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلا تَنقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾﴾ [النحل: ٩٠-٩١].

ولعل مما يزيد المسلم إدراكاً لأبعاد الارتباط بين مضمونات هاتين الآيتين في إطار العمل والسلوك. وصدق العزيمة على فعل الخير، وبيّن ما دلت عليه الآية السابعة والتسعون سلَّم التحول، وأهمية موقعها في السورة..

لعل ما يزيد المسلمَ إدراكاً لهذه الأبعاد: نظرات فاحصة متدبرة لما سبقها، وما تلاها ـ بعامة ـ وما تلاها مباشرة ـ بوجه خاص ـ:

فبعد قوله تعالى في آخر الآية الحادية والتسعين: ﴿وَلا تَنقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾﴾ نقرأ قوله جلَّ وعز توضيحاً للمراد، بالمثل الشبيه: ﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾﴾ إلى أن يقول سبحانه: ﴿وَلا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾﴾ [النحل: ٩٤].

وبعد هذا التأكيد تأكيد سوء العبث بالأيمان واتخاذها وسيلة للمضارَّة والأذى: قال الله جل ثناؤه: ﴿وَلا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً إِنَّمَا عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾﴾ [النحل: ٩٥].

وفي ارتفاع بالمؤمن إلى التطلعات الرفيعة، والصبر على متاعب الطريق لتحقيقها جاء قوله سبحانه: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [النحل: ٩٦].

إنها الهداية الرشيدة البانية تحملها معالم الكتاب العزيز للمؤمنين.

والسعيد السعيد من فقه وتذكّر، ولم يثنه عن الدأب على العمل الصالح رغَبٌ أو رهب.

وما أحرانا ونحن نتطلّع إلى عودة صادقة مدروسة إلى منابع قوتنا في هدي الكتاب والسنة، والانتفاع بسير من أخذوها بقوة في تاريخنا العظيم: ما أحرانا أن نصدق الله في أخذ النفوس بما يوجبه هذا الهدي المبارك، وعلى الله قصد السبيل!.

المرأة.. والنقلة الفاعلة إلى ساحة البناء وسورة النحل

«٦»

القرآن.. هذا الكلام المعجز الذي لا تنقضي عجائبه ولا ينتقص عطاؤه: دائم هذا العطاء، لأنه كلام الله، غزير الهداية بلا حدود ، إذ ليس لكلمات الله من نفاد.

أقول هذا وأنا بسبيل خطوة أخرى مع المعلم القرآني الذي وَقَفْنَا على تلك القضية الكبرى قضية شراكة المرأة مع الرجل في شأن المسؤولية والجزاء، الأمر الذي يعيدنا إلى ما ختمت به الآية السادسة والتسعون من سورة النحل، والتي يتلوها في الآية السابعة والتسعين ـ كما ذكرنا غير مرة ـ قول الله جل شأنه: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٧)﴾ [النحل: ٩٧] والآية السادسة والتسعون التي ألمحتُ إلى ختامها هي قوله تعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٦)﴾ [النحل: ٩٧].

وقصة ذلك عندي: أن هذه الآية الكريمة كانت آخر الآيات التي عرضناها من قريب. رغبةً في إيضاح ما جرت الإشارة إليه من وثيق العلاقة بين مضمونات الآيات بدءاً من قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٩٠)﴾ [النحل: ٩٧] وبين مبدأ المسؤولية والجزاء للرجل والمرأة جميعاً في شرعة الإسلام، وأهمية موقع الآية السابعة والتسعين التي دلت على ذلك في سورة النحل، ضمن آيها، وما أشرقت به من عزير الموضوعات والقضايا!.

وقد أشرت غير مرة إلى أن قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾... إذا ووجه مواجهة إيمانيةً بالنظرة المتدبرة المتأملة مراعىً موقع الآية من آي السورة كافة. وهي سورة مكية: فسوف يكون الاقتناع بأن للمرأة عندما تكون في سن التكليف: حظاً وافراً من المسؤولية ـ وهذا نوع من التشريف ـ في التزام ما جاءت به الآيات على أصعدة الثقافة، والعمل والسلوك، وأن ذلك قد كان يوم تنزلت الآيات ـ وما يزال ـ عنوان النقلة العظيمة ذات الأثر الفعَّال في تاريخ البشرية بدءاً من الجزيرة العربية: من الجاهلية إلى الإسلام، والتحول بعد الإهمال والضياع ـ على الأعم الأغلب ـ إلى طاقة لها تأثيرها الخيِّر الملحوظ في البناء، والمشاركة المنتجة في تنمية الإمكانات التي تضمن للمجتمع ـ بعون الله ـ سلامة البنية التي يرتضيها الإسلام، والقدرة على العطاء...

ومن وراء ذلك: تدفع الآية بالأمة إلى أن تكون المؤهلة لأن تأخذ مكانها المرموق في ميادين العلم والعمل والإنجاز، قيادة وريادة لا تفتقران إلى العناية بالإنسان والحفاظ على حريته وكرامته الإنسان!!.

بعد هذا التذكير الذي اضطررت إليه ضماناً لتسلسل عطاء الكلمة الهادية في الأذهان: أعود لأقول:

لقد ختمت الآية السابعة والتسعون بقول الله تباركت أسماؤه: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ختمت بهذا البيان الواضح عن الجزاء يوم القيامة، وقد ذكر فيها العمل الصالح القائم على القاعدة الإيمانية، سواء كان من الذكر، أو من الأنثى، دونما لبس أو أثارة من غموض.

وفي تقديري ـ والله أعلم: أن مما يؤكد القضية التي نحوِّم حولها والتي كانت عنوان التحوُّل عن الجاهلية والظلمات، إلى الإسلام والنور المبين: أن الآية السابعة ختمت أيضاً بقوله تعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

فبعد رحلة مع مجموعة كبيرة من الأوامر والنواهي تشكِّل واحداً من أهم مرتكزات الاستقرار الاجتماعي والاقتصادي والخلقي في المجتمع: تختم الآية ـ كما نرى ـ بقوله تعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

وقد وليَها مباشرة قوله عز وجل: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل: ٩٧].

وسبحان من أنزل على عبده محمد بن عبد الله خاتم النبيين معلم الناس الخير الكتاب وأخرج الأمة به من الظلمات إلى النور!!!.

المرأة.. وإحكام البناء
الشعور بالمسؤولية.. والمشاركة الإيجابية

كانت لمحات مضيئة تلك التي بَصَّرنَا بها واحدٌ من المعالم القرآنية في كلمات قريبات، والحديث يُدار حول آيات من سورة النحل، ومن قبلها حول آيات من سورة المؤمن.

فكان المحور في ذلك: ما دلت عليه الكلمة الهادية في كلتا السورتين المكيتين من وجهة الإسلام في عملية البناء الكبرى، وما ينبغي لها من تسيير المقومات الأساسية للمجتمع في قنواتها الطبيعية، ووضع كل طاقةٍ فاعلة موضعها الذي يحول دونها ودون الضياع، ويصرفها إلى حيث تكون منتجة مثمرة في دنيا البناء والنماء، لا على صعيد الفرد فحسب، بل على صعيد الأسرة والمجتمع والأمة، والإنسانِ من حيث هو إنسان: لأن الرسالة الخاتمة رسالةَ محمد عليه الصلاة والسلام هي للإنسان في كل زمان ومكان، بصرف النظر، عن الجنس، أو اللغة، أو اللون...

وفي ضوء ذلك كانت الوقفات عند النقلة التي أعلنها القرآن الكريم للمرأة من الجاهلية إلى الإسلام، النقلةِ من ظلمات التناقض والفوضى وإهدار إنسانية الإنسان في المرأة في العديد من الحالات، إلى نور الهداية حيث الحقُ والواجبُ، وحيث المسؤولية والجزاءُ، وحيث الحرصُ على المعنى الإنساني الفطري في المرأة، وأن تأخذ مكانها الطبيعيَّ ـ وهي المسلمة المؤمنة القانتة الخاشعة ـ على ساحة البناء في نفسها وأسرتها ومجتمعها، تربيةً وتكويناً وإسهاماً في كل تحرك بنّاءٍ يتسق مع طبيعة تكوينها وما شرع الله لها وللرجل من أحكام.

الأمر الذي يسعف في تنمية الشعور بالمسؤولية التي أعلنها النبي عليه الصلاة والسلام بقوله: «**كلكم راع وكل راع مسؤول عن رعيته**».. إلى أن يقول: «**والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها**».

كما يسعف في تحقيق الاندفاع الذاتي إلى التحويل المطلوب، ومفتاح ذلك قولُ الله تعالى في سورة المؤمن ﴿**مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزَىٰ إِلاَّ مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ** ﴿٤٠﴾﴾ [غافر: ٤٠] وقوله جل شأنه في سورة النحل: ﴿**مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴿٩٧﴾﴾ [النحل: ٩٧].

وواضح أن المنطلق الذي تحدّده معالم الكتاب العزيز: هو الإيمان؛ فإذا توافر هذا المنطلق الخيِّر، وقام عليه العملُ الصالحُ بكل أبعاده التي ألمحنا إليها فيما مضى من القول: فذكور الأمة وإناثها ـ وهم يتحركون في ميادين الواجب ـ كما أمر الله وبيّنَ رسولُه عليه الصلاة والسلام ـ: يعملون إذ يعملون، وعون الله معهم، لأن كل شيءٍ عنده بمقدار وهم مجزيُّون بأعمالهم إن خيراً فخيرٌ وإن شراً فشرٌّ..

والمهم أن تكون الأعمال منضبطة في غاياتها ووسائلها ضمن هذا الإطار من الإيمان والعمل الصالح.

والردُّ العملي على تخرصات المتخرصين، وتسويلات شياطين الجن والإنس، أن يوجِّه المجتمعُ المسلم المرأة وجهة الوعي لدينها. كما هو في حقيقته، لا كما يعرضه الجاهلون وأصحاب الأهواء. إنه إن فعل ذلك: كان له من عطاء المرأة ومشاركتها في البناء ـ وهي مطمئنة راضية ـ خير كثير وفير.

ظاهرة البديل الصالح.. على طريق البناء وتحرير المرأة من أوضار الجاهلية

«١»

ما كان لنا أن نغادر القول في سورة النحل قبل أن نشير ـ ولو بإيجاز ـ إلى ظاهرة وثيقة الارتباط بمنهج التغيير في القرآن، وإقامة بناء يستمدُّ وجوده من هذا المنهج على الصعيد الاجتماعي والثقافي والاقتصادي، وكل ما هو من ذلك بسبيل.

والمؤشر لهذه الظاهرة: يبدو في نظرة متكاملة إلى آيات أخرى من سورة النحل ـ تصحب ما كان من وقفات سلفت عند الآيات التي قادنا إليها المعلم القرآني فيها وفي سورة المؤمن.

ذلكم قوله تعالى بدءاً من الآية السابعة والخمسين كشفاً عن واحدة من صور الجاهلية وأذاها: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ۝٥٧ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝٥٨ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝٥٩ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝٦٠﴾ [النحل: ٥٧-٦٠].

ونضيف إلى ذلك تذكيراً بقوله جل وعلا في سورة التكوير ـ والكلام جارٍ عما يكون في اليوم الآخر ـ: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ ۝٩﴾ [التكوير: ٨-٩].

فإذا قرأنا مع هذه الآيات من جديد: قوله تعالى في الآية السابعة والتسعين من سورة النحل: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝٩٧﴾ [النحل: ٩٧] وقوله تباركت أسماؤه في سورة المؤمن: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝٤٠﴾ [غافر: ٤٠].

إذا فعلنا ذلك: تجاوزت بنا النظرة المتأملة المتدبرة إلى الظاهرة التي ألمحنا إليها، وأعني بها هنا: ظاهرة تقديم البديل الصالح ـ على طريق البناء ـ لما تعمل رسالةُ الإسلام على إزاحته من حياة الفرد والجماعة، أو القضاء عليه؛ ها نحن نرى هنا في سورة النحل إشارة الآيات إلى ما كان يصنعه بعض أهل الجاهلية وهم على شركهم ووثنيتهم من إهدارٍ لوجود الأُنثى، حتى وصلَ الأمر إلى زعمهم أن الملائكة بناتُ الله في نوع من السخرية والعياذ بالله؛ وأن توءَد البنتُ بدافع الغيرة خشية العار..

وصورة أحدهم إذا بُشر بالأنثى واضحةُ المعالم في الآية وهي صورةٌ مرعبةٌ حقاً لأنها صورته إن بشر بمولودة، لا بمولود ذكر، يا للمسكينة المظلومة هذه البنت!! ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [النحل: ٥٨-٥٩].

والمعلم القرآني واضح في النقمة على صنيع الجاهليين في موقفهم من الأنثى هذا الموقف المخزي!

ونكتفي عن التفصيل الآن، لأن البديل الصالح جاء في مواطن كثيرة: نجد منها في العهد المكي ما قرأنا من قبلُ في سورتي المؤمن والنحل من نقل المرأة من عالم التيه والأذى إلى عالم الهدى والكرامة ـ وهو ما كنا بسبيله من قبل ـ حيث حمل الرسالة والمسؤوليةُ والجزاء للذكر والأنثى وفق سنة الله سبحانه في خلقه، وحكمته البالغة فيما رسم لهم من طرائقِ الخير التي ـ تسعد ـ أن لو عُمل بها ـ في الدنيا ويوم الدين.

ظاهرة البديل.. على طريق البناء وتحرير المرأة من أوضار الجاهلية

«٢»

مما وقفتنا عليه معالم الكتاب العزيز: واحدة من سمات منهج البناء المنشود في هذا المنهج، وهي ظاهرة البديل الصالح لأمر جاء النص بالنهي عنه، بحيث لا يكون النهي خاتمة المطاف، ولكنه يؤذن بالتوجيه إلى ما هو بديل عما نهي عنه، الأمر الذي يعين المكلفين على استمرار الامتثال طاعة لله عز وجل، ويسعف في تكامل البنية المطلوبة للفرد والجماعة وهو درس على الأمة أن تعطيه ما يستحق من الاهتمام عند إرادة التحويل من السيئ إلى ما هو الحسن في نظر الإسلام وفق الظروف والملابسات.

ها نحن أولاء نقع في سورة البقرة في الآية الرابعة بعد المئة، على نهي صريح عن أن يقول المؤمنون «راعنا» ـ وهي كلمة كان يستعملها اليهود بمقصود سوء عندما كانوا يخاطبون النبي عليه الصلاة والسلام، وسرعان ما جاء البديل، هو الأمر بأن يقولوا: انظرنا.

ذلكم قول الله تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾﴾ [البقرة: ١٠٤].

أرأيت؟ نهاهم ـ سبحانه ـ عن أن يقولوا «راعنا» وأمرهم في الآية نفسها أن يقولوا: «انظرنا» ثم كشف اللثام عن سوء الطريقة عند أولئك الكافرين بقولهم: «راعنا» وما أعدَّ الله لهم جزاء هذا الصنيع من العذاب الأليم.

وفي بيان لموقع هذه القضية من المنهج العام في علاقة الكفار بأهل الإيمان: آذنت الآية التي تلت بما يضمر الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركون للمؤمنين، الأمر الذي يؤكد الأهمية البالغة لعدم الانزلاق في مصطلحاتهم على هذه

الساحة، أو تقليدهم تقليداً أعمى في أمر من الأمور، فقال جل ثناؤه: ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [البقرة: ١٠٥].

ومما تجدر الإشارة إليه: وفرة النماذج في الكتاب والسنة لهذه الظاهرة؛ إذ لا يعوز الناظرَ المتدبِّرَ للنصوص أن يقع عليها هنا وهناك، من خلال الآيات أو الأحاديث في الموضوع الواحد، مهما تشعبت قضاياه ومسائله، الأمر الذي يسهم بإنشاء الروح الإيجابية في نفس المسلم، وينمي عنده الرغبة في الدأب على العمل الصالح ـ بمختلف ألوانه ومواقعه ـ وأخذ النفس بالسلوك الأمثل الذي يترجم المنهج إلى حياة واقعية عند الفرد، ثم عند المجتمع.

والعهد قريب بما سبق أن صَحِبْناه في سورة مكية ـ هي سورة النحل ـ من قوله تعالى بدءاً من الآية السابعة والخمسين: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾﴾ [النحل: ٥٧-٦٠].

وها نحن أولاء نقع في السورة نفسها ـ وفي الآية السابعة والتسعين على وجه التحديد ـ على قول الحكيم الخبير: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل: ٩٧].

وأنعم بهذا البديل الذي كلُّه سموٌّ وكلُّه توجيه قيِّم إلى منزلة المرأة في الإسلام وكونه شرَّفها كما شرَّف الرجل بحمل قيم الرسالة الخاتمة، وجعلها أهلاً لحمل المسؤولية، ولها من الجزاء والمثوبة في الآخرة ما للرجل؛ إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

أين هذا من سوء الظن بالأنثى عندما تكبر!! ودرءاً لما يمكن أن تجلبه من العار على القبيلة في زعمهم: يضع الأب قدميه على قلبه، ويدسُّ هذه الصغيرة، الصغيرة المسكينة في التراب وهي من؟ هي بنتُه.

كان البديل: أن تربَّى هذه البنت تربية تُهيِّئها للعمل الصالح، فإذا قامت به على قاعدة من صادق الإيمان: كانت شريكة الرجل فيما بشرت به الآية بقوله سبحانه: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [النحل: ٩٧].

ومن المفيد حقاً: أن نتذكَّر هنا بما جاء في سورة المؤمن في إطار ما نومئ إليه من ظاهرة البديل الصالح من قوله تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزَىٰ إِلاَّ مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ ﴾ [غافر: ٤٠].

وإذا كان الخير يجلب الخير: فلنضمَّ إلى الصورة الأولى التي تحمل التنديد بالوأد، وتبرز صورة الأب المرعبة حين يبشر بمولودة أنثى: أن نضم إليها على سبيل الإيضاح والتوكيد قول الله تعالى في سورة التكوير: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ ﴾ [التكوير: ٨-٩].

تلكم هي الظاهرة التي تمثل سمة من سمات منهج البناء الأقوم على طريق التحويل، المنهج الذي يزخر القرآن بالدعوة إليه وبيان فضائله وثمراته للإنسان المسلم والبشرية جمعاء؛ كالذي نقرأ في قوله تعالى في سورة الإسراء: ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾ ﴾ [الإسراء: ٩-١٠].

هناك إهدار للأنثى في وجودها وكرامتها بل وإنسانيتها، إهدار يصل في بعض الحالات إلى الوأد عند بعض القبائل، وكثيراً ما يصحب هذا الإهدار، إضاعة الحقوق الشخصية والمالية والاجتماعية وما إلى ذلك.

وهنا ـ على نور السلام ـ البديل الصالح الذي مع ما فطر الله عليه كلاً من الذكر والأنثى، يسلِّح كلاً منهما في مرحلة التكليف بالإيمان، ويشرفهما بحمل أمانة التكليف والعمل، ويشركهما في المثوبة والجزاء.

وبذلك توضع الأمور مواضعها، وإذا وضعت الأمور مواضعها، وأعطي كل ذي حق حقه كاملاً غير منقوص، وأخذت كل طاقة من الطاقات موقعها في المجتمع، كان الإنتاج المثمر، وكان التكامل والتوازن في صياغة الفرد المؤهل للبناء ـ ذكراً كان أو أنثى ـ وكان المجتمع الذي لا ترهقه ثغرات الانحراف في تبديل المواقع، واستبدال الذي هو أدنى بالذي هو خير!!

وليس من المغالاة في شيء أن نشير إلى أن محاولة الانحراف بالمرأة اليوم عن فطرتها التي فطرها الله عليها، باسم إعادة حقوقها المسلوبة إليها: هو في ظاهره غيرة على المرأة، ورفع للظلم عنها. لكنه في حقيقته: قلب للأمور رأساً على عقب، وجناية على تكوين الأسرة وسلوك بالمرأة طريق الضياع واختلاط الأوراق ـ كما يقال ـ ناهيك عن المخالفة الصريحة لنصوص الهدى قطعية الثبوت قطعية الدلالة.

ولتكن المطالبة دائماً بالالتزام بما شُرع، ودرء ما قد يقوم به الجهلة أو المتجاهلون مدَّعو التديُّن باسم الإسلام والإسلام منهم براء، وحرص على الخلية الأولى ـ الأسرة ـ أن تظفر بالتكوين الصحيح، والقدرة على استمرار العطاء في المجتمع.

مرة أخرى، ليس من نافلة القول التذكير بما ينبغي لكلٍ من المسلم والمسلمة من الوقوف موقف التدبر لآيات الكتاب الكريم، كما دعا إلى ذلك ربنا جل جلاله، ومن هذه الآيات، ما كنا بسبيله من قوله تعالى ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنثَىٰ﴾ [النحل: ٥٨]، وقوله جل شأنه: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ ۝٩﴾ [التكوير: ٨-٩].

ومما يعين على هذا التدبر فيما نحن فيه: أن ينظر بتدبر مصاحب لما سبق في قوله تعالى الدالِّ على البديل الصالح: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧] الآية وقوله جلت حكمته: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ [غافر: ٤٠].

ولسوف نرى في الآيات المدنية ـ إن شاء الله ـ ما يزيد هذا الأمر الجلل بياناً من الناحية العملية التي هي انعكاس المبادئ والقيم المباركة.

والقراءةُ المتدبرة الواعية في غاية الضرورة لهذا كله وأمثاله.

وسبحان من علَّم الإنسان ما لم يعلم، وأنزل كتابه على نبيه ﷺ ليتدبَّر المؤمنون والمؤمنات آياته وليذكَّر أولو الألباب.

حقائق الإسلام ـ والبديل الصالح

المرأة والمسؤولية

«٣»

أرجو أن لا يحسَب واحد من الإخوة الناظرين فيما كتب أو السامعين له: أني أقول ما أقوله دفاعاً عن متَّهم ـ هو الإسلام ـ لا والذي أنزل على عبده محمد ﷺ الكتاب هدىً ورحمة، ولكني أقول ما أقول بياناً للحقيقة وتبرئة للذمة، وحرصاً منهجياً على الإسهام في أن يُفهم الإسلام على الوجه المطلوب وأن تعرضَ حقائُقه كذلك قدر المستطاع، عرضاً لا يعوزه التأصيل النابع من هدي الكتاب والسنة.

وما من أحد تؤرقه هموم الأمة، ويكاد يذوب كمداً مما تعانيه لبعدها عن الإسلام في كثير من مجتمعاتها.. إلا ويتمنى أن تذهب حقبة الشعور بأن الإسلام متهم في قفص ينبغي الدفاع عنه إلى غير رجعة.

فالواجب أن تكون حقائقه الناصعة كالشمس في رابعة النهار هي المعاييرَ يوزن بها الواقع، لا أن يكون الواقع المنحرف معيار النظرة إلى الإسلام ـ وهو وحي السماء ـ.

وعلى صعيد تجنيد الطاقات، ووضع كل تخصص موضعه، منهجاً وتطبيقاً في ميادين البناء الشامل يشدنا الحديث إلى متابعة تؤكد ما أشير إليه فيما سبق... من ظاهرة تقديم البديل الصالح التي نلمسها في معالم القرآن الكريم، وهي سمة من سمات المنهج الذي رسمته الرسالة الخاتمة للبناء، وتنمية العوامل التي تصنع ـ بإذن الله ـ الوجود الذاتي للأمة على كل صعيد.

وفي شأن المرأة رأينا في سورتي النحل والتكوير كيف كان موقف الجاهلية من المرأة.. ورأينا في سورتي النحل والمؤمن ـ والنظائر متعددة في مواطنها ـ من القرآن المكي البديل الصالح الذي جاء به القرآن الكريم، وبيَّنه قولاً وعملاً وقيادةً للمجتمع: رسول الله عليه الصلاة والسلام.

وما من ريب في أن دراسة هذه الظاهرة في أنموذجها الواضح على صعيد المرأة ومسؤوليتها في الإسلام، تقدم رافداً طيباً من روافد الخير، على سلَّم التغيير إلى الأفضل.

والفتاة المسلمة مدعوة إلى أن تأخذ موقعها في إدراك الحقيقة الإسلامية على زيادة إيمانها واقتناعها بالمنهج الذي رسمه الإسلام، فقد وضعها موضعها الطبيعي اللائق، بعد رحلة التيه الجاهلية. وبدل الحزن والغيظ لولادة الأنثى والشعور بالمهانة والعياذ بالله، ـ ناهيك عن الوأد أحياناً ـ جاءت مع رسالة الإسلام النظرة الواقعية الفطرية.

فهذه الأنثى التي كانت الجاهلية تنظر إليها تلك النظرات الهابطة وتعاملها في كثير من الأحيان، أسوأ معاملة لأنها أنثى... أصبحت تخاطب برسالة الإسلام الخاتمة ـ على مستوى المرأة الإنسان الذي خُلق والرجل من نفس واحدة ـ: المرأة الإنسان ـ: بالمسؤولية والجزاء، وسيَّرها في الطريق التي تؤهلها لخوض ميدان البناء. كما أهلَّها الله. أو ليس الإيمان والعمل الصالح ـ على سعة مدلوله ـ والشعور بالمسؤولية وأن هنالك جزاءً لا يضيع معه عمل عامل عند الله؟ أو ليس ذلك كله من أهم مقومات البناء الذاتي للمجتمع، والإفادة من كل العناصر الفاعلة في تكامل بين ما يستطيعه الرجل وما تستطيعه المرأة حتى في مواجهة التحديات الحضارية؟!

والحمد لله الذي قال في محكم كتابه: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨] وهو سبحانه ولي التوفيق.

المرأة والرجل.. على ساحة البناء الاقتصادي وسورة الحديد

«١»

في جُعْبة اليوم نقطة أخرى يمكن أن تضاف إلى سابقاتها في انتسابها إلى المعلم القرآني الذي أسعدنا به قوله تعالى في سورة الحديد: ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [الحديد: ١١] وهدى إلى أن المرأة شريكة الرجل في الدعوة إلى هذا القرض الحسن والظفر بالبشارة بعظيم ما يترتب عليه من المثوبة.

وإن كانت قضية القرض المبارك هذه جاء على ذكرها الكتاب العزيز في غير ما آية من مكيّةٍ ومدنيّةٍ. فإنَّ تلك النقطة هي ما يجب تأكيده من أن فضيلة الإنفاق هذه التي حملتها تلكم الصورة ـ أو الصور ـ النيرة الفياضة بالندى والرحمة الغامرة، ليست مقصورة على الرجال دون النساء بل هي للجميع رجالاً ونساءً بمقتضى خطاب التكليف ـ على وجه العموم ـ لأن اللفظ خوطب به الذكور لا لانفرادهم بالتكليف ولكن على وجه التغليب كما هي لغة العرب التي بها نزل الكتاب الكريم.

على أن لا بد من التنبيه إلى أن آية القرض الحسن هذه وقد بدئت باللفظ المفرد (مَنْ) قد تلاها قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾﴾ [الحديد: ١٢] حيث ذكر المؤمنات مع المؤمنين وعاد الضمير على الجمع المراد بلفظ (مَن) التي هي من أدوات العموم، الأمر الذي يؤكد ما نحن بصدده.

وعندما يكون الحديث متعلقاً بمقومات البناء في أسسه وأبعاده، وميادينه المتعددة في نفس الفرد، وفي المجتمع الذي يتكون من الأفراد، وبخصائص التنمية التي تبلغ بالفرد أن يكون على مستوى رسالة البناء التي أرادها الإسلام، وتبلغ بالمجتمع أن يرقى في ظل العقيدة والشريعة والعلم إلى مستوى المجتمع الرائد ثقافةً وسلوكاً وأخلاقاً، وقدرة على إدارة حركة الحياة بما يتطلبه إعمار الأرض وإنشاء القوة الذاتية للأمة، وما تمليه أمانة الدعوة وصدُّ التحديات الغازية، مهما كان مصدرها وموضوعها!! أقول: عندما يكون الحديث متعلقاً بذلك يكون واجباً توجيه العناية بدقة ومنهجية إلى الإنسان المنوط به دفع عملية البناء وإخراجها من حيّز التصور والتخطيط في المنهج، إلى حيز التطبيق والوجود الناطق العملي.والإنسان ـ هنا ـ كما خوطب في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، معنيٌّ به الرجل والمرأة جميعاً، وقد سبقت الإشارة غير مرة إلى أن الرجل والمرأة قد خوطب كل منهما بالمسؤولية والجزاء، بعد خطاب كل منهما بعقيدة التوحيد وأحكام الشريعة المباركة إلا ما كان من اختصاص تمليه طبيعة التكوين عند المرأة، وطبيعة التكوين عند الرجل وسبحان الحكيم الخبير. وفي الكتاب الكريم العدد الوفير من النصوص يدلُّ على هذه الحقيقة القرآنية المباركة ـ كما هو معلوم ـ من ذلك قول الله تعالى في سورة النحل: ﴿**مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴿٩٧﴾﴾ [النحل: ٩٧].

من هذا المنطلق: يمكن القول بأن قوله تعالى في سورة الحديد: ﴿**يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ** ﴿١٢﴾﴾ [الحديد: ١٢] وما كان على هذه الشاكلة المستنيرة، مخاطَبٌ به المسلم المكلف ذكراً كان أو أنثى، ولا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها. وقد أشرت عند الكلام على واقعة أبي الدحداح رضي الله عنه، إلى أن زوجته أم الدحداح قد شاركته في عمله المبرور مشاركة فعَّالة حين

لم تتوان عن الاستجابة الإيمانية السريعة، وخرجت بمتاعها وأولادها إلى البستان الآخر وقالت: (ربح بيعك يا أبا الدحداح) دعاءً له بالربح في الدنيا والآخرة، أو إخباراً باقتناعها الإيماني بأنَّ صفقة أبي الدحداح بقرض بستانه قرضاً حسناً في سبيل الله هي صفقة رابحة.

وإلى أن نلتقي على متابعة العطاء القرآني في هذه القضية الجذرية المهمة: أرجو أن يكون لنسائنا المسلمات حسن الصحبة مع معالم الكتاب العزيز، كتاب ربهن الذي خاطب الذكر والأنثى بالتكليف، دونما رواسب أو أحكام مختزنة في داخل النفس لا تجري على سنن الهدى، وثمراتُ هذا الاصطحاب ـ طيبة مباركة إن شاء الله على طريق البناء، بناء الإنسان المسلم ذكراً كان أو أنثى، والإنصاف في أحكام قد يعوزها حسن الفهم والتثبت عند قراءة النصوص، إن في ذلك لآيات لأولي الألباب.

المرأة والرجل.. والبناء
الحكمة في خطاب التكليف
«٢»

مع تأملات عجلى لا يتسع المقام لأكثر منها في آيات كريمات من سورة الحديد والبقرة والتغابن: دلَّنا المعلم القرآني على الأهمية لمواقع تلك الآيات في سورها، حيث ارتباط الإنفاق الخيّر الذي عُبر عنه بالقرض الحسن لله عز وجل بالإيمان، وحيث العلاقة الوثيقة المباركة بين الجهاد والإنفاق في سبيل الله، لما أن البذل يشمل بذل المال وبذل النفس كليهما.

على أن آية سورة الحديد تميّز موقعها ـ والقرآن كله معجز ـ بمجيئها عقب مجموعة من آيات كشفت عن الخطوط الأساسية في المنهج الرباني الذي وجه العباد إلى ما يجب أن تكون عليه عملية البناء الكبرى؛ على صعيد الفرد، بصياغة الإنسان المسلم ذكراً كان أو أنثى، صياغة متكاملة ترقى به إلى حيث القدرة على إحسان التعامل مع الكون والحياة، وعلى صعيد المجتمع، بصياغته صياغة تتسم بالتكامل الذي تبدو معه العناية المطلوبة في زوايا البناء جميعاً دون وكس أو شطط، كل أولئك في ظل العقيدة، ثم بتوفير كل ما من شأنه قوة هذا المجتمع، وقدرته على إسعاد أبنائه في العاجلة والآجلة، وتمكينهم من أداء رسالة الخير في العالمين. الأمر الذي يضمن ـ بعون الله ـ بناء حضارة مثلى لا تغفل ـ مع العناية بعمارة الأرض وتوفير العلم لحركة الحياة ـ أن يكون للنظرة الأخروية النصيب الأوفى في العمل والسلوك. وذلك ما صنعته ـ بحمد الله ـ حضارة الإسلام.

هذه واحدة: أما الثانية: فهي أن المعلم القرآني دلَّنا على أن الترغيب في القرض الحسن لله تبارك وتعالى: لا ينحصر في توجيه ذلك إلى الرجل المسلم فحسب، ولكنه ـ بمقتضى العموم في خطاب التكليف بعقيدة التوحيد وأحكام الشريعة ـ موجه إلى الرجل والمرأة جميعاً، ولكن جرى القرآن في الكثير الغالب ـ كما أشرنا غير مرة ـ على عرف التغليب في الخطاب عند العرب، ولذلك كان من المعروف بداهةً: أنه ما عدا الأحكام التي تختص بها المرأة دون الرجل أو العكس، يكون المقصود الذكر والأنثى جميعاً. فقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يشمل المؤمنين والمؤمنات فكأن الله تعالى يقول: (يا أيها الذين آمنوا ويا أيتها اللواتي آمن) وقوله: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ معناه: (أطيعوا الله أيها المؤمنون وأطيعوا الرسول، أطعن الله أيتها المؤمنات وأطعن الرسول) فقوله جل شأنه: ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [الحديد: ١١] يدخل فيه بداهة الذكور والإناث من أهل الإيمان، والأمثلة على ذلك في الكتاب والسنة كثيرة وفيرة، وقد عملت هذه الحقيقة القرآنية عملها في سلامة البنية للفرد والجماعة، سيما وأن الإسلام ـ على صعيد المال والاقتصاد ـ قد أعطى المرأة حرية التملك بالطرق المشروعة بالنسبة إليها، وأعطاها حرية التصرف بمالها في حدود رسمها تضمن إنسانيتها وكرامتها.

غير أن الذي تحسن الإشارة إليه، إنه: ما عدا الأكثر الأغلب الذي ألمحنا إليه من قريب؛ يقع القارئ لكتاب الله على بعض المواطن التي ذكر فيها الرجال والنساء جميعاً بالأوصاف التي ينبغي أن يكونوا عليها، أو أن يغادروها إلى غيرها، ولم يجر الأمر على التغليب فحسب. وبهذا يكون الخطاب قد شمل المرأة بالتغليب في صيغة الخطاب بالتذكير وخصّها المولى جل شأنه بالذكر مع الرجال لحِكَم قد لا تخفى على المتبصّر، لعل منها تأكيد إشراك المرأة في حمل الرسالة بواجباتها وتكاليفها، وضروة تربيتها على الأخلاق والصفات التي تقودها ـ بفضل الله ورحمته ـ إلى الفوز الكبير، والزحزحة عن النار ودخول الجنة يوم

المعاد، بعد أن جعلت منها الركن البارز القويم في بناء الأسرة الصالحة في المجتمع الصالح. وأوجبت عليها الإسهامَ في إدارة حركة الحياة الإسلامية علماً وعملاً، وسلوكاً لا يجفو شرعة الله، ولا يتنكر لإنسانية الإنسان.. كل أولئك ضمن تكوينها، وما أعطاها الله من إمكانات ومؤهلات، لأن الجاهلية تسير في غير هذه الطريق؛ فإما إهمال يجفو نصوص الشريعة، ويضيّع إنسانية المرأة وكرامتها ويهمل موقعها من البناء المتكامل، وإما إيهام لها ـ كما في جاهلية اليوم ـ بالمساواة المطلقة مع الرجل دون حدود أو قيود، وهي المساواة التي تتنافى مع طبيعة التكوين وموقع كل من الرجل والمرأة في المجتمع كما تقتضيه عملية البناء، الأمر الذي يؤذيها، ويباعد بينها وبين الفطرة، ويحول دونها ودون العطاء الحقيقي الذي يتسق مع ما أفطرها الله عليه؛ وهو ما يعود عليها وعلى أسرتها بل وعلى المجتمع بالأذى والقلق البالغين، يرافق ذلك ـ كما نرى في حضارة الأقوياء اليوم ـ اتخاذها ـ أعني المرأة المسكينة أو الجاهلة الواهمة ـ متاعاً رخيصاً حتى في دنيا الاقتصاد والإعلام عند من يزعمون تكريمها والحفاظ على حقوقها.

وفي حديث موصول بالكلام على المرأة فيما وراء قاعدة التغليب في القرآن نقرأ قوله تعالى في سورة الحديد: ﴿إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ [الحديد: ١٨] وفي السورة نفسها قرأنا ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً﴾ [الحديد: ١١]، الأمر الذي يؤكد تلك المساواة في المسؤولية والجزاء، فبعد التغليب في هذه الآية جاء قوله تعالى ـ بعد آيات ـ: ﴿إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ﴾ [الحديد: ١٨] وهذا يذكرنا بقوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ﴾ [آل عمران: ١٩٥] وقد تكرر ذلك في غير ما موطن من القرآن الكريم. وفي ترغيب بالصفات التي يجب أن يتحلى بها المؤمن ذكراً كان أو أنثى والوعد بالمغفرة والأجر العظيم على ذلك ـ كما نبَّهت آنفاً ـ نقرأ في سورة الأحزاب قوله

تعالى: ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ ﴾ [الأحزاب: ٣٥] ويزيد الأمر توكيداً وإشعاراً للمرأة المسلمة بمسؤوليتها هذا الإعلان العظيم عن وجوب الرضا بحكم الله ورسوله لا فرق في ذلك بين مؤمن ومؤمنة، وهي قضية كبرى، لا محيص عنها لصدق الإيمان.. ذلكم قوله تعالى عقب الآية السابقة: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [الأحزاب: ٣٦] أرأيت!! إذا قضى الله ورسوله أمراً: فليس من شأن المؤمن بوصفه مؤمناً وليس من شأن المؤمنة بوصفها مؤمنة: أن يكون لهم الخيرة من أمرهم، ولكن الواجب تصديق جازم والتزام بقضاء الله ورسوله، فأية مسؤولية هذه تلك التي تلقى على عاتق المرأة المسلمة وفي ذلك ما فيه من التكريم؟ ونظائر ذلك في كتاب الله وحديث رسول الله ﷺ عديدة موفورة.

على هذه الطريق المأمونة التي تتسق مع الفطرة، وتتوافق مع سنن الله في الخلق والتكوين: برزت هداية المعالم القرآنية في توفير الأسس الصالحة للبناء القويم، وتنمية طاقات المجتمع وفاعليته، والحيلولة دون التعطيل أو الاستهتار والتجاوز، وفي ذلك ما فيه من وضع الأمور مواضعها في كل ما يتعلق بالرجل والمرأة على حد سواء، بدءاً من الفرد، ومروراً بالأسرة، وانتهاءً بالمجتمع ثم بالأمة. وسبحان من تفرد بالكمال المطلق في الخلق والتكوين ودلالة الإنسان ذكراً كان أو أنثى على ما به سعادته ـ أن لو سمع وأطاع ـ في الدنيا والآخرة. والصلاة والسلام على معلم الناس الخير وعلى آله وصحابته أجمعين.

المرأة والرجل.. والبناء
الحكمة في الخطاب التكليف
«٣»

مرة أخرى أعود إلى الآية الخامسة والثلاثين من سورة الأحزاب وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً ﴿٣٥﴾﴾ [الأحزاب: ٣٥] أعود إليها مشيراً إلى أن ترتيب المغفرة والأجر العظيم على الاتصاف بهذه الصفات المباركة العشر: دليل واضح على أهميتها على صعيد الفرد والجماعة، وهي صفات لم يندب القرآن الكريم الرجال إليها فحسب، ولكنه ندب إليها النساء أيضاً. وترغيباً في العمل على التخلق بها كما ينبغي رتّب على وجودها تلكما الثمرتين العظيمتين المغفرة والأجر العظيم. وإذن: فالرجل والمرأة كلاهما مطلوب منهما سلوك السبيل الموصلة إلى أن تكون تلك الصفات العشر هي الخلق وهي السمة المميزة في التعامل مع الله وفي التعامل مع عباده.

والمعلم القرآني في الآية الكريمة، كما يضع أيدينا على هذه الحقيقة: يُشعر الأمة بوجوب الأخذ بالأسباب التعليمية والتربوية التي تمكن ـ بإذن الله ـ من إعداد الرجل الصالح والمرأة الصالحة ذلك الإعدادَ الذي يبني الإيمان والقنوت والصدق والصبر، والخشوع والبذل بالصدقة، والصيام، وحفظ الفروج، وذكر الله ذكراً كثيراً. وإذا كان الأمر كذلك: فلك أن تتصوَّر المجتمع الذي يريده القرآن، إنه مجتمع من خلائق أفراده ذكوراً أو إناثاً، تلكم الصفات العشر التي تتمثّل

بأصحابها سلامةُ البناء عقيدةً وسلوكاً ومراقبة لله عز وجل، وانبعاثاً ذاتياً للاستقامة بما يضمن خير الدنيا وحسن العاقبة في الآخرة، حيث تكون الجنة هي المأوى.

ولَكَم نحسن صنعاً إذا تحرينا من خلال هذه الآية الكريمة وأمثالها: عطاء المعلم القرآني فيها على صعيد التتهيج لتربية الرجل والمرأة جميعاً، لما أنها تدلنا على الأسس المتينة القوية التي يجب أن نسعى وراءها عند إرادة البناء وإصلاح المفاهيم، والتوجه صوب بناء الذات بعيداً عن التقليد الأعمى للآخرين، والاستسلام لما ينصب من شباك يراد منها أولَ ما يراد أن تتصرف المرأة عن أن يكونَ لها الوجود الذاتي بالإسلام، إلى أن تكون ضحية التقليد لمن لا يرقبون في الأمة إلاً ولا ذمة، وأن تقع فريسة للوهم الذي يثمره زخرف القول والاحتكام إلى معايير لا تمت إلى الحق، ولا إلى طبيعة المرأة ورسالتها في الإسلام وموقعها من عملية البناء الكبرى بسبب.

ولا يرتاب منصف في أن الاستنارة بالمعلم القرآني في الآية الكريمة تصل بنا إلى سلامة التكوين ـ بإذن الله ـ في الرجل والمرأة جميعاً، والإفادة من الطاقات في تحويل التصور إلى حركة عملية في دنيا الواقع.

وكم يبدو المجتمع المسلم بأمس الحاجة إلى أن لا تهدر طاقة المرأة بالتقليد وترديد ما يزعمه الآخرون، وأن تكون جادة في الانتساب إلى خير أمة أخرجت للناس.

إن المرأة المسلمة مدعوة إلى تبين طريقها في ضوء المعالم الهادية من كتاب الله الكريم وسنة نبيه المصطفى عليه الصلاة والسلام... وإن المجتمع اليوم مدعو إلى معاونة الفتاة المسلمة من طريق التربية والتعليم والإعلام وسائر وسائل التكوين والإعداد... مدعو إلى معاونتها بالكشف عما هو زيف في توجيه المرأة، وعما هو حقيقة، عما هو أصيل في علاقته بتكوينها وموقعها في المجتمع المسلم،

وما هي مسؤولة عنه من أداء أمانة الإسلام في نفسها وفيمن ولاها الله أمرهم، بل وفي الإسهام بتبليغ الرسالة إلى الآخرين.. عما هو أصيل في هذا كله وعما هو دخيل مهجّن ضائع النسب إلا أن يكون إلى شياطين الإنس والجن.

أقول هذا: لأننا عندما نطلب منها أن تتبين طريقها: فلا بد من معاونتها في ذلك بالطرق المنهجية السليمة التي تستنفد توظيف الوسائل والأسباب على هذه الساحة، ولنا من إخفاق مناهج الآخرين بالنسبة للمرأة عندهم وما آل إليه أمرها من الشقاء: ما يسهم في تحقيق ما نريد. فإذا كان المصلحون يرمون إلى التكامل في بناء المجتمع: فما عليهم إلا أن يعودوا إلى النبع الأصيل ويستفيدوا من تجارب الآخرين. والله المأمول سبحانه أن يردَّ المسلمين إلى دينهم ردًّا جميلاً وهو المحمود على كل حال.

المرأة.. وإزالة الركام الجاهلي من طريقها ودلالة ذلك

«١»

ضمن إطار العبث الذي أشرت إليه في الماضي القريب من صنيع الجاهلية في التحريم والتحليل حسب الأهواء، ومستوى الخضوع للأصنام، كان للمشركين ـ كما جاء في سورة الأنعام ـ موقف معيَّن من النساء، وهن المقصودات بكلمة (الأزواج) هنا. ذلك بأنهم حرَّموا عليهن ما في بطون بعض الأنعام، وأباحوا لهنَّ الشركة فيه إن كان ميتة، والآية التي كشفت عن ذلك في السورة المشار إليها هي قول الله الحكيم الخبير: ﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾﴾ [الأنعام: ١٣٩].

ولا يخفى أن ما دلت عليه الآية: قائم على نظرة جاهلية إلى المرأة وهي نظرة تتنافى مع الفطرة، وتجفو إنسانية الإنسان الذي كرمه الله وخلقه في أحسن تقويم ﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا﴾ [الأنعام: ١٣٩] قالوا ذلك حسب أهوائهم والخضوع المهين لأصنامهم التي صنعوها بأيديهم، فهي لا تملك لأنفسها ضراً ولا نفعاً، فضلاً عن أن تنفعهم أو تضرّهم فتكون جديرة ـ على زعمهم ـ بالعبادة والتقديس.

والأنعام المقصودة في الآية ـ كما يقول العلماء ـ هي البحائر والسوائب؛ فالبحائر هي التي يمنعون درّها للطواغيت، فلا يحلبها أحد من الناس. أما السوائب: فهي التي كانوا يسيبونها لطواغيتهم ـ كما أشرنا في كلام سبق ـ فلا يحمل عليها شيء. فما في بطون هذا الأنعام المحرمة خالصةٌ حلال للذكور، أما الأزواج ـ النساء ـ: فمحرم عليهن، لا يجوز لهن أن يطعمن منه شيئاً. وروي عن

عبد الله بن عباس رضي الله عنهما في هذه الآية قال: «هو اللبن كانوا يحرمونه على إناثهم ويشربه ذكرانهم، وكانت الشاة إذا ولدت ذكراً ذبحوه، فكان للرجال دون النساء، وإن كانت أنثى تركت فلم تذبح، وإن كانت ميتة فهم فيه شركاء، فنهى الله عن ذلك».

هكذا: لبنُ تلك الأنعام حرام شربه على الإناث، حلال للذكران أن يشربوه.

وهكذا: إذا كان الذي في بطون تلك الأنعام ميتة، حُق للأنثى أن تكون شريكة فيه، وإلا فلا حق ولا شركة. ترى ما هو المقياس الذي كان يحكم هذا الصنيع؟ بل ما هي القاعدة التي تحت سلطانها كان التحريم والتحليل؟

الواقع: هي الجاهلية خضوعاً للهوى والشيطان، وضياعاً على عتبة الأوثان!!

هذه الأنعام التي ابتدعوا تحريمها من عند أنفسهم، فحرّموا ما أحلّ الله، لِمَ يكون ما في بطونها حلالاً للذكور محرماً على الإناث عندما يولد حياً؟ وما هذا التفضل على المسكينة الأنثى بإباحة أن تكون شريكة في الكل حين يكون ما في تلك البطون ميتة؟ يا عجباً يحرمون عليها الحلال، ويشركونها في الحرام!! لقد كانت الكلمة الهادية في كتاب الله فيصلاً في تسفيه هذا الصنيع الجاهلي وبيان أنه باطل من كل وجه.

وفي إعلان يؤكد ذلك نهياً عن تلكم البدعة الجاهلية التي تقوم على شرح أحكام لم يأذن بها الله، وتضع الأنثى موضعاً لا يتفق مع تكريم الله لها ولا مع موقعها المطلوب في المجتمع المنضبط بضوابط الحق وما تقتضيه إنسانية الإنسان.. في إعلان يؤكد ذلك: خُتِمت الآية الكريمة بهذا الوعيد الشديد: ... ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٣٩] ولقد اقترن هذا الوعيد بالسين التي تشعر بالمستقبل القريب إشارة إلى أحقية وقوعه.. أجل سيجزيهم وصفهم ذلك بالتحليل والتحريم والافتراء على الله بنسبة ما ابتدعوه إليه، أي جزاءه، إنه ــ سبحانه ــ حكيم في أفعاله وأقواله وشرعه،

عليم بأعمال عباده من خير أو شر، وسيجزيهم عليها أتم الجزاء، كما في قوله تعالى في سورة النحل: ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ ﴾ [النحل: ١١٧].

أن يقع هذا التسفيه ـ مبكراً في العهد المكي ـ لموقف.. الجاهليين من المرأة هذا الموقف والدعوة تخوض معركة التوحيد مع الوثنية وذيولها وتصبر الفئة القليلة المؤمنة التي لا تملك من قياد المجتمع شيئاً على الأذى في ذلك: ـ معلم واضح من معالم البناء الاجتماعي الذي تريده رسالة الإسلام للمجتمع، لا بد من تبيُّنه مع القضايا المطروحة كلها في العهد المكي. وهو في الوقت نفسه دليل على نهج القرآن بشأن المرأة، وهو نهج في غاية العمق والوضوح. وليت أن المرأة المسلمة في كثير من مجتمعاتنا اليوم تتبصَّر في هذا الإبطال لواحدة من عادات الجاهلية التي تحمل ما تحمل من الجنف عليها والإساءة إلى إنسانيتها، وتهديد المشركين بالعذاب من أجل ذلك!! ليت أنها تفعل هذا، وتستشف دلالة المعلم القرآني العظيمة على هذه الساحة، كيما تتحول شطر الحرص على تحمل مسؤوليتها التي كرمها بها الإسلام، وتسهم إسهاماً فعالاً في عملية البناء الخيّرة المنشودة؛ ولله عاقبة الأمور.

مرة أخرى.. مع المرأة وإزالة الركام الجاهلي ودلالة ذلك

«٢»

كانت لنا من قريب وقفة أملاها ما جاء في سورة الأنعام المكية من شأن الجاهليين وظلمهم للمرأة من خلال أحكام شرعوها من عند أنفسهم لم يأذن بها الله افتراءً عليه، كان من ذلك ما نصّ عليه قوله تعالى في بيان لبعض أحكام، تحدّد ما يحل للإناث مما في بطون بعض الأنعام: ﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾﴾ [الأنعام: ١٣٩].

ولئن كان هذا الظلم ـ بناءً على النظرة المستكبرة ـ صريحاً في هذه الآية حيث جعلوا ما في بطون الأنعام المحرمة ـ على زعمهم ـ خالصاً حلالاً لذكورهم ومحرماً على أزواجهم ـ نسائهم ـ وإن يكن ميتةً فهم ـ رجالاً ونساءً ـ فيه شركاء.. إنه قائم أيضاً فيما دل عليه كلامهم في آية سبقت وهي قول الله جل شأنه: ﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لاَّ يَطْعَمُهَا إِلاَّ مَن نَّشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لاَّ يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الأنعام: ١٣٨] ذلك بأن زمرة الأنعام التي قالوا فيها: ﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لاَّ يَطْعَمُهَا إِلاَّ مَن نَّشَاءُ بِزَعْمِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٣٨] يمكن أن تكون حراماً على الأنثى زوجة أو أماً أو أختاً أو بنتاً.. أو غيرهن، إذا لم يشاؤوا إطعامهن، كما يستأنس لذلك بالآية التي كنا بصددها. وهكذا يكون في هاتين الآيتين من سورة الأنعام دلالةٌ على لون من ألوانِ الظلم الاجتماعي للمرأة في الجاهلية؛ وهو وإن

لم يكن صريحاً في إحداهما كما هو صريح في الأخرى، لكنه داخل في عموم كلامهم حيث تدخل الأنثى في عداد من ظُلم، ما دام الموقف منها صريحاً في الآية الأخرى.

على أية حال: ليست القضية أن تُحرم المرأة من لبن بعض الأنعام أو لحم ما في بطونها وأن تكون شريكة فيما هو حرام ـ وهو الميتة ـ فحسب، ولكنها قضية النظرة التي تبدو بعيدة كلَّ البعد عن المعنى الإنساني في الأنثى والتعقل في تحديد موقعها من الأسرة والمجتمع فضلاً عن كون هذه النظرة مخالفة لحكم الله تعالى في ذلك. يؤكد ما نقول هذا الإشراك في الميتة التي هي سوء وأذى. وإذن فالأمر يتعلق بظاهرة الامتهان للمرأة، وهذه الأحكام الجاهلية الجائرة صور لهذه الظاهرة التي هي معول هدم في المجتمع، لأنها عدوان على المرأة التي خلقها الله وخلق الرجل من نفس واحدة، والتي هي دعامة أساسية في الخلية الأولى لهذا المجتمع.

والمعالم القرآنية ـ وهي تزيح الركام الجاهلي من طريق الإنسان، وتحرره من ربقة الوثنية وعقابيلها وذيولها هنا وهناك ـ حملت إلينا النقمة على أهل الجاهلية بصنيعهم هذا حيث كان الوعيد بالجزاء المناسب لما يصنعون ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٣٩] أجل هو رب العالمين الذي خلق الناس من نفس واحدة وخلق منها زوجها، والذي إليه المرجع والمآب يوم القيامة، وهناك يجزي هؤلاء المشركين الظالمين وصفهم، وهو قولهم الكذب فيما يبتدعون من أحكام، إنه حكيم عليم.

وأين هذا الذي أشرقت به الكلمات الهاديات: من قوانين الجاهلية التي لا تخضع لمعيار سليم، أو حكم عقلي مبصر على الأقل؟!!

على أن الوعيد لم يقتصر على هذه الآية؛ ففي أعقاب آيات أخر، ذكرت العديد من مخالفات أهل الشرك الصارخة في شأن الأنعام، جاء قوله تعالى بعد ذلك كله: ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٤].

ألا إن الأمة ـ وهي تتبصّر معالم طريقها إلى غد مأمول يستوي فيه البناء المتكامل على سوقه، وتنمو معه فاعلية العطاء الحضاري ـ: مدعوة إلى أن تضع هذا الهدي القرآني في المرأة وإبطال ما كان يصيبها من أوضار الجاهلية، أن تضعه موضعه في البناء على صعيد التربية وإعداد الإنسان المسلم ذكراً كان أو أنثى إعداداً يتسم بالفهم العميق وإدراك الحقائق من منابعها الأصيلة؛ لا أن تظل قضية أساسية كهذه في حدود العرض التاريخي وكفى، لأن الداء عضال في أذهان كثيرين على صعيد ما هي حقيقة موقف الإسلام من المرأة وموقعها من الرسالة والمجتمع ومدى إسهامه في التحوّل إلى ما هو الأفضل.

وأنت واجد أن المنصف الذي يريد مقنعاً: يجد المنهج الرباني غاية في الأحقية والوضوح، والقضية مرتبطة في الإسلام بمنهج البناء وتنمية طاقات الأمة بما يتسق مع الفطرة وكرامة الإنسان وحكمته في خلقه. وهنيئاً للذين إذا ذُكِّروا بآيات الله، وحكمته فيما خلق، لم يَخرُّوا عليها صُمّاً وعُمياناً.

المرأة.. وإزالة الركام الجاهلي
البديل الصالح
«٣»

لعل مما يوجبه تدبر المعالم القرآنية وموقعها في المجتمع من خلال خطابها بالتكليف، أن نذكر هنا أن القرآن الكريم ـ بجانب إبطاله تلك الأحكام الجائرة التي ابتدعها الجاهليون للإناث فيهم ووعيدِهِ إياهم بالعذاب جزاء ما يصنعون ـ قدّم للناس فيما قدّم عن المرأة ووضعها الموضع الطبيعي في الأسرة والمجتمع والأمة، قدّم لهم البديل الإيجابي المناسب الذي يتسق مع الفطرة والتكوين؛ ومن ذلك ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ ما يمكن أن ندعوه بإنسانية العلاقة بين المرء وزوجته، وتقرير سمة التكريم التي مَنّ الله بها على عباده، بأن أنشأ بين الرجل والمرأة تلك العلاقة الزوجية التي تفيض بالمودة والرحمة، بكلمته سبحانه وشرعه. وذلكم هو السَّكن الذي جعله اللهُ من الآيات الدَّالة على حكمته البالغة وهو ما نقع عليه في قوله تعالى في سورة الروم: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الروم: ٢١].

ولست الآن بمعرض الحديث عن الأحكام والتفريعات، فقد أشرت غير مرة إلى أن خطاب التكليف بالإيمان والأحكام كان للرجل والمرأة جميعاً، ووضعُ المسؤولية والجزاء واضح لا ريب فيه. أما الاختلاف بينهما في بعض الأحكام: فمرده طبيعة التكوين التي اقتضت ـ بحكمة الحكيم سبحانه وعدله ـ أن يختص كلاً من الرجل والمرأة بما يناسبه ويتفق مع موقعه الملائم من العمل برسالة الإسلام وبناء المجتمع الفاضل الأمثل.

وأين هذا مما كان من ظلم الجاهلية الذي وصل إلى حد حرمان المرأة من نوع من المطاعم، حيث جعل هذا الطعام حلالاً للذكور ـ لأنهم ذكور ـ حراماً على الإناث اللواتي لا ذنب لهن إلا أنهن إناث... على أن باب المساءة مفتوح بإشراكهن في أكل لحم حرام وهو لحم الميتة ـ كما مر بنا من قبل ـ.

ومن نماذج الظاهرة التي نشير إليها في شأن سمة التكريم، ما نجد في الآية الثانية والسبعين من سورة النحل حيث يقول ذو الجلال والإكرام: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [النحل: ٧٢].

هكذا يضع القرآن القاعدة العريضة التي ينبغي أن يرد إليها التعامل مع المرأة ـ كما شرع الله ـ تلك القاعدة هي أن الله جعل الأزواج من الأنفس ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ [النحل: ٧٢] والذكور والإناث جميعاً مخلوقون من نفس واحدة؛ فالكل في أصل الخلق سواء، ذلك ما تقرَّر في فاتحة سورة النساء المدنية من قول الله تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [النساء: ١] وجاء في الحديث الذي رواه أبو داود «**أنتم بنو آدم وآدم من تراب**»، وعند الترمذي وأحمد: «**الناس من آدم وآدم من تراب**».

إن تقرير الحقيقة التي قامت عليها تلك القاعدة، مع تقرير منٍّ الله على عباده بأن جعل لهم من أنفسهم أزواجاً، ثم تذكيرهم بأنه جعل من الأزواج بنين وحفدة، ولولا التزاوج بين الرجل والمرأة بكلمة الله لما كان بنون ولما كان حفدة.. كل هذا سمة من سمات الظاهرة التي أومأت إليها.. ظاهرة التكريم أو تقرير سمة التكريم التي استبدلها القرآن الكريمُ بما كان يجترحه الجاهليون من ظلم للأنثى وحيف عليها وفي ذلك ـ على صعيد الهدي القرآني ـ ما فيه من الإيذان بمنطلق التعامل والقاعدة التي يجب أن يقوم عليها، في إطار الضوابط التي تمليها شريعة الإسلام.

ومما يزيد هذا الأمر وضوحاً ويؤكده وقد ذكرته آنفاً: ما جاء في سورة الروم - وهي سورة مكية - ضمن مجموعة من الآيات الكريمة الدالة على وجود الله وقدرته، المذكرة بعظمته وحكمته من قوله تعالى في الآية الحادية والعشرين منها: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الروم: ٢١]. أجل إنها آياتٌ ثلاث، علامات مشرقة مضيئة دالّةٌ على عظيم حكمته جل وعلا: خلق لكم من أنفسهم أزواجاً، لتسكنوا إليها، وجعل بينكم مودّة ورحمة. أرأيت؟ خلق الأزواج من نفس، ليكون السّكن الذي تكاد قدرة المكلّف تعجز عن الإحاطة بمدلوله وشرح أبعاده!! وماذا أنت قائل بهذا الجعل الكريم، جَعْلِ المودة والرحمة بين الزوجين بعد أن يسكن كلٌّ منهما إلى الآخر؟ فسبحان الخالق القادر العليم بما يصلح الأنفس، الحكيم بما وضع فيها وما شرع لها من أحكام.

وقد سُبقت الآية المومى إليها بقول الله جل شأنه: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الروم: ٢٠] ولحقها قوله عز وجل: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الروم: ٢١].

أعود إلى تأكيد أنه - جل جلاله - جعل من العلامات الدالة على وجوده، وعظيم حكمته في الكون أن خلق لكم أيها الناس من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودّة ورحمة. ويستوقف الناظر البصيرَ، التذكيرُ بذلك ضمن مجموعة من الآيات التي جرى ذكرها من قريب. وفي دعوة إلى التفكر في هذا الخلق العظيم ودلالته العميقة الشاملة التي تحفز على ضبط التعامل بين الرجل والمرأة بضوابط الكتاب الكريم وبيانه من سنة النبي عليه الصلاة والسلام. ختمت الآية بقوله سبحانه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الروم: ٢١].

ومن إعجاز القرآن: ما تحمل هذه الكلمات النورانية من سمة العموم؛ فهي في مدلولاتها. تتجاوز حدود الزمان والمكان. ذلك بأن السَكَنَ بين الزوجين، وما جعل الله بينهما من مودة ورحمة بعد كونهما جميعاً من نفس واحدة، كل ذلك كان

التـذكـيـر به يوم تنزلت الآيات. وسـيظل ذلك آية من أوضح الآيات الدالة على وجود الله وعظيم قدرته وعلمه المحيط وحكمته؛ لأن الأمر مرتبط بوجود الإنسان وعلاقة الرجل بالمرأة على الوجه المشروع الذي أراده الله، وضوابط ذلك غير منظورة في كثير من الأحيان، مما يدل على أنها من الجعل الإلهي داخل النفس البشرية.

ولكم يحسن المسلمون صنعاً لأنفسهم ولغيرهم ـ على المستوى الحضاري على الأقل ـ إذا وضعوا في الحسبان تلك الحقائق التي تحملها معالم القرآن الكريم، إذن لاستقام لهم بناء الوجود الذاتي بعد تلك الغفوة الطويلة والانبهار بما عند الأعداء في كثير من الأحيان، ونعموا بنماء الطاقات الفاعلة المؤثرة في كيان المجتمع وسلامته من الأذى، وكان من وراء ذلك الطمأنينة بعد القلق، والقوة بعد التشتت والضعف، ولله الأمر من قبل ومن بعد، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

العبرة في نقض
القرآن للموقف الجاهلي من الأنثى

وقفنا فيما سبق من القول على واحدة من سمات البنية الاجتماعية في العصر الجاهلي، وهي التفريق بين الذكور والإناث عطاءً ومنعاً، حيث يبدو التعامل بين الرجل والمرأة مشوباً بنظرة إلى الأنثى تتنافى مع الفطرة، ولا تتفق مع إنسانية الإنسان!! دلنا على ذلك واحد من النماذج أشرق به المعلم القرآني في آية كريمة من سورة الأنعام تَعيبُ واحداً من أحكامٍ شرعها أهلُ الجاهلية من عند أنفسهم تفرّق تفريقاً عشوائياً بين الذكور والإناث: ﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾﴾ [الأنعام: ١٣٩].

لقد كان هذا اللون من الظلم الاجتماعي سمة من سمات المجتمع الجاهلي عندما دعيت قريش إلى الإسلام؛ فليس من علة لحرمان الإناث من كذا إلا كونهن إناثاً، وقد تكون الأنثى زوجة ذلك الرجل الذي يحرمها من طعام معيَّن، تساكنه تحت سقف واحد وهي أم أولاده، وقد تكون بنته أو أخته.. وقد يكنَّ جميعاً... الخ: والذي يؤكد الإصرار على هذه التعلَّة في الذكورة والأنوثة، أنه جائز للأنثى أن تشارك في المطعم إذا كان المولود من تلك الأنعام المعيّنة ميتةً حرامٌ أكلها في الأصل. وما روي عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ـ كما أسلفنا ـ شاهد صدق على بيان المراد، وأن التحريم لا يقتصر على لحم تلك الأنعام فحسب، ولكنه حرمان من اللبن أيضاً، فترى أنه يشربه ذكرانهم ويحرم شربه على إناثهم، وهنالك روايات أخر في ذلك عن عدد من التابعين يرحمهم الله.

والعبرة العظيمة في الموضوع: أن القرآن الكريم لم يتخذ أسلوب العرض التاريخي ليعلم الناس أن أهل الجاهلية كانوا يصنعون كذا، وانتهى الأمر، ولكنه صوّر الواقع ـ كما هو ـ وأعلن شديد الإنكار عليهم، فالعذاب الأليم ينتظرهم جزاء هذا الذي يصنعون من ظلم الأنثى والافتراء على الله ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٣٩] وفي ذلك مافيه من توجيه الأمة ـ عبر الفئة القليلة المؤمنة في مكة ـ إلى أن صنيع الجاهلية مرفوض مستنكر، ويجب أن يحلَّ محلَّه العدل الذي يتسق مع الفطرة وإنسانية الإنسان كما خلقه الله رجلاً كان أو امرأة.

ويمكن القول بأن الوعيد الشديد في آخر الآية على الظلم والافتراء، هو في أحد وجهيه تنديد بالانحراف عن سنة الله في الإنسان والكون يوجب الإقلاعَ عنه، وتنبيهٌ للفئة المؤمنة ـ وهي تخطو خطوتها الأولى على طريق البناء لمجتمع تقوده يُمنى محمد عليه الصلاة والسلام ـ: أن من مهامها ـ بجانب التمكين لعقيدة التوحيد ومحاربة الوثنية بشتى وجوهها، والانتقاص من التقليد الأعمى للآباء والأجداد ـ أن تلتزم بالمنهج الرباني المتكامل الذي يضع الأمور مواضعها، ويشرّع للناس ما يصلح شؤونهم في الدنيا ويسعدهم أن لو عملوا به في الآخرة، ومن ذلك وضعه المرأة موضعها الطبيعي في الأسرة والمجتمع دونما وكس ولا شطط، وبذلك يأخذ كلّ من الرجل والمرأة مكانه الملائم لتكوينه وما فطره الله عليه في أداء الرسالة ومتابعة مسيرتها في دنيا الإنسان.

أما الوجه الآخر لذلك الوعيد: فهو إيذان جازم بأن الذي خلق الخلق، وبيده ملكوت السماوات والأرض، وله الخلق والأمر، هو الذي يشرع لعباده فيحلّل ويحرم، وهو أعلم بما يصلحهم، فيتوافر العدل، وتأخذ إنسانية الإنسان مكانها اللائق على كل صعيد، وتتحقق العبودية لله التي من أجلها خُلق الإنس والجن، ويحظى أهل الهداية يوم القيامة بالفوز الكبير.

وأنت واجد أنه بعد قوله تعالى: ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٩] جاء قوله سبحانه ـ على سبيل التعليل ـ ﴿حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٣٩] أما الذين يشرعون من عند أنفسهم ويفترون الكذب على الله فيقولون: هذا حلال وهذا حرام،

فليسوا من الحقيقة في شيء، وهم أبعد ما يكونون عن النجاح والفلاح كما قال تعالى في آخر سورة النحل: ﴿وَلا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [النحل: ١١٦] وهذه حقيقة قائمة على وجه البسيطة مادامت السماوات والأرض.

فليحذر الذين يخالفون عن أمر الله، فيقدمون ـ باسم الاجتهاد والتحرر من ربقة النصوص ـ العقل ـ ولا ندري أي عقل يريدون ـ على الوحي، ويتجاوزون حدود فهم النصوص من الكتاب والسنة بوسائل العلم الصحيح، إلى تحكيم الهوى، انعتاقاً من الالتزام بما تدل عليه تلك النصوص.. ليحذر هؤلاء مغبة صنيعهم، وتغريرهم بالأمة وأجيالها في الدنيا والآخرة. وزلة العالم ليست كباقي الزلات. والجاهلية جاهلية سواء أكانت الأولى أو ما بعد الأولى، بل قد تكون المؤاخذة بعد تيسير العلم أشد. وما ربك بغافل عما يعمل الظالمون.

وفي عود على بدء: أن تتولى كلمات الله من فوق سبع سماوات ـ وفي العهد المكي ـ وضع الأمور مواضعها في المرأة وموقعها من البنية الاجتماعية على صعيد الأسرة والمجتمع، وتتوعد الذين شرعوا من عند أنفسهم تلك الأحكام الظالمة للأنثى!! كل أولئك جدير أن ينمي مزيداً من وعي المنهج القرآني، والحرص على أخذ الفرد والجماعة بأحكام وتوجيهات هذا المنهج، ضماناً لسلامة البناء المنشود بعد أن وقعت بعض المجتمعات ـ بعيداً عن دينها ـ في تجربة الصواب والخطأ فحصدت أسوأ النتائج.. ولا تسل عما حصل. وسيحصل من الوقوع في غوافل الجاهلية الحديثة التي قد تكون في بعض حالاتها ـ حيث يتوافر الزخرف المضلّل ـ أشد وأنكى من جاهلية الماضي ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: ٤].

مسؤولية المرأة والبناء وسورة التوبة

«١»

متابعة الرحلة مع بعض المعالم القرآنية في سورة التوبة تملي عليَّ ـ فيما يبدو ـ أن أنتقل إلى ساحة أخرى من العطاء في الآيتين السابعة والستين والحادية والسبعين من سورة التوبة. الأولى هي قول الله تعالى: ﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [التوبة: ٦٧].

أما الآية الثانية: فهي قوله تباركت أسماؤه: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ ﴾ [التوبة: ٧١].

والعطاء في هذه الساحة يتعلق بالمرأة من حيث العقيدة والعمل والسلوك؛ فالناظر المتأمل في الآيتين الكريمتين يستوقفه ـ والحديث عن مرتكزات السلوك عند كل من الفريقين أهل النفاق وأهل الإيمان ـ يستوقف ما يرى من ذكر المنافقات مع المنافقين، والمؤمنات مع المؤمنين في أمر بالغ الأهمية، قوامه بنية الفرد ذكراً كان أو أنثى ومسؤوليته على صعيد الفكر والسلوك، وما لذلك من أثر في بنية المجتمع؛ فقد وضعت المرأة والرجل جميعاً موضع التبعة وحمل المسؤولية على هذا الصعيد. الأمر الذي يدل بوضوح على أن المرأة في الإسلام ليست بمنأى عن تبعات الرسالة، عقيدة وعملاً، وأنها مسؤولة عن ذلك مدعوّة إلى الارتفاع إلى المستوى اللائق بأهل الإيمان وعدم التردي في حضيض النفاق المهين. فأهل النفاق ذكورهم وإناثهم يحملون إثم ما يقترفون من الإساءة ومحاولة

التخريب حين يقلبون الآية، فيأمرون بالمنكر، وينهون عن المعروف، كما يحملون جميعاً ذكورهم وإناثهم تبعة أنهم يقبضون أيديهم فيبخلون بالبذل في سبيل الله، سواءً كان على صعيد الإسهام في التكافل الاجتماعي الذي يعود على البنيتين الاجتماعية والاقتصادية بالخير والنماء، أم كان على صعيد الجهاد بالمال، وذلك ببذله في طريق إعداد القوة، أو معاونة المجاهدين؛ فالمؤمنون مأمورون أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، وأبواب الجهاد متنوعة مشرعة؛ ففي الحديث الصحيح الذي رواه البخاري ومسلم وغيرهما عن زيد بن خالد رضي الله عنه يقول رسول الله ﷺ: «**من جهز غازياً في سبيل الله فقد غزا ومن خَلَفَ غازياً في أهله بخير فقد غزا**» وفي رواية «**ومن خلَف غازياً في سبيل الله**»...

وهنالك حقيقة لا تقبل الجدل هي أن أنفس المؤمنين وأموالهم مباعة لله عز وجل بأن لهم الجنة.

ذلكم قول الله تعالى في سورة التوبة: ﴿**إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١١﴾**﴾ [التوبة: ١١١].

ففيما وراء الجهاد بالمال المطلوب من المؤمنين والمؤمنات: تقوم المرأة في خدمة الجهاد والمجاهدين بما يتناسب مع طبيعة تكوينها ولا يخالف حكماً من أحكام شريعة الله.

وفي متابعة لعطاء الكلمة الهادية يلاحظ وضعُ المنافقات مع المنافقين موضع المسؤولية عن كل ما يُقترف من الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف وقبض الأيدي، ووضعن شريكات للرجال المنافقين في سوء العاقبة عند الله ﴿**نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ**﴾ [التوبة: ٦٧].

وإسناد ذلك إلى ضمير المذكر الجمع إنما كان على التغليب الذي هو الطابع الأغلب في خطاب التكليف في القرآن والسنة، وإذن فالمنافقون والمنافقات تركوا طاعة الله واستعاضوا عنها بالضلالة والانحراف، فتركهم الله وانحسرت عنهم رحمته. والمنافقون والمنافقات هم الفاسقون الخارجون عن طريق الحق الداخلون في طريق الضلالة.

ومما يؤكد ذلك: أن العقوبة الأخروية من جحيم وطرد من رحمة الله وعذاب مقيم: أوعد بها الله المنافقين جميعاً؛ دون تفريق بين منافق ومنافقة. وذلك ما جاء صريحاً في قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾ [التوبة: ٦٨].

هكذا كُرّمت المرأة بخطاب التكليف وحُمِّلت أمانة المسؤولية، كما حُمِّلَهَا الرجل وكانت شريكتَه في العقوبة، كما كانت شريكته في الجناية إن حصل ذلك. فكونها امرأةً لا يعفيها ـ في حكم الإسلام ـ من المؤاخذة على ما تقترف أو تعاون على اقترافهِ في حق الجماعة والمجتمع، من آثام ومزالق لا يجني المجتمعُ من ورائها إلا الخرابَ والدمار، أن لو قُدِّر للمنافقين والمنافقات أن ينجحوا فيما يفعلون في أمر بالمنكر ونهي عن المعروف وإمساك عن بذل المال، تنمية لقدرة المجتمع على العطاء، أو إسهاماً في إعداد القوة المستطاعة والمعاونة على القتال في سبيل الله. ولكان من وراء ذلك الشر المستطير. وسبحان اللطيف الخبير.

مع سورة التوبة
البناء الاجتماعي.. وموقع المرأة
«٢»

مع البناء الاجتماعي وموقع المرأة من هذا البناء في ضوء الهداية القرآنية، صحبنا فيما سلف من قريب، لوناً من ألوان العطاء على هذه الساحة دلت عليه ـ فيما دلت ـ آيات تتعلق بركائز السلوك عند المنافقين والمنافقات وما ينالهم من سوء العاقبة بدأت بالآية السابعة والستين من سورة التوبة وهي قوله تعالى: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّنْ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٦٧].

فمع هذه التعرية للسلوك الهدام عند أهل النفاق بركائزه المشار إليها، نجد الكلمة القرآنية تكشف عن موقع المرأة في البنية الاجتماعية، وهو موقع يضعها موضع المسؤولية مع الرجل عما يكون من تصرفات لا تقتصر مساءتها على صاحبها، بل تسيء إلى المجتمع والأمة وتغضب الله ورسوله. وبذلك تكون شريكتَه فيما يكون من الحكم على هذه التصرفات، وفيما تكون من عاقبة وخيمة في الدنيا ويوم الدين.

والمفترض أن يبرهن الرجال والنساء في الأمة، على صدق انتمائهم إليها، بوصفها أمةً تحمل رسالة الهدى والخير... أن يبرهنوا على ذلك بالإيمان الذي يترجمونه إلى سلوك عملي بنّاء، يكون من مظاهره أنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويبذلون في سبيل الله.

ولكن المنافقين والمنافقات بدلاً من ذلك: يتقدمون إلى المجتمع، بل إلى الأمة بصورة عكسية باعثها فراغ القلب من الإيمان، ومحاولة ستر ذلك بالكذب والبهتان: فتراهم عناصر تخريب وزعزعة لكيان الجماعة، إنهم يأمرون بالمنكر

بدلاً من أن يأمروا بالمعروف، وينهون عن المعروف بدلاً من أن ينهوا عن المنكر، ويمتدُّ أثر النفاق إلى جيوبهم؛ فتراهم أشحاء على الخير، يقبضون أيديهم، فلا تَبِضُّ بقطرة من العطاء.

وما دامت الآية القرآنية قد صرحت بأن المنافقين والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم.. فإن المسؤولية تلاحق المرأة ولو لم تظهر هي على الساحة ما دامت قد وقعت في شرك النفاق، ورضيت بصنيع المنافقين، ولم تبذل ما تستطيع من جهد في حدود قدرتها وإمكاناتها زوجةً أماً أو بنتاً أو أختاً... أو ذات سلطان تعليمي أو تربوي أو تثقيفي بشكل عام. وكونها أنثى لا يعفيها من التبعة المرتبطة بها بحال من الأحوال. ولا يؤاخذ إلا من هو أهل للمؤاخذة. والحق أن قوله تعالى: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّنْ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٦٧] يقدم للأمة على صعيد الواقع وفي كل الظروف: مقولة يجب أن تضاعف من تنبه العاملين في حقول البناء إلى المهمة الكبيرة الملقاة على عاتق المرأة، ليكون ذلك في الحسبان عند التنهيج لبناء الإنسان وإعداده ذكراً كان أو أنثى..

كما يجب أن تشد هذه المقولة المرأة إلى التبصر بأحكام دينها، وتبيّن موقعها في هذه الحياة، والحجم الكبير لمسؤوليتها التي جعلت منها شريكة الرجل في الانحراف إن هي رضيت ولم تبذل المستطاع في تغييره فضلاً عن أن تسهم به ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧] إنه ميدان فسيح له زواياه وخباياه ولكل من المرأة والرجل مزالق يَجُرُّ إليها الشيطان والهوى والتقليد الأعمى في كثير من الأحيان.

يا للهول: أمرٌ بالمنكر ونهيٌ عن المعروف وقبض للأيدي عن الخير.. عظائم وطامات، المرأة المنافقة والرجل المنافق شريكان في تبعاتها في الدنيا ويوم الدين؛ لأن المنافقين والمنافقات بعضهم من بعض.

لكم أتمنى أن تُصيخ المرأة المسلمة السمع ـ في مجتمعاتنا ـ لهذه المقولة العظيمة التي يطرحها المعلم القرآني!! إذن لأيقَنت أنه بدلاً من تزجية الوقت ـ كما يفعل بعضهنّ ـ بالاقتصار على الندب على الحقوق المسلوبة أو ملء الوقت بما لا ينفع وقد يؤذي ويؤذي، تجب المبادرة ـ مع المطالبة بالحق الشرعي المسلوب في احتكام إلى الشريعة ـ إلى القيام بالواجب الذي يقتضيه صدق الانتماء إلى الأمة في عقيدتها وقيمها، لأن المرأة ليست بمنجاة من المسؤولية ـ فالنساء شقائق الرجال ـ والعاقل من يتبصر في العواقب، ولقد ختمت الآية بقوله تعالى في المنافقين والمنافقات جميعاً ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [التوبة: ٦٧] ثم قال جل ذكره: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾ [التوبة: ٦٨].

عِظم مسؤولية المرأة.. في البناء وسورة التوبة

«٣»

ما نزال مع سورة التوبة وما تحمله بعض آيها ـ على صعيد البناء الاجتماعي ـ من الهداية إلى موقع المرأة ومكانها من الإسهام في حمل العبء كما أراد الإسلام، الأمرُ الذي يضعها موضع المسؤولية، ويحمّلها تبعة ما تقدم لنفسها وللمجتمع؛ فإن كان خيراً: فالمثوبة ومرضاة الله، وإن كان غير ذلك: فالعقوبة والطرد من رحمة الله. ولقد كنا صحبنا فيما سبق من القول الآيتين السابعة والستين والثامنة والستين اللتين كشفتا أن المنافقين والمنافقات بعضهم من بعض، يجترحون السيئات، ولا يبالون بارتكاب أي موبقة من شأنها إشاعة الضلال والتخريب، ولذلك توعدهم الله بسوء العاقبة، دونما تمييز بين الذكور والإناث، لأن الجميع تُطبق على قلوبهم ظلمة النفاق وينطلقون في المجتمع هدّامين معوقين، وفي ذلك ما ينبه المرأة أشد التنبيه على تحديد موقفها الإيماني والبعد عن النفاق وكل ما هو منه بسبب.

وفي نقلة إلى الآيتين الحادية والسبعين والثانية والسبعين نجد ما يؤكد مسؤولية المراة ولكن من خلال الكشف عن ركائز السلوك البنّاء عند المؤمنين والمؤمنات، حيث تقفنا الكلمة القرآنية على إكرام الله لها بالمثوبة وحسن العاقبة، كما أكرم الرجل بذلك، لما أنها كانت شريكته في العمل البنّاء الخيِّر الذي أعقب تلك المثوبة؛ ذلكم قوله تبارك وتعالى في شأن أهل الإيمان مقابل ما مضى في شأن أهل النفاق: **﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ**

أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾ [التوبة: ٧١-٧٢].

هنالك جُعل المنافقاتُ شريكاتٍ للمنافقين بالتحرك غير المسؤول، فالجميع بعضهم من بعض، لا يرتفعونَ إلى مستوى حمل رسالة الإسلام، والانضباط بما تمليه أخوة العقيدة، من تناصر وتعاون على الخير، كما جُعلن شريكاتٍ للمنافقين بتلك التصرفات التي تحمل طابع الهدم والانحراف عن الصراط السوي؛ من أمر بالمنكر ونهي عن المعروف، وشح عن البذل، وغير ذلك من المظالم التي توقع المجتمع بما يشبه الضياع وتعود على الأمة بالضعف في مواجهة ما يصادفها من تحديات.

وهنا: جَعَلَ المؤمنات شريكات للمؤمنين بالتحرك المسؤول المنضبط بضوابط الشريعة، ضمن إطار من أخوة العقيدة وآصرة العقيدة. نعمت الآصرة التي تحمل على التناصر والتعاون على كل ما فيه مرضاة الله وسلامة بناء المجتمع، وتنمية قدرة الأمة لتكون دائماً على مستوى مسؤولياتها الكبار ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١].

وبذلك تعلن هذه المقولة الإيمانية إعلانها في تقرير ما تصنعه مشاركة المرأة الرجل في تحقيق ما يقتضيه الإيمان وتمليه أخوة العقيدة، وتدعو أهل الإيمان مؤمنين ومؤمنات أن لا يبخلوا بالعطاء ـ وهم يخوضون غمار الحياة ويبنون الحضارة اللائقة بالإنسان ـ وأن يكونوا رجالاً ونساءً على ذُكْرٍ دائم من تلك الحقيقة.

كما جعل هؤلاء المؤمنات شريكات للمؤمنين في السلوك المنسَجم مع العقيدة، والذي يجمع إلى مزاولة البناء: إحاطة المجتمع بما يضمن سلامة البناء وحراسة ذلك المجتمع من عوامل الضلالة والتخلف ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [التوبة: ٧١].

ترى أيّ مكرمة يمكن أن تكون كهذه المكرمة؟ هذه المرأة التي طالت رحلتها على أرض الشقاء والمهانة قبل الإسلام، ترتفع بها الرسالة المحمدية إلى مستوى التكليف والمسؤولية مع الرجل، وذلك ـ في حدود تكوينها وأهليتها ـ فلا يستأثر الرجال دون النساء بالتكليف وكرامة حمل المسؤولية!! وأنت ترى الآية صريحة بأن المؤمنين والمؤمنات جميعاً يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ولكل من المرأة والرجل ميدانه في ذلك، وهم أيضاً يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة. ويجمع ذلك كله طاعة الله ورسوله.

ومن هنا كانت الرحمة عامة للجميع عاقبة لصنيعهم ﴿أُوْلَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧١].

وما أحسب إنساناً أوتي حظاً من الفهم والإنصاف، يماري في أن ما دلت عليه الآية، ليس مقصوراً على زمن أو فئة من الرجال والنساء، ولكنه عام يضع كلاً من المرأة والرجل أمام مسؤوليته في ضوء العقيدة التي آمن بها وعاهد الله على تحقيق منهجها في دنيا الواقع. والعاقل من عرف الحق وكان شجاعاً أميناً في اتباعه.

سورة التوبة
المسؤولية المشتركة.. في البناء
وأثر مقومات السلوك
«٤»

ترى أليس من حقنا أن نفهم من مجموع الآيتين اللتين كنا بصددهما والاستضاءة بنورهما من قريب والمبدوءة أولاهما بقول الله تعالى: ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١] أليس من حقنا أن نفهم أن المقومات التي يتميز بها سلوك المؤمنين والمؤمنات، من أمر بالمعروف ونهي عن المنكر وإقامة للصلاة وإيتاءٍ للزكاة وطاعة لله ورسوله... كل أولئك يعود على هؤلاء المؤمنين والمؤمنات بالخير في الدنيا والآخرة؟.

ففي الدنيا ترى التوفيق في البناء الذي سلمت له القواعد والمرتكزات على صعيد الفرد والمجتمع، لأنه قام على العقيدة الصحيحة والعمل الصالح المثمر، وترى التمكين للأمة في الأرض، وقدرتها على أن تكون سيدة الموقف فيما تريد أن تقول أو تفعل في حالات السلم والحرب.

وفي الآخرة جناتٌ تجري من تحتها الأنهار ورضوانٌ من الله أكبر وذلك هو الفوز العظيم، فقد ختمت الآية الأولى بقوله تبارك وتعالى: ﴿أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧١] وانظر إلى سين الاستقبال القريب الذي يشعر بوقوع الرحمة يقيناً إذ لم يقل (سوف يرحمهم)، وهو سبحانه عزيز غالب على أمره، يُعزُّهم في الدنيا ويمكِّن لهم دينهم الذي ارتضى لهم بما نصروا دينه واستقاموا على الطريقة مؤمنين ومؤمنات، ثم جاء الحديث عن وعد الله لهم في الآخرة والله لا يخلف الميعاد.

وهذا الوعد أيضاً للمؤمنين والمؤمنات على السواء، فلكل درجات مما عملوا، والله لا يضيع عمل عامل من المؤمنين ذكراً كان أو أنثى ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾ [التوبة: ٧٢].

ومن هنا يمكن القول، بأن ما دل عليه المعلم القرآني، من تقرير مسؤولية المرأة وما ينالها من المثوبة أو العقوبة ثمرةً لما قدّمت: قد صحبه أمران أساسيان:

أما أولهما: فهو ما كان من تبصير المرأة، بانعكاس عملها وسلوكها على المجتمع وواقع الأمة، فهي بإيمانها واستقامتها على أمر الله ووعيها لرسالتها في ضوء الإسلام تستطيع ـ بعون الله ـ أن تفعل شيئاً كثيراً على صعيد البناء وتحقيق الوجود الذاتي للأمة. ويوم كانت المرأة المسلمة في تاريخ هذه الأمة على المستوى المطلوب إيماناً ووعياً، واستمساكاً صادقاً بالكتاب والسنة.. فاضت الأرض بالأبطال المجاهدين والعلماء العاملين، وحَمَلَة المسؤولية الصادقين المخلصين..

وكلما تخلفت المرأة المسلمة، فكانت دون المستوى المطلوب عقيدة ووعياً وتمثلاً لقيم الإسلام، وهي تمارس مهماتها في البيت أو في أي موضع تأذن به الشريعة في المجتمع.. كلمّا تخلفت المرأة المسلمة على هذه الشاكلة: كانت خسارة الأمة كبيرة والمسافة بين واقعها وبين ما تتطلع إليه أطول.

وأما الثاني: فهو ما يثمر ذلك كله من إنشاء الحافز القوي للعمل المنضبط بضوابط الدين من داخل النفس عند المرأة المسلمة، الحافزِ الذي يدفع إلى العمل عن طمأنينة ورضى، والإسهام في دفع قافلة البناء الشامل المتكامل وتنمية طاقات الأمة إلى الأمام؛ لأن الكلمة القرآنية قد أشعرت المرأة بوجودها عندما كلفتها ورفعتها إلى مستوى المسؤولية، فهي ليست إضافة باردة إلى جسم الأمة ولكنها ـ وقد خالطت قلبها بشاشة الإيمان ـ على طريق البناء الحضاري كما يريده الإسلام.

مـرة أخـرى: إن هداية القـرآن بذكـر المنافـقـات مع المنافـقين، والمؤمنات مع المؤمنين، وبيـان مـا يتـرتب على سلوك هؤلاء وأولئك من العـواقب في الدنيـا والآخـرة دونما تفـريق بين الذكـور والإناث ـ مع أن خطاب التكليف في القـرآن والسنـة وارد ـ في الأعم الأغلب ـ على صـيـغـة التـغليب، فـتـرى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ والمقصود يا أيتها اللواتي آمن، ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ والمقصود: وأقمن الصلاة وآتين الزكاة.

أقـول: إن الهـداية في ذلك أمـر بالغ الخطورة ـ والله أعلم ـ في ضـرورة التبصر الواعي بالحقائق التي يطرحها الكتاب العزيز وبيانه من السنة المطهرة عن موقع كل من الرجل والمرأة على ساحة التكليف والمسؤولية ـ مع اختصاص كل منهما في بعض الأحكام التي هي ثمرة التكوين كما أراده العليم الحكيم ـ وأن تؤخذ العناية بالأنثى في ضوء ما قرر القرآن وبيانه في شأنها مأخذ الجد في كل ساحة من ساحات التكوين، وأن يكون واضحاً في الذهن أن ذلك من الأمور الدينية لا محالة.

كل أولئك من أجل سلامة التصور والتطبيق جميعاً والنجاة عند الله يوم الدين الأمـر الذي تنعكس آثاره الطيبـة النافـعـة على كثيـر من حـقـول البناء، وتنمي الطاقات الفاعلة المؤثرة وتحسن استثمارها عند المرأة والرجل جميعاً في حدود شريعة الله الخالدة.

وسبحان من لا يُضيع عمل عامل من ذكر أو أنثى وهو الحكيم الخبير.

سورة الأحزاب
وتوكيد مسؤولية المرأة الدينية.. في البناء

«٥»

نعود إلى تأكيد أن ما تضمنته الآيات التي استضأنا بنورها فيما سلف من القول. والتي جاءت على ذكر المنافقين والمنافقات وطابع سلوكهم وما أعقبهم الله على ذلك، كما جاءت على المؤمنين والمؤمنات وطابع سلوكهم وما أثمر ذلك من الخير.. كل أولئك يحمل أهمية بالغة على طريق البناء سلباً وضُراً فيما يجترح المنافقون والمنافقات. وإيجاباً ونفعاً شاملاً فيما يقوم به المؤمنون والمؤمنات.

ولعل هذا ـ والله أعلم ـ من الحكم التي تكمن وراء التصريح بذكر المنافقات مع المنافقين مرة عند المشاركة في اقتراف مآثم التخريب، ومرة أخرى عند المشاركة في العقوبة، وكذلك الأمر في ذكر المؤمنات مع المؤمنين، إذ لم يُكتف بذكرهنَّ عند العمل الطيب النافع، بل أعيد ذلك مرة أخرى عند المثوبة حيث جعلهن الله شريكات الرجال في ذلك.

فإن صح هذا الاجتهاد: فهي حكمة تضاف إلى ما سبق أن ذكرناه فيما مضى. ولعل مما يزيد هذه القضية وضوحاً ويعطيها أبعادها على صعيد بناء الفرد المسلم ذكراً كان أو أنثى، أن نشير إلى ما جاء في سورة الأحزاب، كما سنرى من ذكر النساء مع الرجال ـ وقد أشرنا إليه في مناسبة سبقت ـ بعشر صفات إيمانية وعملية لها دلالتها على صعيد التكامل المطلوب في التكوين والسلوك.

نشير إليها هنا وقد اتسعت خطوات البناء في العهد المدني، وكان لزاماً أن يتابع المسلمون طريقهم الشائكة بناءً وإنماءً في الداخل، يمكِّنان لشريعة الله أن تحكم المجتمع وترفع للحضارة المثلى قواعدها النظيفة القوية، ومواجهةً لتحديات

الأعداء من المشركين واليهود في الخارج أولئك الذين كانت الجسور بينهم وبين المنافقينَ موصولة بمكرٍ وخبث بالغَين، وكلما عظمت المسؤوليات، كانت الحاجة إلى الإنسان القادر على تحملها أشد وأكثر.

ها نحن أولاء نقرأ في الآية الخامسة والعشرين من السورة المشار إليها قول الله جلت حكمته: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾ [الأحزاب: ٣٥].

ولقد تلا هذه الآية الكريمة قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾ [الأحزاب: ٣٦] وهي الآية التي مهدت ـ بإعجاز ـ لقصة زيد بن حارثة وزينب بنت عمة رسول الله ﷺ، وما كان من إعلام الله نبيَّه عليه الصلاة والسلام أن الله مزوِّجه بزينب بعد أن يطلقها زيد، وهو مَا كَان يخفيه رسول الله ودل عليه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾﴾ [الأحزاب: ٣٧].

والحق أننا إذا سلكنا سبيل الدقةِ في تصور ساحات البناء التي كان مطلوباً من المسلمين أن يرتادوها في تلك الحقبة، والمجتمعُ المسلمُ يوسع الخطو إلى الغاية ضمن ظروف داخل المدينة وما حولها، وظروف في الجزيرة العربية وما يتصل بحدودها من دولتي فارس والروم وذيولهما كل من جهته..

إذا سلكنا سبيل الدقة هذه، أمكن لنا أن نقدر بإحسانٍ ـ ذكر هذه الصفات العشر التي تمثل التكامل المطلق في الإنابة إلى الله والسلوك، وتشير إلى أن صياغة المسلم والمسلمة يجب أن تكون على هذه الشاكلة، بحيث يكون سلوك الفرد المسلم ترجمة عملية أمينة لعقيدته، على أرض الواقع والحياة.

وأقول: الفرد المسلم، لأن الذين ائتمِنُوا على عملية البناء الشامل، ائتمنوا عليها في ضوء ما طرح القرآن وبيَّنت السنة من مشاركة المرأة للرجل في المسؤولية بحدود أهليتها وما شرع لها من أحكام.

وإذا كان الأمر كذلك: فممّا يتناسب مع ثقل المهمة وضرورة أن يكون كل من الرجل والمرأة على مستوى القيام بها: أن يدلَّ القرآن على ما يجب أن يتصف به ويتربى عليه أهل الإيمان ذكورهم وإناثهم؛ فلم يقتصر الأمر في الآية على ذكر الرجال على طريقة التغليب كما هي الحال في الأعم الأغلب، بل جاءت الآية على ذكر المسلمات مع المسلمين والمؤمنات مع المؤمنين والقانتات مع القانتين، والصادقات مع الصادقين، والصابرات مع الصابرين، والخاشعات مع الخاشعين، والمتصدقات مع المتصدقين، والصائمات مع الصائمين والحافظات فروجهن مع الحافظين، والذاكرات الله كثيراً مع الذاكرين، ثم أعلنت البشارة العظيمة للجميع» ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥].

أقول بعد هذا: لا تثريب في تقرير أن دلالة هذا الذي نومئ إليه في نص الآية الكريمة على ساحة العقيدة والعمل في شأن الرجل والمرأة لا يخفى على ذي بصيرة، وطوبى لأهل البصائر المتفتحة وحسن مآبٍ.

بناء الخلية الأولى..
وتحرير المرأة من ربقة الجاهلية

«١»

في نظرة إلى واحدة من ضمانات الاستقرار الاجتماعي بدءاً من الخلية الأولى في المجتمع ـ وهي الأسرة ـ حيث الدعوة إلى تمتين العلاقة بين الزوجين، وأن يصلحا بينهما، إن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً لأن الصلح خير.. في نظرة إلى واحدة من هذه الضمانات التي تحفظ على البنية الاجتماعية سلامتها.. صحبنا آية كريمة من سورة النساء هي قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ وَإِن تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾﴾ [النساء: ١٢٨].

ويهدي المعلم القرآني في الآية الكريمة إلى أن قضية الصلح هذه موصولة الأسباب بمنهج التعامل بين الزوجين ـ على العموم ـ وما حملت شرعة الإسلام من أحكام تقضي على رواسب الجاهلية فيما كان من نظرة هابطة إلى المرأة، تتنافى مع إنسانيتها والعديد من حقوقها في الحياة.

والناظر في سورة النساء ـ وهي تحمل كثيراً من الأحكام المتعلقة بالنساء، وبالأسرة على وجه العموم ـ لا يعوزه أن يجد في عطاء الكتاب الكريم وهدايته، ذلك الحض على معاشرة الزوجة بالمعروف مع الإشارة إلى أن ذلكم هو البديل الطبيعي الصالح، لما كانت عليه الجاهلية من ظلم للمرأة وتحكم بها سلباً لإرادتها في نفسها وفي ذاتها مما يُوهن الخلية الأولى، ويقود المجتمع إلى الزعزعة والانحلال. فلقد طلعت شمس الإسلام على الدنيا وشرعُ رسولِ الله ﷺ يزاول عملية البناء الكبرى، والمجتمع يحمل فيما يحمل من موروثات الجاهلية: أن

الرجل إذا مات، فأولياؤه أحق بامرأته، والأمرُ في البت بشأنها متروك إليهم، فهي مسلوبة الإرادة لا يحق لها أن تقول: (لا) فيما يريدون، فإن شاء بعضهم تزوجها وإن شاؤوا زوجوها، وإذا عنّ لهم أن لا يزوجوها فلهم ذلك أيضاً. ولكن عملية البناء التي حملتها هداية الكتاب العزيز تأبى هذا الظلم للمرأة وهي ركن ركين في الأسرة، والناس كلهم ذكورهم وإناثهم مخلوقون من نفس واحدة! من أجل ذلك جاءت الآيات الكريمة تعلن إعلانها في دنيا الناس أن ما عليه الجاهلية من ظلم للمرأة وعدوان على إنسانيتها مرفوض وأن سلامة الخلية الأولى في المجتمع تقتضي سلامة العلاقة بين الزوجين وأن تكون المعاشرة بالمعروف والله ولي التوفيق.

بعد الجاهلية: إنسانية المرأة كما أراد الإسلام وأثر ذلك في بناء الخلية الأولى

«٢»

كان طبيعياً ـ ومنهج البناء في القرآن يولي الخلية الأولى في المجتمع ما هي جديرة به من الاهتمام ـ أن ينقض كل ما كانت عليه الجاهلية من تعامل ظالم للمرأة، يتجافى مع إنسانيتها ويحول دونها ودون أن تظل تلك الطاقة الفاعلة المؤثرة، التي تعمل بحرية وكرامة، فتكون الأسرة تلك اللبنة الصالحة في مجتمع يراد له الاستقرار والازدهار، وأن يقدم مع ذلك النقض، البديل الصالح الذي يقتضيه المنهج الرباني السليم.

ومن نماذج النقض الذي نلمح إليه وبديله المطروح على ساحة التعامل بين الزوجين. ما نرى في سورة النساء بدءاً من الآية التاسعة عشرة التي ألمحنا إليها فيما سبق. ذلكم قول الله جلت حكمته في سورة النساء: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾ وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾ وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾﴾ [النساء: ١٩- ٢٢] وما تشير إليه الآية الأولى من سلب لإرادة المرأة في نفسها وفي مالها، قد ألمحنا إليه فيما سبق من القول، دونما إغفال للنهي الصريح عنه في ظل ما اقتضاه القرآن منهجاً للبناء، وكان البديل عن ذلك ما نجده في قوله تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩].

وفي صحيح النصوص الثابتة من السنة المطهرة ما يضع أيدينا على سبب نزول ما نزل من تلكم الآيات الكريمة، الأمر الذي يكشف عن النهج المسلوك في هذا الجانب من جوانب البناء، حيث التعفية على المستنقع الآسن، والاستبدالُ به النقاءَ والصفاءَ، أخرج البخاري وأبو داود والنسائي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كانوا إذا مات الرجل كان أولياؤه أحق بامرأته، إن شاء بعضهم تزوجها وإن شاؤوا زوجوها، وإن شاؤوا لم يزوجوها، فهم أحق بها من أهلها، فنزلت هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلاَّ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾﴾ [النساء: ١٩]. ودلالة ذلك بيِّنَةٌ على سلامة المنهج في تنقية المجتمع من تلكم الرواسب الجاهلية، وفي تنمية المسؤولية عند المؤمنين لإقرارِ التغيير المطلوب، إذ بدئ النداء بالإصلاح ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [النساء: ١٩] وسبحان العليم الحكيم الذي شرع لعباده ما فيه سعادة الدارين.

المرأة المسلمة.. والبناء على أرض الواقع

الهجرة.. وسورة الممتحنة

«١»

أشرت غير مرة إلى أن هناك عدداً من الآيات الكريمات في كتاب الله عز وجل مما تنزل في شأن النساء المسلمات: تدل بوضوح على أن ما كان من العناية بشأن المرأة في منهج البناء والاتجاه بمعاملتها اتجاهاً ينقذها مما كانت فيه أيام الجاهلية ـ كما أوضحنا في عدد من المواطن مؤذنٌ بالأهمية التي يعطيها ذلك المنهج المبارك للمرأة المسلمة على صعيد الالتزام بحمل المسؤولية والنهوض بالتبعة التي يلقيها الإيمان على عاتق الفرد في المجتمع المسلم، سواء في ذلك الرجلُ والمرأةُ، ولكن كلٌّ في حدود تكوينه واستعداده وما أهّله الله له بعلمه وحكمته سبحانه، وبذلك يتحقق التكامل ولا يضيع على الأمة شيء من الطاقات والإمكانات.

من هذه الآيات التي نلمح إليها: ما جاء في شأن الهجرة وحكم المؤمنات اللاتي يهاجرن. وعندما نقول: الهجرة ومشاركة المرأة فيها، فمدلول ذلك مدلول واسع وعميق في تاريخ هذه الأمة، وفي الحكم على المرأة في المجتمع الإسلامي أين هو موقعها على ساحته؟ وما يجب من إعدادها، لتكون كفاء هذا الموقع، عقيدة وعلماً وسلوكاً ووعياً لما يقتضيه الانتماء إلى خير أمة أخرجت للناس، تلك الأمة التي شرَّفها الله بالرسالة الخاتمة، وحمَّلها أمانة العمل بها ونشرها في العالمين.

ففي الآية التاسعة من سورة الممتحنة نقرأ قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ

أن تَنكحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٠)﴾ [الممتحنة: ١٠] ثم قال سبحانه: ﴿وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ (١١)﴾ [الممتحنة: ١١].

لقد جاءت سورة الفتح على ذكر صلح الحديبية الذي وقع بين رسول الله ﷺ وبين كفار قريش، فكان من بنوده: «على أن لا يأتيك منا رجل وإن كان على دينك إلا رددته إلينا» وفي رواية ـ «على أن لا يأتيك منا أحد ـ وإن كان على دينك ـ إلا رددته إلينا». وهذا قول عروة والضحاك وعبد الرحمن بن زيد والزهري وغيرهم. وذكرت السيرة في المقابل «ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يردوه عليه».

فالنص في وثيقة الصلح على تلك الرواية الثانية التي ذهب إليها عروة وعدد من التابعين لا يفرق بين رجل وامرأة «على أن لا يأتيك منا أحد وإن كان على دينك إلا رددته إلينا» فكلمة «أحد» تشمل الرجل والمرأة، وعلى هذا تكون هذه الآية الكريمة ناسخة لما جاء في وثيقة الصلح من هذه الناحية، أو مخصصة لعمومه، بحيث يظل المسلمون ملزمين بإعادة من يأتيهم مؤمناً من قريش إذا كان رجلاً... ولنا في كلمات قادمات إن شاء الله عودة إلى الآيتين الكريمتين نستضيء بهداهما ونرى من خلالهما بعض الأبعاد التي يعنيها تنزل قرآن في شأن هجرة المؤمنات في بناء المجتمع الأمثل، وتنمية طاقاته ضمن ظروف مملوءة بالمتاعب والعقبات لم يذللها إلا الإيمان الصادق ـ عند الرجل والمرأة ـ والرغبة فيما عند الله من المثوبة والخير بعد الأخذ بكل سبب مستطاع.

وتبارك ربنا الذي لا يضيع عمل عامل من ذكر أو أنثى ما دامت القاعدة الإيمانية متوافرة والإخلاص موجوداً، وهو ـ جل شأنه ـ وليّ الصابرين المتقين.

المرأة.. والبناء على أرض الواقع. الهجرة.. وسورة الممتحنة

«٢»

لعل التصور السليم للهجرة التي وقعت قبل الفتح من مكة إلى المدينة وما كان لها من أهمية عظيمة في تاريخ التحويل الذي رمت إليه دعوة الإسلام.. لعل التصور السليم لذلك يزيد من وضوح الرؤية فيما أعطى القرآن الكريم من أهمية لمشاركة المرأة فيها؛ فهذه الهجرة الفاضلة تميَّز أهلها تميزاً ظاهراً لما أنها كانت الإعلان العملي عن صدق الإيمان بالتنازل عن أرض المولد والنشأة وعن المال والعصبية وما إلى ذلك، والمغادرةَ إلى أرض أخرى في سبيل الله وحباً لله ولرسوله عليه الصلاة والسلام.. ولولا أن الإيمان كان عند هذا المهاجر أغلى من أي شيء يربطه بهذه الدنيا لما هاجر.. ومن هنا قال عليه الصلاة والسلام فيما رواه البخاري وغيره عن ابن عباس رضي الله عنهما: «**لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية وإذا استُنفرتم فانفروا**»؛ فالهجرة من مكة إلى المدينة قبل الفتح انتهت بالفتح لأن مكة المكرمة صارت دار إسلام، وذهب أولئك المهاجرون بما كتب لهم من الفضل كفاء ما أسهموا في تلك النقلة العظيمة على ساحة البناء الذي حملته الرسالة الخالدة. وبما قدموا من البرهان العملي على أن العقيدة التي أشرقت في قلوبهم، دونها الوطن والقرابة والمال والمتاع.

فكل من هاجر لله ورسوله: ناله ذلك الفضل رجلاً كان أو امرأة، وتخصيص النساء المهاجرات بقرآن يتلى حتى يرث الله الأرض ومن عليها، دليل واضح ـ والله أعلم ـ على البعد الذي أعطاه الإسلام لتحرك المرأة ـ في حدود إمكاناتها ـ على ساحة البناء، وإعطاء التحويل الذي دعا إليه رسول الله عليه الصلاة

والسلام صورته العملية على أرض الواقع في كل ميدان من الميادين. وقد أشرت غير مرة فيما سبق من القول، إلى ما جاء في سورة الممتحنة من قول الله تباركت أسماؤه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُم مَّا أَنفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾ [الممتحنة: ١٠-١١].

إن الكلمة القرآنية حين تعلن إعلانها في أهمية الهجرة من مكة إلى المدينة وعدم تخلف المرآة عنها، وبيان الأحكام المتعلقة بذلك.. حين تعلن إعلانها في هذا كله ـ وميادين البناء تمور بالحركة والعمل والنشاط ـ تقيم الدليل على أن تنمية الوعي عند الفتاة المسلمة لحقيقة دينها وما جاء به كتاب ربها وسنة نبيها: ضرورة ملحة من ضرورات البناء المتكامل السليم. وليت أنا نعطي هذه الحقيقة ما هي جديرة به من الاهتمام على الصعيدين المنهجي والعملي، إذن لكان من وراء ذلك خيرٌ كثيرٌ!!.

المرأة المسلمة والبناء.. والعطاء المتجدد
وسورة الممتحنة
«٣»

عناية القرآن بهجرة النساء المؤمنات من مكة إلى المدينة مشاركة منهن في عملية التحويل المنشود من الجاهلية إلى الإسلام، في منهج يستبدل النظامَ بالفوضى، وتكريمَ المرأة ووضعَها موضعها الطبيعي في الأسرة والمجتمع بإهدار وجودها ومصادرة إرادتها في كثير من الأحيان، هذه العناية مصحوبة ببيان الأحكام، لا يقتصر أثرها على الحِقبة الزمنية التي كانت محتواها يوم حدَّدت هذه الحقبة البعد العميق الذي أعطي لمشاركة المرأة في حدود تكوينها، وفطرتها في عملية البناء الكبرى، بدءاً من الهجرة إلى الله ورسوله، ولكنها ـ وهي من القضايا المهمة في رحلة البناء الذاتي للأمة ـ غزيرة العطاء دائماً في دنيا الواقع، وتحديد ما يجب أن تكون عليه المرأة المسلمة في عالم يضج بالمتغيرات، وينوء بمفهومات تتنافى مع الفطرة، وبتزييف الحقائق عند الحديث عن المرأة وموقعها الطبيعي في الأسرة والمجتمع.. وهذا يقودنا إلى معاودة النظر ـ وفاء بموعد سبق ـ في قول الله تباركت أسماؤه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾ [الممتحنة: ١٠-١١].

ويلاحظ أن هذا الذي أنزل الله تعالى في المؤمنات المهاجرات ذو علاقة بواحد من البنود التي وردت في صلح الحديبية ـ كما أسلفنا من قبل ـ إذ كان فيما أشرط سهيل بن عمرو على النبي ﷺ ـ كما في بعض الروايات ـ أنه لا يأتيك منا أحد وإن كان على دينك إلا رددته إلينا وخليت بيننا وبينه، فكان ممن ردّهم ﷺ يومئذ أبا جندل إلى أبيه سهيل بن عمرو.. وجاءت المؤمنات مهاجرات، وكانت أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط ـ كما روى البخاري وغيره عن مروان بن الحكم والمسور بن مخرمة ـ فيمن خرج إلى رسول الله ﷺ يومئذ وهي عاتق، فجاء أهلها يسألون عنها النبي ﷺ أن يرجعها إليهم، فلم يرجعها حتى أنزل الله فيهن: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُم مَّا أَنفَقُوا**﴾.. [الممتحنة: ١٠] العاتق: كما في القاموس: الجارية أول ما أدركت، أو التي لم تتزوج.

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما ـ كما ذكر القرطبي ـ أنه بعد أن كُتب كتابُ صلح الحديبية وخُتم جاءت سعيدة بنت الحارث الأسلمية مسلمةً بعد فراغ الكتاب، وأقبل زوجها مسافر من بني مخزوم ـ وقيل هو صيفي بن الراهب ـ في طلبها وهو كافر، فقال: يا محمد اردد عليَّ امرأتي فإنك قد شرطت أن ترد علينا من أتاك منا وهذه طية الكتاب لم تجف فأنزل الله: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ**﴾ [الممتحنة: ١٠] أي من دار الكفر في دار الإسلام في المدينة: فذاك فامتحنوهن.

إن العطاء الذي تحمله الآية والوقائع التي كانت سبب النزول: عطاء متجدد، تبدو الحاجة إليه متجددة أيضاً، خصوصاً والأمة على عتبة تمخض يؤذن بيقظة تطل تباشيرها من خلال المصاعب والمتغيرات. ومطلوب لها حشد الطاقات وتسييرها في قنواتها الطبيعية دون إهدار لشيء من عطاء الرجل أو المرأة والله يحكم لا مُعَقب لحكمه وهو اللطيف الخبير!

تربية المرأة والرجل على الإخلاص في البناء وأهمية الموارد البشرية

«٤»

كما عني المنهج القرآني بالموارد البشرية عند البناء والعمل على تحويل الطاقات البشرية وغيرها إلى طاقات منتجة، تأخذ مواقعها كما ينبغي.. عني في الوقت نفسه بتربية الإنسان على العقيدة والإخلاص لله عز وجل فيما يعمل، الأمر الذي يضمن مع الإنتاج المثمر: استمرارية العمل والقدرة على تجنيبه سلطان الهوى والشهوة وما يعرض من رَغَب أو رَهَب قد يؤديان إلى الإخفاق والانقطاع..

ومن هذه الزاوية النيرة على سلّم البناء كانت النيَّة الصادقة ركناً ركيناً في قبول العمل عند الله عز وجل؛ ففي الحديث الصحيح الذي رواه الشيخان وأحمد وأصحاب السنن وتلقاه العلماء بالقبول «**إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه**» فمن كانت هجرته من مكة إلى المدينة قبل الفتح ـ إلى الله ورسوله نية وقصداً: فهجرته إلى الله ورسوله قبولاً وعملاً، ومن أخذت هجرته وجهةً غير هذه الوجهة: فله ما نوى بتلك الهجرة.

حملني على الإلماح إلى هذه الفكرة صريح ما جاء في الآية التي سعدنا باصطحابها من قريب في سورة الممتحنة وهي قول الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ**﴾.. [الممتحنة: ١٠] .

فالأهمية التي أعطيت لمشاركة النساء المؤمنات في الهجرة حيث تجاوزن ـ على ضعفهن ـ العقبات كلها، وما تلاقيه المرأة من صعوبات في ترك بيتها وزوجها وما إلى ذلك، وهاجرن إلى الله ورسوله.. هذه الأهمية صحبها الحرص على أن يكون المهاجرات على المستوى الإيماني المطلوب، ولذلك شرع لهن الامتحان لاعتبار مدى الصدق في الهجرة.. فإذا كان الحديث الصحيح قد أوضح بأن الهجرة الصحيحة هي ما كانت إلى الله ورسوله. أما من كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه.. فإن الرسول عليه الصلاة والسلام قد أُمر بأن يمتحن المهاجرات؛ فمن ثبت أنها هاجرت إلى الله ورسوله لا لغرض دون ذلك: فالواجب أن لا تعاد إلى الكفار وتبقى في دار الإسلام لأنها دارُها ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا﴾ [الممتحنة: ١٠] وكان الامتحان ـ كما تدل الروايات بمجموعها ـ «بالله ما خرجت من بغض زوج وبالله ما خرجت رغبة عن أرض إلى أرض، وبالله ما خرجت التماساً لدنيا، وبالله ما خرجت إلا حباً لله ورسوله». وقال قتادة: كانت مِحنتُهنَّ أن يستحلفن بالله ما أخرجكن النشوز وما أخرجكن إلا حب الإسلام وأهله، وحرصٌ عليه؟ فإذا قلن ذلك: قُبِل ذلك منهن.

وهذا الذي نرى، أليس من أوضح الأدلة على الأصعدة كافة: الثقافيةِ والعملية التطبيقية، على ما ينتظر المرأة المؤمنة المهاجرة من إسهام في عملية التغيير إلى ما هو الأفضل.. لأن هذه الدقة في الامتحان تشي بالمهمة التي تنتظر هؤلاء الممتحنات عليهن الرحمة والرضوان؟!

أرأيت إلى قول قتادة رحمه الله: «**أن يُستحلفن بالله ما أخرجكن النشوز وما أخرجكن إلا حب الإسلام وأهله وحرص عليه**» سبحان الله أيٌّ مستوى هذا المستوى؟ حب الإسلام وأهله، حرص على الإسلام. وفي ذلك كله مرضاة الله ورسوله، ودليل أن الإيمان قد ارتفع بالمرأة المسلمة إلى أن تكون قادرة على الإتيان

بما لا يستطيعه إلا الموفقون أولو العقيدة الصحيحة والعزيمة الصادقة فتهاجر في سبيل الله على هذا وهي تعني ما تقول وما تفعل في ضوء رسالتها والقضية التي هي منها وإليها.

فإذا حسن بناء المرأة على المنهج الرباني: كان بمقدورها أن تعطي كثيراً كثيراً على ساحتي البناء والإنماء في كل الميادين التي تتمكن معها من العطاء الخيِّر في ضوء أحكام الشرعة المباركة وآدابها وأخلاقها.

إحكام البناء.. وامتحان المهاجرات المؤمنات

«٥»

المتتبع لرحلة البناء الفريدة في تاريخ الإنسان والتي قادها محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه، يجدر به ـ وهو يذكر الواقع في المجتمعات الإسلامية ـ أن يتبصّر صنيعه عليه الصلاة والسلام في ميدان الإفادة من الموارد البشرية، وإعداد الإنسان ـ ذكراً أو أنثى ـ كيما يكون طاقة فاعلة في تلك الرحلة التي هي لخير الفرد والمجتمع في كل زمان ومكان، أن لو وعتها الأجيال حق الوعي، وأدركت طبيعة مرتكزاتها في كتاب الله العزيز وسلوكه العملي صلوات الله وسلامة عليه وسيرته على وجه العموم... أقول هذا بين يدي الإشارة إلى ما كان منه ﷺ بعد نزول قوله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُم مَّا أَنفَقُوا﴾** [الممتحنة: ١٠] فقد عمل عليه الصلاة والسلام بما جاءت به الآية الكريمة، فعمد إلى امتحان أولئك المهاجرات وفق الذي جاء به الأمر الإلهي.. قام بهذا الامتحان وهو يزاول مهام البناء ما دق منها وما جلَّ، ولا يني يُعنى أشد العناية بالموارد البشرية، ويعمل على فسح المجال للفرد المسلم ذكراً كان أو أنثى كيما يأخذ مكانه الطبيعي في بناء المجتمع وتنمية طاقاته وإمكاناته، وفق الذي جاءت به الدعوة الجديدة حين وجهت إلى بناء سامق متكامل يقوم على العقيدة الصحيحة: «**لا إله إلا الله محمد رسول الله**».

فقد روى البخاري ومسلم عن ابن شهاب الزهري قال: أخبرني عروة بن الزبير أن عائشة رضي عنها زوج النبي ﷺ قالت: «كانت المؤمنات إذا هاجرن إلى النبي ﷺ يمتحنهن بقول الله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ﴾**[الممتحنة: ١٢] إلى آخر الآية.. قالت عائشة: فمن أقر بهذا

الشرط من المؤمنات فقد أقرَّ بالمحنة، فكان رسول الله ﷺ إذا أقررن بذلك من قولهنّ، قال لهن رسول الله ﷺ: «**انطلقن فقد بايعتكن**» لا والله ما مست يد رسول الله ﷺ يد امرأة قط، غير أنه بايعهن بالكلام والله ما أخذ رسول الله ﷺ على النساء إلا بما أمر الله، يقول لهن إذا أخذ عليهن: «قد بايعتكن كلاماً» هذا لفظ البخاري. ويبدو أن الشرط الذي تعنيه عائشة: هو الإيمان، فقد أخرج الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما: «**كان امتحانهن أن يشهدن أن لا إله إلا الله محمد رسول الله**». ولا تعارض بين هذه الرواية وبين ما سبق لاشتمالها على زيادة لم تذكر هناك.

هكذا كان الامتحان جسر البيعة، فمن تجاوزته بنجاح بايعها رسول الله ﷺ، والواقع أن البيعة قد تنزلت بشأنها آية تكشف عن مشروعيتها ويتبين الذي كان يبايعهن رسول الله عليه. ذلكم قول الله تبارك وتعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾**﴾ [الممتحنة: ١٢].

سبحان من أنزل كتابه الكريم هدىً للناس ورحمة، ليخرجهم به من الظلمات إلى النور.. أيُّ اهتمام بسلامة البناء في المجتمع وإقامته على أسس سليمة تسهم فيها الطاقة البشرية التي يوجه أصحابَها ـ ذكوراً كان أو إناثاً ـ عقيدةٌ صحيحة توحّد الوجهة وترتفع بالفرد والجماعة إلى التنزُّه عن كل ما يتنافى مع العبودية الصادقة لله عز وجل ويزين حركتهم في المجتمع سلوك ينأى بهم عن كل ما كانت عليه الجاهلية الهدامة بسبيل.

استجابة المرأة للهداية القرآنية.. والبنية الجديدة للمجتمع

«٦»

أشرت من قريب إلى أن العلاقة واضحة بين تلكما القضيتين الكبيرتين امتحان المؤمنات المهاجرات، ومبايعتهن رسول الله عليه الصلاة والسلام.

والناظر فيما تنزل بشأن الامتحان والبيعة: يتبدى له لون من ألوان المعالجة للمشكلات الطارئة، وكيف أن المنهج الرباني لا يحابي ولا يماري، فالمشكلة الطارئة إنما يكون حلُّها على هديِ الإسلام وما شرع الله لعباده. وإذن: فهنالك متابعة لحركة المجتمع وإلقاءٌ للأضواء على كل لبنة من لبناته كيف تكون وأين تكون؟ وهنالك بجانب ذلك منهج تقوم عليه هذه المتابعة، كيما تكون الحلول جزءاً من عملية البناء التي يشارك فيها المؤمنون والمؤمنات كلٌّ حسب تكوينه وإمكاناته.

والحق أن عدداً من الأحكام كان يترتب على رضى رسول الله ﷺ عمن يمتحنها وتبرز له سلامة الوجهة عندها، وهي أحكام ذات ارتباط تام بالبنية الاجتماعية في كيان المجتمع الجديد، ولها ما لها من انعكاسات على البنية الاقتصادية من بعض الوجوه ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ [الممتحنة: ١٠] فلا يحق أن تظل مؤمنة على عصمة كافر. والملاحظ أن هذه الآية هي التي حرمت المسلمات على المشركين، فأحدثت أساساً جديداً من أسس البنية الاجتماعية تجعل اختلاف العقيدة مانعاً من الزواج، بل من استمرار الزوجية، وقد كان جائزاً في ابتداء الإسلام أن يتزوج المشرك المؤمنة، وانظر إلى تنمية الوجود الذاتي عند المسلمين ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ﴾ [الممتحنة: ١٠] أصبحوا مسؤولين عن عدم

إرجاعهن إلى الكفار ،والعلة في ذلك: هذا الحكم الجديد الذي يقيم الأسرة على نظام جديد تأخذ عقيدة التوحيد فيه مكانها المحوري ﴿لا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ [الممتحنة: ١٠] وانظر إلى هذه الإشراقة في النهج الرباني، هذا الرجل الكافر الذي فرّقت بينه وبين زوجه العقيدة: لا يضيع حقه المالي ﴿وَآتُوهُم مَّا أَنفَقُوا﴾ [الممتحنة: ١٠] الخطاب للمؤمنين يؤمرون بأن يؤتوا الأزواج المشركين ما أنفقوا.

وأباح الله للمسلمين أن يتزوجوا بهؤلاء المؤمنات المهاجرات من دار الكفر إلى دار الإسلام اللواتي فُرق بينهن وبين أزواجهن الكفار: إذا توافرت شروط الزواج. ﴿وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ [الممتحنة: ١٠] أي فإن أعطيتموهن صَدُقاتهن، فتزوجوهنَّ بشرطه من انقضاء العدة ووجود الولي وغير ذلك.

وفي المقابل نهي المؤمنون عن أن يمسكوا بعصم الكوافر، فلا يجوز للمسلم أن يبقي في عصمته واحدة منهن.. ذلكم قوله تعالى: ﴿وَلا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾ [الممتحنة: ١٠] وسرعان ما استجاب الصحابة رضوان الله عليهم لهذا الحكم شأنهم في الاستجابة ابتغاء رضوان الله عز وجل، فقد روى البخاري عن عروة عن المسور بن مخرَمة ومروان بن الحكم «أن رسول الله ﷺ لما عاهد كفار قريش يوم الحديبية جاءه نساء من المؤمنات، فأنزل الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ﴾ [الممتحنة: ١٠] إلى قوله: ﴿وَلا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾ [الممتحنة: ١٠] فطلق عمر بن الخطاب رضي الله عنه امرأتين، تزوج إحداهما معاوية بن أبي سفيان والأخرى صفوان بن أمية».

ثم قال تعالى: ﴿وَاسْأَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنفَقُوا﴾ [الممتحنة: ١٠] أي وطالبوا بما أنفقتم على أزواجكم اللائي يذهبن إلى الكفار إن ذهبن، وليطالبوا بما أنفقوا على أزواجهم اللاتي هاجرن إلى المسلمين. وختمت الآية ببيان أن ما جعل من استثناء النساء كما ورد في صلح الحديبية وما تلا ذلك من حلول هو حكم الله الحكيم بين خلقه وهو أعلم بما يصلحهم ﴿ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ

وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الممتحنة: ١٠] إن الهداية الحكيمة، التي بنت مجتمع التوحيد والرحمة على أنقاض الجاهلية في وثنيتها وفوضاها قادرة اليوم وكلَّ يوم على إقامة المجتمع المتماسك القوي ولكن الامتحان الكبير في أن يوجد الصادقون المخلصون الصابرون.

موقف المهاجرات المؤمنات.. والبناء الاجتماعي

«٧»

الإفادة من الماضي للحاضر على صعيد البناء: قوامها ـ دائماً ـ أن يكون هنالك رصد صحيح لحركة المجتمع ومقدار ارتباط المنجزات بالقيم التي كانت تحفِّز الفرد والجماعة إلى تلك الحركة. والمجتمع المسلم الذي رسمت خطا التحرك فيه هداية الكتاب العزيز، وترجمتْها إلى وجود عملي في شتى الميادين سنةُ النبي عليه الصلاة والسلام.. هذا المجتمع فارق ما بينه وبين المجتمعات الأخرى: تلك النقلة الهائلة من الجاهلية إلى الإسلام، حيث اختلفت البنية الثانية عن البنية الأولى اختلافاً جذرياً في شتى الجوانب هنا وهناك. وكانت العمدة في ذلك صياغة الإنسان على عقيدة التوحيد، وتربيته على مقتضيات تلك العقيدة في ميدان العمل والسلوك، وتنمية الإدراك لديه بأن التمكين في الدنيا والسعادة في الآخرة منوطان بتحقيق ما دعا إليه المنهج الرباني الذي هو دعوة الحياة بكل ما في هذه الكلمة من معنى.

وقد رأينا فيما سبق من القول في هذا الشأن، قبساً مما يشير إليه في ميدان الموارد البشرية وإسهام المرأة المسلمة في بناء الأسرة والمجتمع حيث الأحكام المتعلقة بهجرة النساء المؤمنات والتغيير الواضح في البناء الاجتماعي.. رأينا قبساً مما يشير إليه في ذلك كله قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُم مَّا أَنفَقُوا وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [الممتحنة: ١٠] والأحكام التي أشارت إليها

الآية الكريمة والتي دلت على المنهج الذي أنشئ الواقع الجديد في المجتمع المسلم عليه.. هذه الأحكام من الخير أن يصحب الإشارة إليها إشارة إلى تلك المضمونات التي حملتها الكلمة القرآنية بشأن مبايعة رسول الله ﷺ أولئك المؤمنات المهاجرات الصادقات.. ذلكم ما جاء في قول الله جلت حكمته ـ كما سبق أن أشرنا ـ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ [الممتحنة: ١٢].

وليس من مكرور القول أن نشير هنا مرة أخرى إلى الأهمية التي تحملها تلك البيعة للنساء، لما أنها تدل على ما ينتظر المرأة المسلمة ـ التي تصوغ سلوكها وفق تلك القيم ـ: من مهامٍّ عظيمة تتعلق بصياغة المجتمع الجديد في ضوء المنهج الرباني، فالله تبارك وتعالى يأمر ـ من عليائه ـ نبيه عليه الصلاة والسلام بأن يبايع أولئك المؤمنات، إذا جئنه يبايعنه على تلك الأمور التي بُدئت بأن لا يشركن بالله شيئاً، وختمت بأن لا يعصينه ﷺ في معروف وأن يستغفر لهن الله إن الله غفور رحيم.

وإلى أن نلتقي على صحبة الآية الكريمة في تلكم المضمونات.. أود الإشارة إلى أن من المساءة البالغة للفتاة المسلمة وللأسرة والمجتمع: أن تكون هنالك ـ والعياذ بالله ـ جفوة بين تلك الفتاة وبين الهداية التي تحملها معالم الكتاب العزيز كما يراها المتدبر المتبصر، حيث توضع الأمور في نصابها الطبيعي ويأخذ الفرد المسلم ـ رجلاً كان أو امرأة ـ مكانه على ساحة العقيدة والعمل والسلوك، الأمر الذي لا غنى عنه في التغيير المرتقب والعودة إلى منابع الذاتية والأصالة والله المستعان وإليه المصير.

مبايعة النساء.. والبناء.. ونقلة الإسهام العظيم

«١»

المبايعة الفاذة في تاريخ البشرية، تلك التي ألمحنا إليها آنفاً، وهي مبايعة رسول الله ﷺ المؤمنات المهاجرات، عنوان واضح على الذي أرادته الهداية القرآنية للمرأة سمة للتحول في المعتقد والسلوك، من الجاهلية الجهلاء إلى إسلام الوجه لله في الأحوال كلها بصدق واستقامة.. الأمر الذي يقدرها على أن تكون شيئاً مذكوراً في بناء الأسرة المسلمة والمجتمع المسلم..

وفي كلمات سلفت أتينا على ذكر الآية التي حملت أمر الله رسوله ﷺ بمبايعة المؤمنات إذا جئنه يبايعنه وما كانت عليه تلك المبايعة التي عملت عملها في التاريخ اليوم لاصطحاب مضموناتها ولو بالإشارة العابرة التي لا يتسع المقام لأكثر منها.. والآية الكريمة هي قول الله جل شأنه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ [الممتحنة: ١٢].

بدأت هذه البنود التي أشرقت بها الآية، بالقاعدة الأساسية التي يقوم عليها التشريع والسلوك وهي التوحيد الخالص لله عز وجل الذي تمثل في قوله سبحانه: ﴿عَلَىٰ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا﴾ [الممتحنة: ١٢] لأنه إذا صلح أمر العقيدة ـ كما ينبغي ـ كانت الطمأنينة إلى ما وراء ذلك بإذن الله.

وجاء بعد ذلك ـ وهي إشارة إلى السلوك الاجتماعي ـ عدم السرقة وعدم الزنا، وأن لا يقتلن أولادهن صنيع بعض الجاهلين من الوأد أو القتل من الإملاق أو خشية الإملاق ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾﴾ [التكوير: ٨-٩]. ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ﴾ [الأنعام: ١٥١]. ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ﴾ [الإسراء: ٣١].

وقد لا تقتل هي ولكن مطلوب منها أن لا تعاون ولا ترضى، بل أن تستنكر وتقاوم ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً.

على أن القتل ـ يعم فيما يعم ـ قتل الجنين والعياذ بالله، فهي تبايع على أن لا يحصل شيء من ذلك كله البتة. ثم تبع ذلك قوله تعالى: ﴿وَلا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ [الممتحنة: ١٢]. قال ابن عباس رضي الله عنهما: يعني لا يُلحِقنَ بأزواجهن غير أولادهم. وكذا قال مقاتل. وإذا ذكرنا ما كانت عليه الجاهلية في هذا الأمر وأمثاله ـ ومنه نكاح الاستبضاع والعياذ بالله ـ عرفنا أيَّ مستوى من الطهر وحفظ الأنساب ترمي إليه الكلمة الربانية الهادية من وراء هذا البند من بنود المبايعة، وينتمي ما ذهب إليه ابن عباس إلى ما روى أبو داود بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول حين نزلت آية الملاعنة: «**أيما امرأة أدخلت على قوم من ليس منهم فليست من الله في شيء ولن يدخلها الله الجنة، وأيما رجل جحد ولده وهو ينظر إليه، احتجب الله منه وفضحه على رؤوس الأولين والآخرين**» وكان ختام ذلك كله قوله تعالى: ﴿وَلا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ [الممتحنة: ١٢] وهي قضية جامعة، أي لا يعصينك فيما أمرتهن من معروف ونهيتهن عن منكر. وقد روى البخاري عن عكرمة عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَلا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ [الممتحنة: ١٢] قال: إنما هو شرط شرطه الله للنساء. وقال ميمون بن مهران: لم يجعل الله طاعة لنبيه إلا في المعروف والمعروف طاعة.

وما أكرمها رحمة بالنساء أن تختم الآية بقوله تعالى: ﴿فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الممتحنة: ١٢]. ومن حديث رواه الإمام أحمد بسنده عن أميمة بنت رقيقة قالت: أتيت رسول الله ﷺ في نساء لنبايعه، فأخذ علينا ما في القرآن ﴿أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا﴾ [الممتحنة: ١٢] وقال: **فيما استطعتن وأطقتن، قلنا: الله ورسوله** أرحم **بنا من أنفسنا**.

وبعد: فما أحسبني بحاجة إلى إقامة الدليل على أن المرأة المسلمة إذا أريد لها أن تعي مضمونات الهداية الربانية في الكتاب والسنة ـ كالذي نرى في تلك النماذج المضيئة ـ فلا بد لها من تربية صحيحة وإعداد قويم في منهجية تراعي طبيعة التكوين وما هو منوط بالمرأة من مسؤوليات؛ والله الموفق.

مرة أخرى مع مبايعة النساء..
ودرس في التحويل
«٢»

وقفنا المعلم القرآني في قول قريب على منارات مضيئة من عطاء الآية التي عرضت لمبايعة النساء وهي قول الله جل شأنه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ [الممتحنة: ١٢].

والحق أن في الآية الكريمة ـ كما في الكتاب العزيز كله ـ ما يدل بكثير من الوضوح على الواقعية التي يتسم بها المنهج الرباني، فتكامل البناء في المجتمع لا بد له من أن يأخذ كلٌّ من الرجل والمرأة نمه أبعاده الحقيقية على ساحة العقيدة والعمل والسلوك.. ومن هنا كانت القضايا المطروحة للمبايعة في الآية الكريمة قضايا ذات دلالة عميقة على مراعاة ما يجب أن تكون عليه بنية الأسرة بخاصة، وبنية المجتمع بعامة.. فالمرأة في ذاتها، وفي كونها بنتاً، وزوجة، وأماً، ورائدة تعلم وتربي، ومسؤولة في أي ميدان من الميادين التي تتسق مع فطرتها واستعدادها.. هذه المرأة كلما أحكم بناؤها على العقيدة الصحيحة وسلامة السلوك: كان انعكاس ذلك على البيت والمجتمع انعكاساً طيباً يغني كلاً منهما وينير طريقه، أما إهمالها: أو عدم الإحكام في بنائها، فحدث عن مساوئ ذلك في نفسها وفي بيتها وولدها وفي كل ميدان تكون هي حسب تكوينها مسؤولة فيه.

إن الدرس العظيم الذي لا ينبغي تجاهله، ولا يصح في ميزان العقيدة والعقل السليم بل والإخلاص في العمل مجافاته واستبدال سواه به. الدرس العظيم في التحويل؛ كيف ترسم مناهجه ومن أين تكون البداية.. والناظر فيما كان عليه

المجتمع الجاهلي وما تحقق بقيادة محمد عليه الصلاة والسلام، من النقلة العميقة إلى المجتمع المسلم حيث البناء والإنماء وحشد الطاقات على أساس من العقيدة، وما تحمله الرسالة الخاتمة من عطاء... أجل: إن الناظر في ذلك بشيء من التجرد والنصفة. يتسنى له إدراك الدلالة العظيمة لمبايعة المؤمنات المهاجرات وللقضايا التي كانت عليها البيعة: ﴿أَن لاَّ يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلا يَسْرِقْنَ وَلا يَزْنِينَ وَلا يَقْتُلْنَ أَوْلادَهُنَّ وَلا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ [الممتحنة: ١٢].

تبصر في كل واحدة من هذه القضايا على حدة، ثم انظر إليها مترابطة ترتد كلها إلى سلوك ينبثق من العقيدة الصحيحة... إنك إن فعلت ذلك أدركت أن هذه اللمحة المضيئة من لمحات الهداية.. ـ وكل لمحات الهداية مضيء ـ.. قد عهدت إلى المرأة التي تسلم لها العقيدة الصحيحة والسلوك المستقيم بالتعفية على خصال من خصال الجاهلية التي كانت عناصر هدم للإنسان والبيت والمجتمع.. كما عهدت إليها بالإسهام بصورة عملية في البناء الجديد المطلوب.

أن يتنزل على رسول الله قرآن يتلى في مبايعة رسول الله النساء المؤمنات على ما فيه هدم الموروث الجاهلي والإسهام في بناء المجتمع وفق المنهج الرباني.. ويتلو ذلك المسلمون والمسلمات حتى يرث الله الأرض ومن عليها.. أن يقع ذلك كله ـ وكلام الله محفوظ يحفظه سبحانه ـ أمانة في الأعناق ومسؤولية بالغة الأهمية، لا يُخرج من عهدتها إلا العمل على ربط المرأة المسلمة اليوم بالأسباب التي كونت المرأة المسلمة بالأمس مع الإفادة من كل جديد يكون في خدمة الهدف الكبير.

وضرورة ذلك لا يماري فيها منصف يخشى الله واليوم الآخر ويقدر رسالة المرأة في المجتمع المسلم حق قدرها ولا يغفل عن قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحجرات: ١٨].

المبايعة.. والبناء والهدي المحمدي

«٣»

يقع الناظر في حديث النبي عليه الصلاة والسلام على صور إيجابية لأولئك المؤمنات اللاتي أسعدهن الله بمبايعته صلوات الله وسلامه عليه على ما جاء في الآية الكريمة التي أسعدنا اصطحابها في ذلك ولا تخلو تلك، الصور من دلالة على عظيم ما تفعل العقيدة حين تخالط بشاشتها القلوب، وكيف أنها تزيل الغشاوة، وتبصِّر الطريق، وتستنفد طاقات كانت معطلة قابعة في كهوف الوثنية والشرك.. أو مهدرة تضيع مع الخرافة وإهدار كرامة الإنسان.

ولقد دلت بعض الروايات على أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان يضيف إلى القضايا التي وردت في الآية الكريمة قضايا أخرى، هي منها بسبب، وتتصل اتصالاً وثيقاً ببناء المجتمع الفاضل كما أرادته الهداية الربانية على أنقاض تلك الموروثات الجاهلية التي عانى منها المجتمع كثيراً، لما فيها من وثنية وعدوان على البناء الاجتماعي والاقتصادي، بل وعلى الوجود الذاتي.

وقد رأينا فيما سبق من القول ما روى الإمام أحمد عن أميمة بنت رقيقة قالت: أتيت رسول الله ﷺ في نساء لنبايعه، فأخذ علينا ما في القرآن ﴿أَن لاَّ يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا﴾ [الممتحنة: ١٢].. وقال: «**فيما استطعتن وأطقتن**» قلنا: «**الله ورسوله أرحم بنا من أنفسنا**». وروى الإمام أحمد أيضاً بسنده إلى سلمى بنت قيس وكانت إحدى خالات رسول الله ﷺ، وكانت إحدى نساء بني عدي بن النجار قالت: «جئت رسول الله ﷺ نبايعه في نسوة من الأنصار، فلما شرط علينا ألا نشركَ بالله شيئاً ولا نسرقَ ولا نزنَي، ولا نقتلَ أولادنا ولا نأتيَ ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيَه في معروف، قال: «**ولا تغشُشن أزواجكن**»

قالت: فبايعناه ثم انصرفنا، فَقُلتُ لامرأةٍ منهن: ارجعي فسلي رسول الله ﷺ، ما غش أزواجنا؟ قال: فسألته، فقال: «**تأخذ ماله فتحابي به غيره**» وعلاقة ذلك بالسرقة وأمانة المرأة في مال زوجها والوضع الاقتصادي للأسرة، والكيان التربوي واضحة. وفي رواية للبخاري أنه عليه الصلاة والسلام بعد أن قرأ على عدد من النساء جئن يبايعنه راغبات راضيات: ما جاء في الآية الكريمة بدءاً من أن لا يشركن بالله شيئاً: «**نهاهن عن النياحة**». وعلاقة النياحة وما يرافقها من شق الجيوب وخمش الوجوه وغير ذلك من أقوال وأفعال سيئة، بالوثنية لا تحتاج إلى بيان.

وها هي ذي صورة عملية تعكس بعض ما كانت تثمره مبايعة النساء المؤمنات على الصعيد العملي في المجتمع، كما يرى ذلك رسول الله عليه الصلاة والسلام، فقد روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: شهدت الصلاة يوم الفطر مع رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان، فكلُّهم يصليها قبل الخطبة ثم يخطب بَعْدُ، فنزل نبي الله ﷺ فكأني أنظر إليه حين يُجلِّس الرجال بيده، ثم أقبل يشقهم حتى أتى النساء مع بلال فقال: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لاَّ يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلا يَسْرِقْنَ وَلا يَزْنِينَ وَلا يَقْتُلْنَ أَوْلادَهُنَّ وَلا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ**﴾ [الممتحنة: ١٢] حتى فرغ من الآية كلها. ثم قال حين فرغ: «أنتن على ذلك»؟ فقالت امرأة واحدة لم يجبه غيرها ـ لا يدري الحسن ـ وهو أحد رواة الحديث ـ من هي؟ قال: فتصدقن. قال: «وبسط بلال ثوبه فجعلن يلقين الفَتَخَ والخواتيم في ثوب بلال» الفَتَخُ: خواتيم تكاد تلبس في الأيدي، أو خواتيم بلا فصوص.

هكذا دلهن رسول الله على البرهان العملي على صدق الإيمان والبيعة، وعلَّم أمته كيف تكون التربية بالممارسة والتطبيق العملي للبذل في سبيل الله، كيما يحُكَمَ البناء وتسلم له القوة والاستمرار.

المرأة.. والبناء

على صعيد التمكين في الدنيا والمثوبة في الآخرة

مما أشرنا إليه في عهد قريب من القول في المغزى الذي تدل عليه مبايعة رسول الله ﷺ للمؤمنات المهاجرات على تلك القضايا التي نجدها في قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ [الممتحنة: ١٢]. والحق أن هذا البعد الذي نجده للمرأة المؤمنة حين تبنى على العقيدة، وسلامة التصور واستقامة السلوك: يجعلها تأخذ مكانها الطبيعي على الحال التي أقامها الله عليها، فتكون لها المشاركة ـ حسب استعدادها ـ في تحمل ما يعهد إليها به من مسؤوليات، وفي الوقت نفسه يكون لها حظها من المثوبة على عمل الخير ومن العقوبة على ما هو عكس ذلك. ها نحن أولاء نقرأ في أواخر سورة آل عمران أدعية من سماهم الله أولي الألباب ومنها: ﴿رَّبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾﴾ [آل عمران: ١٩٣-١٩٤]. ونقرأ في أعقاب ذلك قول الله الرحمن الرحيم: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ﴿١٩٦﴾﴾ [آل عمران: ١٩٥-١٩٦].

والملاحظ أنه عند ذكر أولي الألباب في قوله تعالى قبل ذلك: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا

سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ [آل عمران: ١٩٠-١٩١]. الملاحظ أن اللفظ جاء على التغليب فرأينا (أولي الألباب) ورأينا ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ﴾ [آل عمران: ١٩١]. وحين جاء ذكر الاستجابة وإعطاء كل عامل ما يستحق: كان عدم الاكتفاء بما يفهم من التغليب، وصرّحت الآية بالذكر والأنثى ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ﴾ [آل عمران: ١٩٥]. والمخاطبون هم أولو الألباب.

ولا يفوتنا هنا ـ والأمثلة كثيرة ـ أن نشير إلى ما جاء في سورة الفتح من التصريح بذكر المؤمنات مع المؤمنين في معرض ما كان من فضل الله تعالى بالفتح والتمكين في الدنيا والفوز بالجنة في الآخرة: فبعد الآيات التي تحدثت عن الفتح جاء قول الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾﴾ [الفتح: ٤] وانظر ماذا تبع ذلك؟ تبع ذلك قوله تعالى: ﴿لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾﴾ [الفتح: ٥] ثم قال جل شأنه: ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾﴾ [الفتح: ٦] فالمرأة العاقلة هي التي تعقل عن ربها ما أراد الله منها ولها في كتابه العزيز ومابيَّنه لها نبيها المصطفى عليه الصلاة والسلام. وكلما أحسنت الصلة بمنابع تلكم الهداية كان حظها أوفر في المشاركة الفعالة في كل ما من شأنه إنشاء الواقع الخير المرتقب والفوز بمرضاة الله يوم يقف الناس لرب العالمين. ها نحن أولاء نقرأ أيضاً في سورة الحديد ما ينبئ عن حسن العاقبة أو سوئها في الآخرة دون تفريق بين الذكور والإناث: قول الله تعالى: ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا

وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿١٣﴾ ﴾ [الحديد: ١١-١٣] ثم يستوقفك حوار يكشف عن سبب ما حل بالمنافقين والمنافقات من الويل والثبور، وأنه بسبب ما جنت أيديهم، ذلكم قوله تعالى: ﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿١٤﴾ ﴾ [الحديد: ١٤].

البناء.. وما يجب من إعداد المرأة المسلمة وتربيتها

أشرنا فيما سبق إلى ما يكون للمرأة المسلمة إذا أُحسن إعدادها وتربيتها على العقيدة والمعرفة وعلى سلامة التصور والسلوك، واستطاعت أن تترجم ذلك إلى واقع عملي في حياتها، سواء في نطاق الأسرة أو في أي جانب من جواب المجتمع حيث تتحمل المسؤولية وفق أهليتها وما فطرها الله عليها.. أشرنا إلى ما يكون لها حين يتحقق ذلك: من حظ وافر في الدنيا والآخرة؛ ففي الدنيا تسهم في بناء المجتمع وإغناء طاقاته الخيِّرة، بما يسهم في التمكين للأمة ويقدرها على عمارة الأرض واستغلال خيراتها لبناء الوجود الذاتي القائم على العقيدة، والذي هو لخيرها وخير الإنسانية جمعاء. وفي الآخرة: تكون لها المثوبة والفوز بمرضاة الله تعالى وجنته يوم يقوم الناس لرب العالمين ويومَ لا يضيع عمل عامل ذكراً كان أو أنثى.

وقد عرضنا لآيات من سورة آل عمران شملت بعضاً من خلال أولي الألباب وعملهم، وأدعيةً يجأرون بها إلى الله، وأعقب ذلك قوله تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾﴾ [آل عمران: ١٩٥]. وفي سورة الفتح ـ والمجتمع المسلم يمورُ بالعمل والجهاد واستنفاد الطاقات في البناء كما وجهت إليه الرسالة الخاتمة ـ رأينا فيما تنزل من القرآن قول الله تعالى: ﴿لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾﴾ [الفتح: ٥].

والذي أود توكيده هنا أن العطاء في آيات آل عمران والفتح يوحي بما يجب من التكامل في إعداد المرأة المسلمة؛ فقد جاء قوله تعالى في آل عمران: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ﴾ [آل عمران: ١٩٥] والكلام عن أولي الألباب الذين عرفوا بأنهم ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٩١] ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لأُولِي الأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٢١] ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٩١] ثم تأتي الآيات على دعائهم الذي يجأرون به إلى الله تعالى صادقين مخلصين.

أما في سورة الفتح: فالبشارة للمؤمنين والمؤمنات بدخول الجنة والتكفير عن السيئات: جاءت في أعقاب الكلام عن الفتح المبين وما تفضل الله به على المؤمنين من إنزال السكينة في قلوبهم ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم. فأنت تقرأ - والآيات تتنزل في أعقاب صلح الحديبية الذي كان مرحلة من مراحل الصراع أتاحت للمسلمين أن وصلوا بدعوتهم إلى القلوب وكان لسلوكهم الأخلاقي كبير الأثر في هذا... تقرأ قول الله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح: ١] وتقرأ: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ﴾ [الفتح: ٤] كل أولئك مؤذن بثقل الأمانة في إعداد المرأة المسلمة كما ينبغي، إعداداً لا يقتصر على جانب دون آخر في بنائها، ولكن يشمل العقيدة والعمل وكل ما فيه تنمية قدرتها على العطاء في حدود إمكاناتها وما أوجدها الله عليه.

إن نظرة متدبرة في شمول الذكر والأنثى بعدم ضياع العمل: في معرض الكلام عن أولي الألباب، وفي ذكر المؤمنات مع المؤمنين: في معرض فضل الله على الأمة بالفتح المبين، كل أولئك جدير بمراجعة الأساليب المسلوكة في تربية الأنثى وامتحانها في ضوء هداية الكتاب والسنة التي دعت إلى التربية المتكاملة وفق التكوين، مع الإفادة مما يكون عند غيرنا ولا يتعارض مع ثوابتنا.

ودوام التذكير ـ على صعيد التربية والإعداد ـ بأن حسن العاقبة أو سوءها منوط بما قدَّم العباد ذكورهم وإناثهم بلا تفريق ـ في دار العمل: أمر على غاية الأهمية، وله آثاره البعيدة في حركة الإنسان وهو يقوم بواجب التكليف.

لذا كان لا بد من توكيد أن الكشف عما نسميه ترتيب النتائج الأخروية على المقدمات في الدنيا دون تفريق بين ذكور المكلفين ونسائهم كان واضحاً كل الوضوح في نصوص الكتاب والسنة ومن ذلك ما سبقت الإشارة إليهم قريباً من قوله تعالى في سورة الحديد: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم﴾ [الحديد: ١٢] الآيات والأمثلة كثيرة ووفيرة.

جيل التغيير.. ودور المرأة في إحكام البناء وتكامله

ليس من مكرور القول أن نعيد إلى الأذهان ما أشرنا إليه غير مرة من أن جيل التغيير الذي رباه رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ـ في ضوء المنهج الرباني ـ بالكلمة والقدوة والممارسة: بنى الإنسان الحرَّ الكريم فيه بناءً يتلاءم مع ثقل التبعات التي يقتضيها تطويع الحياة بشتى ميادينها وشُعبها على أكمل وجه، كيما تسيرَ وفق حكم الإسلام وأخلاقه وآدابه، وكيما يأخذ التمكين في الأرض أبعاده الفكرية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية على الشكل الذي يمثل الوجود الحقيقي للإنسان في المجتمع الإسلامي وللرسالة التي يعمل على هداها ابتغاءً لمرضاة الله عز وجل.

وليس من مكرور القول أيضاً أن نعيد إلى الأذهان أن الجيل المشار إليه: لم يكن بناؤه وإعداده وتنمية طاقاته ـ وهو الذي اختاره الله لهذه المهمة العظيمة وذكر بعض صفاته في التوراة والإنجيل ـ أمراً مقصوراً على الذكور دون الإناث، بل كانت عملية البناء شاملة للجميع لأن خطاب التكليف في رسالة الإسلام هو للرجل والمرأة على السواء، كما تكررت الإشارة من قبل ـ، والاختلاف في بعض الأحكام جاء تبعاً لطبيعة التكوين كما اقتضتها حكمة الله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (١٥٩)﴾ [آل عمران: ١٥٩] هذا في الآية الخامسة والتسعين بعد المئة من سورة مدنية هي سورة آل عمران. ونقرأ في الآية الرابعة والعشرين بعد المئة من سورة مدنية أخرى هي سورة النساء، قول الله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا (١٢٤)﴾ [النساء: ١٢٤].

وما لنا لا نضع في الحسبان أن قضية وضع الرجل والمرأة على صعيد واحد في خطاب التكليف حيث المسؤولية والجزاء، بصرف النظر عن الفوارق التي أثمرت اختلافاً في بعض الأحكام ـ كما دلت النصوص ـ وكما أعلن القرآن منذ العهد المكي ـ كما سلف بيان ذلك من قبل ليكون واضحاً منذ البداية ـ والله أعلم ـ أن رسالة البناء التي يراد تحقيقها: ما بدٌّ من أن يُعَدَّ لها الإنسانُ المسلمُ، ذكراً كان أو أنثى، فهما شريكان في المسؤولية والجزاء وفق ما أعطاه الله لكل منهما وكوَّنه «**كلكم راع وكل راع مسؤول عن رعيته، الرجل راع في أهله ومسؤول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها...**» الحديث.

ففي سورة النحل ـ وهي سورة مكية ـ نقرأ في الآيتين السادسة والتسعين والسابعة والتسعين قول الله جلت قدرته: ﴿**مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾**﴾ [النحل: ٩٦-٩٧].

وننتقل إلى سورة مكية أخرى لنقرأ في الآية الأربعين من سورة غافر قول الله جلت حكمته: ﴿**مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾**﴾ [غافر: ٤٠].

حملني على التذكير بهذه الحقيقة التي سبق التنويه بها من قبل، والتي أخذت طريقها إلى الواقع العملي في حياة الرجل والمرأة بدءاً من الصدر الأول في الإسلام: ما حملت إلينا المصادر من تفسير عائشة رضي الله عنها لقوله تعالى خطاباً للنبي عليه الصلاة والسلام: ﴿**وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾**﴾ [القلم: ٤] كما سأعرض لذلك قريباً في حينه إن شاء الله.

وإنها لحقيقة تبدو تجليتها ـ خصوصاً بعد الذي مرَّ بالأمة من الغزو الثقافي وحب التقليد عند كثيرين ـ أمراً لازماً على طريق التوعية والتثقيف ـ على الأقل ـ لما له من عظيم الأثر في الفهم الصحيح لموقف المرأة المسلمة من رسالة البناء التي جاء بها الإسلام؛ الأمر الذي يترتب عليه ما ينبغي من سلامة التصور عند

الرجل والمرأة لهذا الموقع وأهميته في المنهج الرباني المتسق مع سنن الله في خلقه وما فطر عليه كلاً من الرجل والمرأة، ثم ما يجب من استكمال عناصر التكوين الصحيح للأنثى بدءاً من طفولتها المبكرة، ومنها إنشاء الحافز الإيماني وتنميته في داخل النفس، كيما تكون أهلاً للإسهام بحمل العبء وفق ما هدت إليه معالم الكتاب العزيز والسنة المطهرة وما كان له في حضارتنا من الوجود المتميز.

وفي نظرة مجردة إلى الواقع: يبدو أن من الضرورة بمكان: أن يكون لجيل الصحوة والتغيير: قراءة لهذه الحقيقة كيما يكون للمرأة حظها من طريق السعادة في الدنيا ويوم الدين، وكيلا تفقد الأمة أياً من طاقاتها وفاعلياتها وهي تتطلع في ظل الحرية ـ إن توافرت ـ إلى مستقبل ينشده المصلحون المخلصون.

المرأة والرجل في الآية..
على ساحة البناء

في جَعْبة اليوم نقطة أخرى يمكن أن تضاف إلى سابقاتها في انتسابها إلى المعلم القرآني الذي أسعدنا به قوله تعالى في سورة الحديد: ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ۝١١﴾ وإن كانت قضية القرض المبارك هذه قد جاء على ذكرها الكتاب العزيز في أكثر من آية مكيِّة ومدنيِّة. تلك النقطة هي ما يجب تأكيده من أن فضيلة الإنفاق هذه التي حملتها تلكم الصورة ـ أو الصور ـ النيرة الفياضة بالندى والرحمة الغامرة، ليست مقصورة على الرجال دون النساء بل هي للجميع رجالاً ونساءً بمقتضى خطاب التكليف ـ على وجه العموم ـ لأن اللفظ خوطب به الذكور لا لانفرادهم بالتكليف ولكن على وجه التغليب كما هي لغة العرب التي بها نزل الكتاب الكريم.

وعندما يكون الحديث متعلقاً بمقومات البناء في أسسه وأبعاده، وميادينه المتعددة في نفس الفرد، وفي المجتمع الذي يتكون من الأفراد، وبخصائص التنمية التي تبلغ بالفرد أن يكون على مستوى رسالة البناء التي أرادها الإسلام، وتبلغ بالمجتمع أن يرقى في ظل العقيدة والشريعة والعلم إلى مستوى المجتمع الرائد، ثقافةً وسلوكاً وأخلاقاً، وقدرة على إدارة حركة الحياة بما يتطلبه إعمار الأرض وإنشاء القوة الذاتية للأمة، وما تمليه أمانة الدعوة وصدُّ التحديات الغازية، مهما كان مصدرها وموضوعها!!

أقول: عندما يكون الحديث متعلقاً بذلك، يكون واجباً توجيه العناية بدقة ومنهجية إلى الإنسان المنوط به دفع عملية البناء وإخراجها من حيز التصور والتخطيط في المنهج، إلى حيز التطبيق والوجود الناطق العملي. والإنسان ـ هنا ـ كما خوطب في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ـ معنيٌّ به الرجل والمرأة جميعاً.

وقد سبقت الإشارة غير مرة إلى أن الرجل والمرأة قد خوطب كلٌّ منهما بالمسؤولية والجزاء، بعد خطاب كل منهما بعقيدة التوحيد وأحكام الشريعة المباركة إلا ما كان من اختصاص تمليه طبيعة التكوين عند المرأة، وطبيعة التكوين عند الرجل وسبحان الحكيم الخبير.

وفي الكتاب الكريم عدد وفير من النصوص التي تدل على هذه الحقيقة القرآنية المباركة ـ كما هو معلوم ـ من ذلك قول اللّه تعالى في سورة النحل: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل: ٩٧].

من هذا المنطلق: يمكن القول بأن قوله تعالى: ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾﴾ وما كان على هذه الشاكلة المستنيرة، مخاطبٌ به المسلم المكلف ذكراً كان أو أنثى، ولا يكلف اللّه نفساً إلا ما آتاها.

وقد أشرت عند الكلام على واقعة أبي الدحداح رضي اللّه عنه، إلى أن زوجته أم الدحداح قد شاركته في عمله المبرور مشاركة فعالة حين لم تتوان عن الاستجابة الإيمانية السريعة، وخروجها بمتاعها وأولادها إلى البستان الآخر ثم قولها: (ربح بيعك يا أبا الدحداح) دعاءً له بالربح في الدنيا والآخرة، أو إخباراً باقتناعها الإيماني بأن صفقة أبي الدحداح بقرض بستانه قرضاً حسناً في سبيل اللّه هي صفقة رابحة.

وإلى أن نلتقي على متابعة العطاء القرآني في هذه القضية الجذرية المهمة، أرجو أن يكون لنسائنا المسلمات حسن الصحبة مع معالم الكتاب العزيز، كتاب ربهن الذي خاطب الذكر والأنثى بالتكليف، دونما رواسب أو أحكام مختزنة في داخل النفس.

وثمرات ذلك ـ إن شاء اللّه ـ طيبة مباركة على طريق البناء بناء الإنسان المسلم ذكراً كان أو أنثى، والإنصاف في أحكام قد يعوزها حسن الفهم والتثبت عند قراءة النصوص واللّه الموفق.

الرجل والمرأة.. وهدي القرآن في البناء

مع تأملات عجلى لا يتسع المقام لأكثر منها في آيات كريمات من سور الحديد والبقرة والتغابن، دلنا المعلم القرآني على أهمية بالغة لمواقع تلك الآيات في سورها، حيث ارتباط الإنفاق الخيّر الذي عُبر عنه بالقرض الحسن للّه عز وجل بالإيمان، وحيث العلاقة الوثيقة المباركة بين الجهاد وبين الإنفاق في سبيل اللّه، لما أن البذل يشمل بذل المال وبذل النفس كليهما.

على أن آية سورة الحديد تميّز موقعها ـ والقرآن كله معجز ـ بمجيئها عقب مجموعة من الآيات كشفت عن الخطوط الأساسية في المنهج الرباني الذي وجه العباد إلى ما يجب أن تكون عليه عملية البناء الكبرى؛ على صعيد الفرد، بصياغة الإنسان المسلم ذكراً كان أو أنثى، صياغة متكاملة ترقى به إلى حيث القدرة على إحسان التعامل مع الكون والحياة، وعلى صعيد المجتمع، بصياغته صياغة تتسم بالتكامل الذي تبدو معه العناية المطلوبة في زوايا البناء جميعاً دون وكس أو شطط، كل أولئك في ظل العقيدة. ثم توفير كل ما من شأنه قوة هذا المجتمع، وقدرته على إسعاد أبنائه في العاجلة والآجلة، وتمكينهم من أداء رسالة الخير في العالمين. الأمر الذي يضمن ـ بعون اللّه ـ بناء حضارة مثلى لا تُغفل ـ مع العناية بعمارة الأرض وتوفير العلم لحركة الحياة ـ أن يكون للنظرة الأخروية النصيب الأوفر في العمل والسلوك. وذلك ما صنعته ـ بحمد اللّه ـ حضارة الإسلام.

هذه واحدة: أما الثانية: فهي أن المعلم القرآني دلنا على أن الترغيب في القرض الحسن للّه تبارك وتعالى لا ينحصر في توجيه ذلك إلى الرجل المسلم فحسب، ولكنه ـ بمقتضى العموم في خطاب التكليف بعقيدة التوحيد وأحكام الشريعة ـ موجه إلى الرجل والمرأة جميعاً، ولكن جرى القرآن في كثير غالبٍ على

عرف التغليب في الخطاب عند العرب، ولذلك كان من المعروف بداهةً ـ أنه ـ فيما عدا الأحكام التي تختص بها المرأة دون الرجل أو العكس ـ يكون المقصود الذكر والأنثى جميعاً. فقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يشمل المؤمنين والمؤمنات فكأن اللّه تعالى يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ و(يا أيتها اللواتي آمنّ) وقوله: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾معناه: (أطيعوا اللّه أيها المؤمنون وأطيعوا الرسول. أطعن اللّه أيتها المؤمنات وأطعن الرسول) فقوله جل شأنه: ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ الآية يدخل فيه بداهة الذكور والإناث من أهل الإيمان.

والأمثلة على ذلك في الكتاب والسنة كثيرة وفيرة، وقد عملت هذه الحقيقة القرآنية عملها في سلامة البنية للفرد والجماعة. سيما وأن الإسلام ـ على صعيد المال والاقتصاد ـ قد أعطى المرأة حرية التملك بالطرق المشروعة بالنسبة إليها، وأعطاها حرية التصرف بمالها في حدود رسمها تضمن إنسانيتها وكرامتها.

غير أن الذي تحسن الإشارة إليه: أنه فيما عدا الكثير الغالب الذي ألمحنا إليه من قريب: يقع القارىء لكتاب اللّه على بعض المواطن التي ذكر فيها الرجال والنساء جميعاً بالأوصاف التي ينبغي أن يكونوا عليها، أو أن يغادروها، إلى غيرها، ولم يجر الأمر على التغليب فحسب.

وبهذا يكون الخطاب قد شمل المرأة بالتغليب في صيغة الخطاب بالتذكير، وخصّها المولى جل شأنه بالذكر مع الرجال لحِكَمٍ قد لا تخفى على المتبصّر، لعل منها تأكيد إشراك المرأة في حمل الرسالة بواجباتها وتكاليفها، وضرورة تربيتها على الأخلاق والصفات التي تقودها ـ بفضل اللّه ورحمته ـ إلى الفوز الكبير.. والزحزحة عن النار ودخول الجنة يوم المعاد. بعد أن جعلت هذه الرسالة منها الركن البارز القويم في بناء الأسرة الصالحة في المجتمع الصالح. والإسهام في إدارة حركة الحياة الإسلامية علماً وعملاً، وسلوكاً لا يجفو شرعة اللّه، ولا يتنكر لإنسانية الإنسان... كل أولئك ضمن تكوينها، وما أعطاها اللّه من إمكانات

ومؤهلات، لأن الجاهلية تسير في غير هذه الطريق؛ فإما إهمال يجفو نصوص الشريعة، ويضيع إنسانية المرأة وكرامتها، ويهمل موقعها من البناء المتكامل، وإما إيهام لها بالمساواة المطلقة مع الرجل دون حدود أو قيود، وهي المساواة التي تتنافى مع طبيعة التكوين وموقع كلٍ من الرجل والمرأة في المجتمع كما تقتضيه عملية البناء، الأمر الذي يؤذيها، ويباعد بينها وبين الفطرة، ويحول دونها ودون العطاء الحقيقي الذي يتسق مع ما خلقها الله عليه؛ وهو اتجاه يعود عليها وعلى أسرتها بل وعلى المجتمع بالأذى والقلق البالغين. يرافق ذلك ـ كما نرى في حضارة الأقوياء اليوم ـ اتخاذها ـ أعني المرأة المسكينة أو الجاهلة الواهمة ـ متاعاً رخيصاً حتى في دنيا الاقتصاد والإعلام عند من يزعمون تكريمها والحفاظ على حقوقها.

وفي حديث موصول بالكلام على المرأة فيما وراء قاعدة التغليب في القرآن نقرأ قوله تعالى في سورة الحديد: ﴿إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ [الحديد:١٨] وفي السورة نفسها قرأنا: الآية: الأمر الذي يؤكد تلك المساواة في المسؤولية والجزاء، فبعد التغليب في هذه الآية جاء قوله تعالى ـ بعد آيات ـ: ﴿إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ﴾الآية وذلك يذكرنا بقوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ﴾ [آل عمران: ١٩٥] وقد تكرر ذلك في غير ما موطن من القرآن الكريم.

وفي ترغيب بالصفات التي يجب أن يتحلى بها المؤمن ذكراً كان أو أنثى والوعد بالمغفرة والأجر العظيم على ذلك نقرأ في سورة الأحزاب قوله تعالى:﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾ [الأحزاب: ٣٥].

ويزيد الأمر توكيداً وإشعاراً للمرأة المسلمة بمسؤوليتها هذا الإعلان العظيم عن وجوب الرضا بحكم الله ورسوله لا فرق في ذلك بين مؤمن ومؤمنة، وهي قضية كبرى، لا محيص عنها لصدق الإيمان.. ذلكم قوله تعالى عقب الآية السابقة:﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً ﴿٣٥﴾﴾ [الأحزاب: ٣٦]. أرأيت!! إذا قضى الله ورسوله أمراً فليس من شأن المؤمن بوصفه مؤمناً وليس من شأن المؤمنة بوصفها مؤمنة أن يكون لهم الخيرة من أمرهم، ولكن الواجب تصديق جازم والتزام بقضاء الله ورسوله، فأية مسؤولية هذه تلك التي تلقى على عاتق المرأة المسلمة! وفي ذلك ما فيه من التكريم؟ ونظائر ذلك في كتاب الله وحديث رسول الله ﷺ عديدة موفورة.

على هذه الطريق المأمونة التي تتسق مع الفطرة، وتتوافق مع سنن الله في الخلق والتكوين: برزت هداية المعالم القرآنية في توفير الأسس الصالحة للبناء القويم، وتنمية طاقات المجتمع وفاعليته، والحيلولة دون التعطيل أو الاستهتار والتجاوز. وفي ذلك ما فيه من وضع الأمور مواضعها في كل ما يتعلق بالرجل والمرأة على حد سواء، بدءاً من الفرد، ومروراً بالأسرة، وانتهاء بالمجتمع ثم بالأمة، وسبحان من تفرد بالكمال المطلق في الخلق والتكوين ودلالة الإنسان ذكراً كان أو أنثى على ما به سعادته ـ أن لو سمع وأطاع ـ في الدنيا والآخرة. والصلاة والسلام على معلم الناس الخير وعلى آله وصحابته أجمعين.

المرأة.. وهدي القرآن في البناء

مرة أخرى أعود إلى الآية الخامسة والثلاثين من سورة الأحزاب وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾ أعود إليها مشيراً إلى أن ترتيب المغفرة والأجر العظيم على الاتصاف بهذه الصفات المباركة العشر دليل واضح على أهميتها على صعيد الفرد والجماعة، وهي صفات لم يندب القرآن الكريم الرجال إليها فحسب، ولكنه ندب إليها النساء أيضاً، وترغيباً في العمل على التخلق بها كما ينبغي رتّب على وجودها تلكما الثمرتين العظيمتين المغفرة والأجر العظيم..

وإذن: فالرجل والمرأة كلاهما: مطلوب منهما سلوك السبيل الموصلة إلى أن تكون تلك الصفات العشر هي الخلق وهي السمة المميزة في التعامل مع اللّه وفي التعامل مع عباده. والمعلم القرآني في الآية الكريمة كما يضع أيدينا على هذه الحقيقة ينبه على وجوب الأخذ بالأسباب التعليمية والتربوية التي تمكن ـ بإذن اللّه ـ من إعداد الرجل الصالح والمرأة الصالحة ذلك الإعدادَ الذي يبني الإيمان والقنوت والصدق والصبر، والخشوع والبذل بالصدقة، والصيام، وحفظ الفروج، وذكر اللّه ذكراً كثيراً.

وإذا كان الأمر كذلك: فلك أن تتصوَّر المجتمع الذي يريده القرآن، إنه مجتمع قويٌّ متألقٌ؛ من خلائق أفراده ذكوراً وأناثاً: تلكم الصفاتُ العشر التي تتمثّل بأصحابها سلامةُ البناء عقيدة وسلوكاً ومراقبة للّه عزوجل، وانبعاثاً ذاتياً للاستقامة بما يضمن خير الدنيا وحسن العاقبة في الآخرة، حيث تكون الجنة هي المأوى.

ولكم نحسن صنعاً إذا تحرينا من خلال هذه الآية الكريمة وأمثالها، عطاء المعلم القرآني فيها على صعيد التنهيج لتربية الرجل والمرأة جميعاً، لما أنها تدلنا على الأسس المتينة القوية التي يجب أن نسعى وراءها عند إرادة البناء وإصلاح المفاهيم، والتوجه صوب بناء الذات بعيداً عن التقليد الأعمى للآخرين، والاستسلامِ لما ينصب من شباك يراد منها أولَ ما يراد أن تتصرف المرأة عن أن يكون لها الوجود الذاتي بالإسلام، إلى أن تكون ضحية التقليد لمن لا يرقبون في الأمة إلاً ولا ذمة، وأن تقع فريسة للوهم الذي يثمره زخرف القول والاحتكام إلى معايير لا تمت إلى الحق ولا إلى طبيعة المرأة ورسالتها في الإسلام وموقعها من عملية البناء الكبرى.. بسبب.

ولا يرتاب منصف في أن الاستنارة بالمعلم القرآني في الآية الكريمة تصل بنا إلى سلامة التكوين ـ بإذن اللّه ـ في الرجل والمرأة جميعاً، والإفادة من الطاقات في تحويل التصور إلى حركة عملية في دنيا الواقع.

وكم يبدو المجتمع المسلم بأمس الحاجة إلى أن لا تهدر طاقة المرأة بالتقليد وترديد ما يزعمه الآخرون، وأن تكون جادة في الانتساب إلى خير أمة أخرجت للناس آخذة رسالتها بقوة في العالمين.

إن المرأة المسلمة مدعوة إلى تبين طريقها في ضوء المعالم الهادية من كتاب اللّه الكريم وسنة نبيه المصطفى عليه الصلاة والسلام.. وإن المجتمع اليوم مدعو إلى معاونة الفتاة المسلمة من طريق التربية والتعليم والإعلام وسائر وسائل التكوين والإعداد.. مدعو إلى معاونتها بالكشف عما هو زيف في توجيه المرأة، وعما هو حقيقة، عما هو أصيل في علاقته بتكوينها وموقعها في المجتمع المسلم، وما هي مسؤولة عنه من أداء أمانة الإسلام في نفسها وفيمن ولاها اللّه أمرهم؛ بل وفي الإسهام بتبليغ الرسالة إلى الآخرين.. عما هو أصيل في هذا كله وعما هو دخيل مهجّن ضائع النسب إلا أن يكون إلى شياطين الإنس والجن أقرب!!

أقول هذا: لأننا عندما نطلب منها أن تتبين طريقها، فلا بد من معاونتها في ذلك بالطرق المنهجية السليمة التي تستنفد توظيف الوسائل والأسباب على هذه الساحة.

ولنا من إخفاق مناهج الآخرين بالنسبة للمرأة عندهم وما آل إليه أمرها من الشقاء: ما يسهم في تحقيق ما نريد.

فإذا كان المصلحون يرمون إلى التكامل في بناء المجتمع: فما عليهم إلا أن يعودوا إلى النبع الأصيل، ويفيدوا من تجارب الآخرين والله الموفق.

ظلم المرأة في الجاهلية.. والإخلال بالبنية الاجتماعية

على بركة الله، نعود اليوم إلى ما ألقينا عصا التسيار عنده في كلام سبق: من الاستنارة بهدي واحد من المعالم القرآنية في شأن المرأة وموقعها من رسالة الإسلام. وقد مر بنا كيف أنها بعد الضياع في جاهلية جهلاء، خاطبها القرآن بالرسالة والتكليف عقيدةً وشريعةً بعد نزول الوحي على المصطفى عليه الصلاة والسلام كما خوطب الرجل، على فروق في بعض الأحكام مردُّها طبيعة التكوين لكلٍ من الرجل والمرأة، الأمر الذي يدل على حكمة الحكيم سبحانه وعدله المطلق، كما يزيد المؤمن يقيناً بأن هذا القرآن مُنَزَّلٌ من عند الله الذي أحسنَ كل شيء خَلَقَه، والذي أعطى كل شيء خَلْقَهُ ثم هدى.

والنظرة إلى ما كانت عليه المرأة في الجاهلية، تكشف عن أهمية البديل الصالح الذي قدّمه الإسلام، ومن ذلك وضعه إياها ـ كما وضع الرجل ـ على مستوى المسؤولية والجزاء فهي مخاطبة بالإيمان، والعمل بالأحكام ـ في حدود تكوينها ـ ومجزيَّة بعملها في الآخرة إن خيراً فخير وإن شراً فشر ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزَىٰ إِلاَّ مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾﴾ [غافر: ٤٠].

وقد رأينا ـ من قبل ـ نماذج لذلك في سور مكية، كالنحل، والمؤمن، والتكوير، ولنا في شأن هذه الحقيقة في العهد المدني حديث يأتي فيما بعد إن شاء الله.

وفي حديث موصول بما نحن بصدده، نجد لوناً صارخاً من ألوان الظلم الاجتماعي للمرأة، والنظرات الهابطة إليها، بصرف النظر عن كونها أماً، أو زوجة، أو بنتاً، أو أختاً، أو غير ذلك... جاء على ذكره الكتاب الكريم، وسفّه ما

يحمل من السوء والزيف الجاهلي؛ ذلكم ما يقع عليه الناظر في سورة الأنعام ـ وهي سورة مكية ـ من السبع الطِوَال، مما يكشف عما ابتدعه المشركون من أحكام تتعلق بالأنعام، يحرمون فيها ويحلّلون حسب أهوائهم؛ ومن ذلك تحريم ما في بطون بعض الأنعام على أزواجهم، ولا يشركونهن فيه إلا عندما يكون ميتة، فبدءاً من الآية التاسعة والثلاثين بعد المائة من السورة المومى إليها نقرأ قول اللّه جلت حكمته: ﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لاَّ يَطْعَمُهَا إِلاَّ مَن نَّشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لاَّ يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾﴾ [الأنعام: ١٣٨-١٣٩].

تلكم هي واحدة من سمات الجاهلية في المجتمع يومذاك من حيث النظرة إلى موقع المرأة وحدود التعامل معها. لقد قسَّموا الأنعام إلى زُمَرٍ؛ فهذه أنعام محرّم أن يطعمها إلا من يشاؤون من خَدَمة الأوثان وغيرهم. وهذه أنعام حرمت ظهورها فلا تركب؛ كالسوائب وهي التي يسيِّبونها لآلهتهم، والحوامي وهي فحول الإبل التي يسيبونها بعد أن تؤدي وظيفتها مع الأنثى لطواغيتهم، ويُعفونها من الحمل، فلا يُحمَل عليها شيء، وهذه أنعام لا يذكرون اسم اللّه عليها عند ذبحها ولكن يذكرون أسماء أصنامهم..

والأدهى من ذلك أنهم يفعلون ما يفعلون من هذه المساءات، وينسبونه إلى اللّه عز وجل افتراءً عليه سبحانه، فيقولون: هذه الأحكام أحكام اللّه؛ تعالى سبحانه عن ذلك. ولذلك جاء الوعيد بالمجازاة التي يستحقون، فهو سيجزيهم بما كانوا يفترون عليه حين ينسبون إليه ـ إفكاً منهم ـ ما شرعوا من الأحكام وفق أهوائهم وما يوسوس في صدورهم الشيطان. أجل لقد سولت لهم أنفسهم وشياطينهم أحكاماً لم يأذن بها اللّه، وتطاولوا عليه جل وعلا بالتحريم والتحليل مع الافتراء عليه جل وعلا بنسبتها إليه. كما أسرفوا بالتطاول والافتراء حين حرموا ما حرَّموه على أزواجهم ـ ضمن هذا الإطار من العبث ـ كما سنرى في الحلقة القادمة إن شاء اللّه.

وإنما كان ذلك أبلغ في المساءة لأن له وجهاً آخر مضافاً إليه من الناحية الاجتماعية، لما أنه يسيىء إلى الخلية الأولى في بنية المجتمع، ويعبر عن نظرة هابطة تتنافى مع إنسانية الإنسان وكرامة المرأة، ولكن الإسلام ـ وهو يمهد لبناء المجتمع الأمثل في ظل شريعة اللّه ـ ردّ الأمور إلى نصابها، وحفظ للخلية الأولى وجودها كيما تؤدي دورها في المجتمع كاملاً غير منقوص، فالحمد للّه على نعمة الإسلام!.

ساحة البناء.. ومؤمن آل فرعون

«١»

في أعقاب ما يرى التالي المتدبر في سورة غافر من الكشف عن جانب من جوانب الصراع بين الحق الذي يتحرك تحت رايته موسى عليه السلام، وبين الباطل يتلبَّس به فرعون وملؤه: ما أحسبنا نبعد النجعة إن نحن تأملنا فيما يبدو من المؤاخاة بين الكلام على مؤمن آل فرعون، وبين الآية التي أسعدنا اصطحابها غير مرة في معرض الحديث عن العقبات التي قد تعترض سبيل البناء الأقوم للفرد والمجتمع؛ أعني قوله تعالى في سورة غافر: ﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزَىٰ إِلاَّ مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ ﴾.

فأنت واجد أنه بعد الحديث عن قصة موسى عليه السلام مع فرعون في آيات عدة كما في قوله تعالى:﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ ﴿٣٦﴾﴾ [غافر: ٣٦]. قد توسطت هذه الآية المومى إليها، لتقرر أن العمل الإيجابي المثمر المرتبط بالإيمان بالله واليوم الآخر: هو المطلوب أولاً وأن الثبات على الحق في مواجهة الباطل: مطلوب كذلك، بصرف النظر عن الجنس الذي ينتمي إليه أولئك المكلفون بهذا الطلب إيماناً وعملاً وثباتاً على الحق في مواجهة الباطل وأعوانه: من ذكورة أو أنوثة..

وجزاء عدم الاستجابة واقع على المثلية بين المخالفة والعقوبة، أما عمل الصالحات من قبل الذكر أو الأنثى من المكلفين: فأجره مضاعف عند الله في جنات النعيم.

الأمـر الذي يدل ـ والله أعلم ـ على أن الموقف الذي وقفه مؤمن آل فـرعون ـ وهو يصدع بحق موسى في وجه باطل فرعون ـ مستهيناً بما يمكن أن يقوم في وجهه من عقبات، متوكلاً على الله في تجلية كلمة التوحيد، منبهاً على ضلال التألب على المؤمنين المظاهرين على كفر فرعون وادعائه الألوهية، معلناً نصحه وتذكيره بما جرى لمن قبل هؤلاء المتألبين على الحق من النكال في الدنيا، وما هو متوعد به من سوء المصير في الآخرة. كل هذا مع علمه أن القوة والقدرة على المعاقبة والانتقام بيد فرعون ـ حسب الأمر الظاهر ـ لا محالة.

أجل: الأمـر الذي يدل على أن هذا الموقف الإيماني الشـجـاع الذي لا تشـوبه شائبة من حب الظهور أو الرغبة في تحقيق كسب دنيوي: أنموذج صالح للمؤمن الصـادق بإيمانه، ـ بصرف النظر عن كـونه رجلاً أو امـرأة ـ والذي لا يحكم تصـرفاتِه الواقع المنحرف مهما توافر لهذا الواقع من القوة والأيد: بل يكون هو أقوى من ذلك الواقع ـ بعون الله ـ وهو يرفع عقيرته بنصـرة الحق، معلناً دعوته إلى الرجوع عن الباطل، والتحول إلى ساحة ذلك الحق.

هذا: والتوسط الذي نلمح إليه في موقع الآية: نشهده في النسق الذي جرت عليه الآيات الكريمات بدءاً من الآية الثامنة والثلاثين في سورة غافر ـ المؤمن ـ.

فقد ختمت الآية السـابعة والثلاثون بقـول الله جل ذكره: ﴿وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلاَّ فِي تَبَابٍ ﴿٣٧﴾﴾.

ثم قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴿٣٩﴾﴾.

إن هذا المؤمن الذي وقف هذه الوقفة الإيمانية الشجاعة قبل قرون متطاولة، والذي يتلو المسلم الآيات المتعلقة بهذه الوقفة منه وله بكل حـرف يتلوه عشـر حسنات: لم يقف ـ في الواقع ـ عند حدود نفسه، وهو يتحـرك على محـور العقيدة والذود عن حَمَلتها وينوِّه بضلال المظاهرين عليهم.

ولكنه تجاوز ذلك إلى دعوة الآخرين إلى التوحيد مبيناً لهم بأسلوب الترغيب والترهيب.. أن ما يدعوهم إليه هو الانصراف عن الضلال المرْدي، إلى الهداية التي فيها الخير كل الخير، فإن اتبعوه هداهم سبيل الرشاد.

وتراه يكشف لهم ـ أن لو سمعوا سمع فهم وامتثال ـ عن حقيقة الدنيا التي تعوق كثيراً من الناس عن صراط الله المستقيم، وأنها متاع زائل مهما امتد الزمن. أما دار القرار: فهي الدار الآخرة التي لا معدى عنها على الوجه اليقين؛ فمن العقل أن يكون العمل لدار القرار، لا للدار التي هي متَاع زائل.

وبعد هاتين الآيتين اللتين حملتا موقف مؤمن آل فرعون ودعوته للآخرين وحكمته في إقناعهم، على صورة تتَّسم ـ مع الحكمة ـ بالوضوح والنصح الخالص: يجيء قول الله جل جلاله، في الآية الأربعين من السورة: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزَىٰ إِلاَّ مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ (40)﴾.

ولهذا التوسط دلالته في الإيذان بالقيام بواجب التبليغ الحكيم على صعيد المواجهة بين الحق والباطل، دون تفريق بين الرجل والمرأة فيما هو مطلوب من القيام بهذا الواجب في وجه الباطل وأعوانه. وأن الأجر عند الله ـ على ذلك ـ كبير كبير!!.

جانب آخر.. على ساحة البناء ومسؤولية المرأة في سورة المؤمن

« ٢ »

هذه خطوة أخرى نتابع معها ما كنا بسبيله من الكشف عن دلالة توسط الآية الأربعين من سورة المؤمن ضمن طائفة من الآيات التي عرضت لقصة موسى عليه السلام مع فرعون وملئه، وما كان من موقف مؤمن آل فرعون الإيماني الصامد في وجه الانحراف والمنحرفين، الموقف الذي لم تداخله شائبة دنيا أو لبس في النية والإخلاص، ولم يضعف عن دعوة الآخرين إلى الحق الذي آمن به وانشرح صدره له، وإقامة الحجة عليهم رغباً ورهباً لعلهم يحذرون ويهتدون.

والآية التي نعني هي قول الله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزَىٰ إِلاَّ مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾﴾.

فقد سبقت ـ كما رأينا فيما سلف ـ بقوله تعالى في الآيتين الثامنة والثلاثين والتاسعة والثلاثين بقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴿٣٩﴾﴾.

وإذا انتقلنا إلى ما تلاها وقد ختمت هي بقوله تعالى: ﴿يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ نقع من جديد على ما يبدو متابعة لدعوة مؤمن آل فرعون قومه وما جرى بينه وبينهم من الحوار. ذلكم قوله عز وجل: ﴿وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ ﴿٤٢﴾ لا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلا فِي الآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٤٤﴾﴾.

إنه لأمر على غاية الأهمية: ملاحظة أن القوم لم يدخروا وسعاً في دعوة مؤمن آل فرعون إلى العودة إلى ما هم فيه من الضلال، وتركِ ما يدعوهم إليه من الإيمان بالله الواحد سبحانه وتعالى، فكان عليه أن يزيد من إيضاح ما هم موغلون فيه من ضلال الوثنية والانصياع لفرعون رمز هذا الضلال دون تفكير أو تقدير، مذكراً إياهم بأن ما يدعوهم إليه ينجيهم من العذاب، وما يدعونه إليه النار والعياذ بالله.

ومن عجب أنهم يدعونه إلى الكفر والشرك بالله وهي دعوة لا تقوم على أثارة من العلم في قليل ولا كثير، وهو يدعوهم إلى عبادة الإله الواحد سبحانه وتعالى الذي تقوم الدلائل على وجوده وهو العزيز الغفار. وبعد أن بيّن لهم أن ما يدعونه إليه ليس له دعوة في الدنيا ولا في الآخرة، وأن مردَّ الجميع إلى الله، وأن المسرفين هم أصحاب النار: يحاول مرة أخرى إثارة عقولهم وقلوبهم لعلهم يتذكرون، فكان من قيله لهم: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٤٤﴾﴾.

وفي هذا ما فيه من العظات و الدروس لمن يشرفهم الله بالدعوة إليه، ومن ذلك، أنه بعد أن يستنفد الداعية ما يستطيعه من طرائق حكيمة مناسبة في الدعوة، ويصرَّ المدعوون على المعاندة والعتوِّ عن أمر الله: ما بدٌّ من تفويض الأمر إلى الله الرحمن الرحيم الذي بيده قلوب العباد يصرِّفها كما يشاء، فهو سبحانه البصير بعباده أجمعين.

وفي متابعة لأهمية توسط قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزَىٰ إِلاَّ مِثْلَهَا﴾ الآية بين تلكم الآيات جميعاً، نقع بعد الذي رأينا من الحوار بين مؤمن آل فرعون وقومه: على ما يكشف عن مقابلتهم هذه الدعوة الخيِّرة التي تسعدهم ـ أن لو استجابوا لها ـ في الدنيا والآخرة... عن مقابلتهم إياها بالمكر والأذى، وانتصارِ الله الجبار القهار لهذا الحق الصادق الشجاع في الحق، الذي لم يأل جهداً في الدعوة إلى هذا الحق وإقامة الأدلة عليه، والرد المنهجي بالدليل على دعاوى أهل الضلال المفسدين..

في متابعة لأهمية هذا التوسط نقرأ قوله تعالى: ﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾.

إنه دونما تكلف أو عنت: تبدو العبرة واضحة ــ على صعيد الإحكام لبنية الفرد والجماعة العقدية والعملية ــ من توسط الآية الآنفة الذكر مقطعين من الكلام على مؤمن آل فرعون، بياناً للمهمة الكبرى التي أنيطت به، وأن عمادها الإيمان، والحكمة في الدعوة، والصدق في المواقف، في شجاعة وحرص دائب على الدعوة إلى سبيل الهدى والرشاد، وبيان زيف ما يدعو إليه أولئك الجانحون عن التوحيد، مع استكمال الوسائل الناجعة في هذه السبيل، بحيث تتوافق الوسيلة مع الغاية العظيمة نظافة وسمواً!!

والمجتمع المسلم ــ على تعدد الأماكن وتعدُّد وسائل التكوين ــ مدعو اليوم إلى أن يسلك بالمرأة ــ انتفاعاً بما دلَّت عليه الآية التي توسطت قصة الصراع بين موسى عليه السلام وفرعون وملئه، وما كان من موقف مؤمن آل فرعون ــ: سبيل الوعي في ضوء هداية الكتاب الكريم، وعطاء معالمه، كيما تستشعر مسؤوليتها في بناء الجيل ذكوراً وإناثاً، وما يجب من توجيه المجتمع المسلم إلى الأخذ بما يعين على استئناف المسيرة الخيِّرة التي يريدها الإسلام.

والمسؤولية التي نلمح إليها تبدأ من النفس والبيت ــ إن كانت ربة بيت ــ وعملها الذي يتسق مع طبيعتها وتكوينها.

إنها مسؤولية تنبع من ضرورة بناء الفرد الصالح ــ ذكراً كان أو أنثى ــ والمجتمع المتماسك القوي، الذي لا يضيع فيه الإنسان بالقهر والاستهانة بحريته وكرامته، ولا تتفكك بعبث المتسلطين فيه الجماعة، بل تنمو في ظله أواصر الود والتعاون، على هدي الإيمان، واليقين بأحقية ما دلَّت عليه آيات بينات في عدة مواطن من القرآن الكريم. ومنها قوله تعالى في سورة المؤمن: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

مصحوباً ذلك بفقه الحكمة من توسط هذه الآية آياتٍ عدةً تتحدث عن طبيعة الصراع الذي لا يضيع فيه عمل عامل من ذكر أو أنثى.

ثم ما كان من موقف مؤمن آل فرعون في بحران هذا الصراع الذي كان حلقة بارزة من حلقات المواجهة بين التوحيد وجنوده المخلصين وبين الوثنية وأعوانها الضالين المضلِّين!!.

المحتويات

الموضوع	الصفحة
توطئة	٥
القرآن.. ووعي المرأة المسلمة	١٣
المرأة المسلمة.. والبناء (١)	١٥
المرأة المسلمة.. والبناء مقروناً بسلامة التطور (٢)	١٩
المرأة.. ومسؤولية التكليف (١)	٢٥
المرأة.. ومسؤولية خطاب التكليف (٢)	٣١
وإن خفتم ألاَّ تُقسطوا في اليتامى (١)	٣٧
وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى (٢)	٤١
حقوق المرأة.. والبناء، الأسرة.. والمجتمع	٤٥
إرث المرأة.. بين الجاهلية والإسلام، والدلالة الحضارية	٥١
المرأة في الأعراف الجاهلية.. الهدم والبناء دروس الماضي للحاضر	٥٥
العمل.. والجزاء وموقع المرأة في البناء (١)	٥٩
مرة أخرى.. مع العمل والجزاء المرأة.. والبناء الحضاري (٢)	٦١
بنية المجتمع.. في المعلم القرآني وبيانه.. الرجل والمرأة.. وجزاء العمل (٣)	٦٣
المرأة.. والبناء.. وواحدة من وقفات الفقيهةِ البارعة المعلمة عائشة أم المؤمنين (١)	٦٥
المرأة.. والبناء العلمي ووقفة للفقيهة المعلمة عائشة (٢)	٦٧
المرأة المسلمة.. وعيٌ وبناء.. وخولة بنت ثعلبة (٣)	٦٩
المرأة المسلمة.. وعي وبناء.. وخولة بنت ثعلبة (٤)	٧١
المرأة المسلمة.. وعي وبناء.. خولة.. وقفة عمرية (٥)	٧٣
المرأة.. ووقائع البناء، خولة.. وقراءة التاريخ (١)	٧٥
بين الأمس واليوم، خولة.. وواقع المرأة والبناء (٢)	٧٧
المرأة مع بعض الملامح في قصة خولة والبناء (٣)	٧٩
من القيم في قصة خولة.. على طريق البناء (٤)	٨١
المرأة.. والبناء المنشود.. وكلمات عائشة (٥)	٨٣

التحديد القرآني، والبناء.. سورة المجادلة وكلمة الفصل (٦) ———— ٨٥
البناء الاجتماعي.. والمرأة المسلمة.. ذات النطاقين.. والوعي (١) ———— ٨٧
القرابة.. ورحلة البناء ذات النطاقين.. والوعي (٢) ———— ٩١
فقه العدل الإلهي.. والبناء الاجتماعي.. أسماء.. الوعي (٣) ———— ٩٥
رسالة المرأة في البناء، الإنسان والمسؤولية..خطاب التكليف والتحرير من مظالم الجاهليات ———— ٩٩
المرأة.. مكانها الطبيعي من البناء.. وسورة غافر (١) ———— ١٠٣
تقويم المراحل... على صعيد المسؤولية وتحقيق الذات... المرأة والبناء وسورة غافر (٢) ———— ١٠٧
مرة أخرى.. مع صعيد المسؤولة وتحقيق الذات، المرأة.. والبناء.. سورة غافر والنحل (٣) ———— ١١١
المرأة.. ورسالة البناء.. وقبس آخر من سورتي المؤمن والنحل (٤) ———— ١١٥
المرأة.. وتنمية القدرة الذاتية للأمة.. نُقلة التحوُّل والبناء (١) ———— ١١٩
المرأة.. وتنمية القدرة الذاتية للأمة.. نقلة التحوُّل.. والبناء (٢) ———— ١٢٣
الرجل والمرأة.. والبناء.. تنمية الطاقات ———— ١٢٧
النظر إلى كفايات المجتمع.. مسؤولية المرأة.. وتكامل البناء.. وسورة المؤمن ———— ١٣١
مسؤولية البناء المبكرة.. وتكريم المرأة بها، التكامل.. والتوجه الحضاري ———— ١٣٥
مع سورة النحل.. ومسؤولية المرأة في البناء، المحور الإيماني (١) ———— ١٣٩
المرأة بين الأصالة والتبعية على طريق البناء.. وعودة إلى سورة النحل (٢) ———— ١٤٣
المرأة.. ومسؤولية البناء المشتركة.. الحكمة البالغة.. وسورة النحل (٣) ———— ١٤٧
من الجاهلية إلى الإسلام.. المرأة وإحكام البناء.. وسورة النحل (٤) ———— ١٥١
المرأة.. والبناء.. الأنموذج.. وسورة النحل (٥) ———— ١٥٥
المرأة.. والنقلة الفاعلة إلى ساحة البناء وسورة النحل (٦) ———— ١٥٩
المرأة.. وإحكام البناء.. الشعور بالمسؤولية.. والمشاركة الإيجابية ———— ١٦٣
ظاهرة البديل الصالح.. على طريق البناء.. وتحرير المرأة من أوضار الجاهلية (١) ———— ١٦٥
ظاهرة البديل.. على طريق البناء.. وتحرير المرأة من أوضار الجاهلية (٢) ———— ١٦٧

حقائق الإسلام.. والبديل الصالح.. المرأة والمسؤولية (٣) ـــــــ ١٧٣
المرأة والرجل.. على ساحة البناء الاقتصادي.. وسورة الحديد (١) ـــــــ ١٧٥
المرأة والرجل.. والبناء.. الحكمة في خطاب التكليف (٢) ـــــــ ١٧٩
المرأة والرجل.. والبناء.. الحكمة في الخطاب التكليف (٣) ـــــــ ١٨٣
المرأة.. وإزالة الركام الجاهلي من طريقها ودلالة ذلك (١) ـــــــ ١٨٧
مرة أخرى.. مع المرأة وإزالة الركام الجاهلي ودلالة ذلك (٢) ـــــــ ١٩١
المرأة.. وإزالة الركام الجاهلي.. البديل الصالح (٣) ـــــــ ١٩٥
العبرة في نقض القرآن للموقف الجاهلي من الأنثى ـــــــ ١٩٩
مسؤولية المرأة والبناء.. وسورة التوبة (١) ـــــــ ٢٠٣
مع سورة التوبة.. البناء الاجتماعي.. وموقع المرأة (٢) ـــــــ ٢٠٧
عظم مسؤولية المرأة.. في البناء.. وسورة التوبة (٣) ـــــــ ٢١١
سورة التوبة.. المسؤولية المشتركة.. في البناء وأثر مقومات السلوك (٤) ـ ٢١٥
سورة الأحزاب.. وتوكيد مسؤولية المرأة الدينية.. في البناء (٥) ـــــــ ٢١٩
بناء الخلية الأولى.. وتحرير المرأة من ربقة الجاهلية (١) ـــــــ ٢٢٣
بعد الجاهلية: إنسانية المرأة كما أراد الإسلام وأثر ذلك في بناء الخلية الأولى (٢) ـــــــ ٢٢٥
المرأة المسلمة.. والبناء على أرض الواقع.. الهجرة.. وسورة الممتحنة (١) ـ ٢٢٧
المرأة.. والبناء على أرض الواقع.. الهجرة.. وسورة الممتحنة (٢) ـــــــ ٢٢٩
المرأة المسلمة والبناء.. والعطاء المتجدد.. وسورة الممتحنة (٣) ـــــــ ٢٣١
تربية المرأة والرجل على الإخلاص في البناء وأهمية الموارد البشرية (٤) ـ ٢٣٣
إحكام البناء.. وامتحان المهاجرات المؤمنات (٥) ـــــــ ٢٣٧
استجابة المرأة للهداية القرآنية.. والبنية الجديدة للمجتمع (٦) ـــــــ ٢٣٩
موقف المهاجرات المؤمنات.. والبناء الاجتماعي (٧) ـــــــ ٢٤٣
مبايعة النساء.. والبناء.. ونقلة الإسهام العظيم (١) ـــــــ ٢٤٥
مرة أخرى مع مبايعة النساء.. ودرس في التحويل (٢) ـــــــ ٢٤٩
المبايعة.. والبناء.. والهدي المحمدي (٣) ـــــــ ٢٥١
المرأة.. والبناء.. على صعيد التمكين في الدنيا والمثوبة في الآخرة ـــــــ ٢٥٣

البناء.. وما يجب من إعداد المرأة المسلمة وتربيتها ـــــــ ٢٥٧
جيل التغيير.. ودور المرأة في إحكام البناء وتكامله ـــــــ ٢٦١
المرأة والرجل في الآية.. على ساحة البناء ـــــــ ٢٦٥
الرجل والمرأة.. وهدي القرآن في البناء ـــــــ ٢٦٧
المرأة.. وهدي القرآن في البناء ـــــــ ٢٧١
ظلم المرأة في الجاهلية.. والإخلال بالبنية الاجتماعية ـــــــ ٢٧٥
ساحة البناء.. ومؤمن آل فرعون (١) ـــــــ ٢٧٩
جانب آخر.. على ساحة البناء ومسؤولية المرأة في سورة المؤمن (٢) ـــــــ ٢٨٣

لا يماري أحد من أهل النَّصَفة ممن عنده أثارة من علم في أن من أجلّ نعم الله على الأمة المحمدية بل على البشرية كلها هذا القرآن الكريم الذي أنزله الله على نبينا محمد ﷺ؛ ليكون ينبوع الحكمة ونور الأبصار والبصائر.

لقد حمل هذا الكتاب المجيد في معالمه النورانية نهجًا من البناء الحضاري القويم على صعيد الفرد والجماعة والأمة بشمول وعمق بالغين، فهذا القرآن المبين يهدي ويرشد العباد على خير منهج في دينهم ودنياهم لأقوم الحالات وأصوبها.

إن هذه الصفحات التي يضمها هذا الكتاب بين دفتيه إنما هي ثمرة من ثمرات رحلة ميمونة منّ الله بها على المؤلف عاش من خلالها مع عدد وافر من المعالم القرآنية المكي منها والمدني. ولقد تناولها بأمانة علمية منهجية محاولاً الكشف -قدر الطاقة- عن معانيها ومنارات الهداية في كل منها حسب موقعه المطروق في ساحة البناء الشامل بمعناه الإسلامي الحضاري الذي يتناول -مع العقيدة والعبادة والأخلاق- شؤون الحياة بأكملها لأن جذور حضارتنا الإسلامية تكمن في هذه المعالم الخيرة.

كم تركز هذه الصفحات على حقيقة لابد أن يعيها الجميع وهي:

«أينما وجدت المصلحة في عرف هذه الحقيقة: فثم شرع الله ودينه».

ونحن إذ نقدم هذا الكتاب للقراء الكرام لنأمل أن يكون خير معين بعد الله على الرقي والنهوض والعمل بما ينفعهم في الدنيا والآخرة.

موضوع الكتاب: ١- المرأة في الإسلام

موقعنا على الإنترنت:
http:/www.obeikanbookshop.com

ISBN:9-102-54-9960

9789960541020

ORD:000069-1